

المسألة الأولى في الأدب

الجزء الثاني

البيان الإسلامي

تأليف

رينهاردت دوزي

ترجمة وتعليق وتقييم

د. حسن حبشي



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

HISTOIRE
DES
MUSULMANS D'ESPAGNE
JUSQU'À LA CONQUÊTE DE L'ANDALOUSIE PAR LES ALMORAVIDES
(711—1110)

PAR

R. DOZY

NOUVELLE ÉDITION REVUE ET MISE À JOUR

PAR

E. LÉVI-PROVENÇAL

TOME II

LIBRAIRIE ET IMPRIMERIE
CI-DEVANT E. J. BRILL S.A.
LEYDE — 1932

مقدمة الجزء الثاني

هذا هو الجزء الثاني من الترجمة العربية لتاريخ المسلمين في الأندلس لدوزى ، تقدمه شاكرين الله تعالى على ما لقيه سابقه من الاقبال ، راجين أن نتبعه بالثالث الذى يكمل به تاريخ الأندلس منذ الفتح الاسلامى حتى دخول المرابطين ، والذى سيتضمن كشافات تعين القارىء على العثور على ما ينشده ، كما سنزوده بملاحق تاريخية خاصة بهذه الفترة وقوائم بالأماكن والأعلام بالرسمين العربى والأفرنجى والمصادر التى رجع المؤلف ورجعنا اليها .

ولقد كانت التفاتة طيبة من القوامين على ندوة (*) « الأندلس : الدرس والتاريخ » التى أقامتها كلية آداب جامعة اسكندرية بالتعاون مع رابطة الجامعات الاسلامية أن تكرم ذكرى « دوزى » بين من كرمتهم من العلماء والباحثين من الشرق والغرب ممن أسهموا فى مجال التاريخ الأندلسى .

والله الموفق

القاهرة فى العشرين من ذى القعدة ١٤١٤ هـ ٠١ د • حسن حبشى
أول مايو ١٩٩٤ م

(*) اقيمت هذه الندوة بقاعة الاحتفالات الكبرى بجامعة الاسكندرية فى الفترة من ١٢ حتى ١٥ ابريل ١٩٩٤ (= ٢ - ٤ من ذى القعدة ١٤١٤ هـ) وكان مؤلف هذا الكتاب ومترجمه ممن كرمتهم الندوة .

الفصل الأول

- حركات المقاومة بالشرق في القرن الثالث الهجرى
- ظهور عبد الله بن ميمون ودعواه الباطلة • الطابع السرى
- للحركات فى اليمن والمغرب • الفاطميون والاندلس ودعوة
- ابن مسرة • مملكة ليون وحركة « بلاى » التمردية • ثورة
- اهل جليقية • ادعاء احمد بن معاوية الاموى المهديّة •
- تجنيده البربر لمحاربة الليونيين • مقاومة ذلول بن يعيش له •

الفصل الأول

لقد أبدت الحكومة الإسلامية في الشرق من جانبها روح التسامح الديني نحو أهل البلاد المسلمين من أتباع الديانات القديمة الذين لم يهددوا قط سلامة الدولة ، إلا أنها لم تكن تستطيع أن تتهاون أبدا إزاء المسلمين الذين تظاهروا بالإيمان بينما ظلت قلوبهم غلغا في الوثنية والذين بذلوا قصارى جهدهم خفية لتغيير وجهة الإسلام وذلك بتطعيمه بعقائدهم الخاصة .

لقد كان الدافع الديسوي هو الدافع الحقيقي الكامن في نفوس المتظاهرين بالإسلام في فارس وفي إسبانيا أيضا ، وكان عددهم عظيما ، والأغلب أن هؤلاء المنافقين كانوا من الرجال المتقنين وأكثر القوم جشعا في المجتمع . ولما كانت الطبقة العربية المتنفذة قد أخذتهم أخذا عنيفا أنى ثقفتهم فقد تاقوا لبعث قوميتهم الفارسية وإحياء الامبراطورية الإيرانية (١) فلا عجب ان لم تتوان الحكومة في استعمال الشدة الضارية معهم حتى ان الخليفة المهدي [العباسي] عمد في كبح جماحهم الى انشاء ديوان (٢) عرف بديوان الزندقة ظل قائما حتى أواخر أيام هرون الرشيد .

ولما كان الضغط يولد الانفجار ، والاضطهاد يؤدي الى الثورة فقد قام في « أذربيجان » رجل اسمه « بابك » تزعم طائفة « الخرمية » أو « الفسقة » (٣) كما سماهم خصومهم . وانقضت عشرون سنة من ٨١٧ حتى ٨٣٧ م (= ٢٠٢ - ٢٢٣ هـ) ظل خلالها « ابن حفصون » الفارسي هذا ينزل الهزائم الساحقة بجيوش الخليفة التي كان يبعثها الأخير اليه ، ولم تفلح هذه الكتائب المجهزة في القبض عليه الا بعد أن أفنى من رجالها مائتين وخمسين الفا (٤) .

بيد أنه كان هناك ما هو أشد خطرا من اخماد الثورات المسلحة وأعنى به محاولة كشف الطوائف السرية ، كما انتشرت في الخفاء العقائد الفارسية القديمة والأفكار الفلسفية التي تبرزها خطورة ، وقد أسفر هذا

الصراع بين الديانات والملل المختلفة عن قيام جمهور كبير في الشرق نبذ هذا كله زعما منه أن « الأديان إنما هي للعامة وحدهم » (٥) .

في أحضان هذه الجماعة السرية ، وفي مستهل القرن التاسع للميلاد ، خرج باعث طائفة الاسماعيلية « عبد الله بن ميمون » (٦) الذي كان من أسرة فارسية مانوية العقيدة تزعم وجود الهين أحدهما للنور والآخر للظلمة .

كان « عبد الله بن ميمون » هذا ابن فداح ذكي الفؤاد ، ولما كان يتجنب الوقوع تحت شبهات ديوان الزندقة الذي راح ضحيته سبعون من أصدقائه فقد لاذ ببيت المقدس حيث أخذ ينشر في الخفاء العلوم والآراء الهدامة، في الوقت الذي كان يتظاهر فيه بالعطف البالغ على الشيعة ويتغالى في تعظيمها . ولم يقتصر شأنه - تحت توجيه أبيه له - على أن يكون داعية حاذقا فحسب ولا قداحا بارعا في طب العيون فقط بل أصبح كذلك ذا الملم تام بالعقائد الدينية والمبادئ الفلسفية ، فحاول في بداية الأمر أن يحمل الناس على اعتباره نبيا اعتمادا منه على مواهبه ، لكنه فشل في هذه التجربة ، ومن ثم أخذ يمهد الطريق شيئا فشيئا لتدبير مشروع أعظم اتساعا وأجل خطرا (٧) .

وكانت الفكرة المختمرة في ذهن « ابن ميمون » ترمى الى تأليف جماعة سرية تضم اليها جموع الغائبين والمغلوبين على السواء ليعملوا يدا واحدة ، وجعل أعضائها مرتبين على درجات في الاطلاع على أسرارها ، وفيها المفكرون الأحرار الذين لا يرون في الدين الاغلا في الأعناق ، وفيها المتمسكون بدياناتهم من جميع الملل ، وكان هدفه من وراء ذلك يتمثل في اتخاذ هؤلاء الأتقياء وسيلة للسيطرة على المتشككين واستغلال أولئك الفاتحين في قلب وضع الامبراطورية التي أقاموا دعائمها ، كما استهدف من وراء ذلك أن يؤلف في النهاية من هؤلاء وهؤلاء جماعة واحدة ضخمة تمثل لأمره وتدين بالطاعة له ، وتستطيع في الوقت الملائم أن تنقل العرش الى أبنائه من بعده ان لم يكن له هو نفسه في حياته . ولا مشاحة في أن هذه فكرة خطيرة تنطوي على جرأة بالغة وتتطلب همة جبارة واقداما لا مثيل له ، ودراية عميقة بما جبلت عليه الطبيعة البشرية .

انطوت الوسائل التي عمد اليها ابن ميمون على مكر شيطاني ، فهو في ظاهر أمره «اسماعيلي» . وكان الانقراض مقدرا لهذه الطائفة نظرا لحاجتها الى زعيم ينفث فيها حياة جديدة ، فجاءها ابن ميمون ووعدها بالزعيم المنتظر وقال (٨) : « لم تكن الدنيا ولكن تكون بلا امام ، كائنا من كان هذا الامام . قد كانت الامامة في أبيه وجده وقيم من قبلهما حتى

تنحدر الى آدم ، كذلك فان ابن الامام امام وحفيده أيضا ، وهكذا حتى ينتهى العالم ، ولا يقبض الامام حتى يولد له ولد تؤول الامامة اليه دن بعد أبيه ، غير أنه لا يتم ظهور الامام على الدوام ، فقد يظهر أحيانا ويختفى أخرى وهكذا دواليك كما يتعاقب الجديدان . ومتى كان الامام ظاهرا استترت دعواه فان اختفى ظهرت ، وحينذاك يظهر دعائه بين الناس » .

وتمكينا لهذه العقيدة فى النفوس نرى « عبد الله بن ميمون » يقتبس آيات من القرآن الكريم وساعدته هذه الفكرة على ايقاظ آمال الاسماعيلية الذين أخذوا بفكرة الامام المخفى ، وانه سوف يظهر أخيرا فيدبر أمر العالم ويؤلاه عدلا . وعلى أية حال فان عبد الله هذا كان يحتقر فى قرارة نفسه هذه الطائفة ، وما كان تظاهره بالدعوة الى آل على [بن أبى طالب] الا وسيلة لتحقيق مأربه . واذ كان هو فارسيا فى صميمه فقد كان يضم البغض للعرب جميعا ، غير مستثن منهم أحدا حتى عليا أبناؤه .

لم يخطئ عبد الله بن ميمون فيما دبر ، ومن ثم أشار على أتباعه الخلفى بالا تأخذهم هوادة فى قتل كل من يقس فى أيديهم من أولاد علي (٩) .

ولم يحاول أن يستخلص أتباعه الأوفياء من بين رجال الشيعة بل أخذ يفتش عنهم بين الزرادشتيين والمناويين ووثنيى حران وبين عشاق الفلسفة اليونانية (١٠) الذين كان جل اعتماده عليهم ، وأفضى اليهم - دون سواهم . بكلمة السر الأخيرة ، وذكر لهم أن ليس الأئمة والديانات والأخلاق غير ادعاء كاذب ووهم باطل ، أما غير هؤلاء الرجال أو « الحمير » - كما كان يسميهم - فلم تكن لهم فى رأيه القدرة على استيعاب هذه المبادئ وأمثالها . ومع ذلك فانه لم يحقر من شأن هذه الجماعة بغية الوصول الى هدفه المنشود بل سار على العكس من ذلك اذ نراه يجد كل الجد فى الحصول على مساعدتها وتأييدها له ، الا أنه أخذ حذره واحتاط فلم يطلع المدنيين والأتقياء الا على المبادئ الأولية للطائفة . أما دعائه الذين وقر فى نفوسهم أن واجبهم الأول هو اخفاء أغراضهم الحقيقية والامثال لما يلقي اليهم امثالها تماما فكانوا قرابة ألف جماعة يختلف بعضهم عن بعض ، وقد أمرهم أن يخاطبوا كل فرد على قدر عقله ، فسيطر هؤلاء على الطغام والجهلة بما كانوا يلقونه اليهم من خزعبلات ينزلونها من أنفسهم منزلة المعجزات ، أو من معميات تنير الدهشة والفضول ، فاذا كانوا مع الأتقياء طلوعوا عليهم بمسوح الورع والتقوى ، وبذلك ليسوا لكل حال لبوسها ، فهم صوفيون مع المتصوفة يفسرون لهم المعانى الخفية للأمور الظاهرة وكذلك الرموز والمعانى الرمزية، مستغلين فى ذلك ما ابتلى به

هذا الجيل من النكبات ، موشين لأبنائه الآمال الفضفاضة بمقدم عصر
أزهى تتنفس فيه الصعداء جميع الطوائف ، ووعدوا المسلمين بقرب ظهور
« المهدي » الذي تنبأ به الرسول [عليه الصلاة والسلام] ، ووعدوا اليهود
بالمسيح المنتظر ، والنصارى بمعزيهم . ثم وجدوا أنفسهم في حاجة الى
معونة العرب من أهل السنة الذين كان من العسير ضمهم الى صفوفهم
لكنهم شعروا بحاجتهم الملحة اليهم كي يجدوا لهم ملجأ وملذا يدرأ عنهم
الشبهات ويصد عنهم عادية السلطة الحاكمة ومطاردتها اياهم ، كما كانوا
يريدون استغلال ثرواتهم الضخمة في تحقيق مآربهم ، ومن ثم أخذ هؤلاء
الدعاة في اثاره كبرياء العرب القومي زاعمين لهم أن جنسهم هو أصل
جميع الفضائل الدنيوية ، وأن الفرس ما خلقوا الا لكي يكونوا عبيدا لهم ،
وتظاهروا أمامهم بازديادهم المال ، وأظهروا الرحمة البالغة كسبا لثقتهم
التي ما كادوا يحصلون عليها حتى أخذوا يضيقون الخناق عليهم وجعلوهم
في موطن النعال ، ثم أخذوا بعد ذلك يلقون الى العرب أن من واجبه
اعانة الطائفة بهياتهم المالية والتنازل عن ممتلكاتهم لها (١١) .

بهذه الوسيلة أصبح كثير من الجماعات المختلفة تعمل معا في عمل
لا تعرف مرماه الا شردمة ضئيلون، وأخذ هذا المشروع في السير قدما الى
الأمم لكن في خطى بطيئة ، واذ ذاك أدرك عبد الله أنه لن يتأتى له أن
يشاهد بنفسه ثمرة عمله فعهد الى ابنه أحمد - الذي خلفه في الزعامة -
بإقتفاء أثره ومتابعة العمل ، واستطاعت الجماعة أن تضي للأمام في خطى
سراع تحت لواء أحمد ومن جاء بعده ، ويرجع الفضل في ذلك على
الخصوص الى انضمام كثير من رجال الشيعة الأخرى اليه ، وكان هذا
الفرع - كما قلنا من قبل - يجعل الامامة في أبناء موسى ولد جعفر
الصادق ، بيد أنه لما كان الامام الثاني عشر محمد قد اختفى وهو في
الثانية عشرة من عمره في سرداب [بسامراء] دخله هو وأمه عام ٨٧٩ م
(= ٢٦٦ هـ) ، ولما كان أتباعه وهم الاثنا عشرية (١٢) - كما يسمون -
قد طال انتظارهم رجوعه بلا جدوى فلم يكن من العسير عليهم الانضمام الى
صفوف الاسماعيلية الذين أسعدتهم الظروف بأن كان يرأسهم زعيم على
قيد الحياة وعلى أتم أهية لظهار نفسه حينما تؤذن الظروف بذلك .

ولما كان عام ٨٤٤ م (= ٢٧١ هـ) قام أحد دعاة الاسماعيلية
واسمه ابن حوشب [وكان من قبل اثني عشرية] ودعى جهارا في اليمن
فدانت له صنعاء وأوفد دعائه الى جل أقاليم البلاد فذهب اثنان منهم
فبحرنا - على حد قول التسبعة - أرض كتامة واقليم قسنطينة ، ولما
مات بعث ابن حوشب أحد تلاميذه ويدعى عبد الله (١٣) .

كان أبو عبد الله [المحتسب] رجلا نشيطا مقدما مالكا لأعنة
الفصاحة ، وعلى جانب كبير من الخبث والدهاء مكنه من السيطرة على

عقول البربر ، فكان خيز من يقوم بأداء المهمة التي نيطت به على الرغم من أنه لم يكن يعرف الا المبادئ الأولية للطائفة ، حتى ان دعائه أنفسهم لم يكونوا يدركون في بعض الأحيان الهدف المنشود من هذا العمل (١٤) .

بدأ عبد الله مهمته بتعليم أبناء كتامة محاولا اكتساب ثقة مضيفيه ، حتى اذا وثق من نجاح مشروعه طرح القناع من على وجهه وسمى نفسه بالشيعي ، وبشر بالمهدى المنتظر ، ووعد أهل كتامة بخير الدنيا والآخرة اذا هم اشتركوا في الجهاد ، وسرعان ما أذعنوا في غير عسر له واجتذبتهم ذلك الداعية الى صفه بما كان يلقيه اليهم من كلام خفي المعاني ، كما يسر له مهمته أيضا الأسلاب التي غنموها ، وكانت كتامة من أكثر القبائل رجلا وأقواها بأسا ، واستطاعت المحافظة على استقلالها القديم والروح الحربية التي انطبع عليها أبناؤها ، ومن ثم كان نجاحهم يمشى في خطى سراع الى الأمام ، حتى انهم بعد استيلائهم على آخر مدينة كانت في حوزة الأمير الأغلبى الذى حكمت أسرته البلاد أكثر من قرن أكرهوه على الفرار من محل اقامته بصورة عجز معها عن استصحاب امرأته معه ، وحينذاك قام عبد الله فأجلس على العرش سنة ٩٠٩ م (= ٢٩٨ هـ) سعيدا المهدي زعيم الطائفة وهو من نسل عبد الله القداح ، فزعم أنه من ذرية على وتسمى باسم عبد الله المهدي (١٥) ، ولما أصبح خليفة فانه - وهو واضع دعائم الأسرة الفاطمية - أخذ يعنى بنشر مبادئ هذا المذهب ، ولربما كان يكون أكثر صراحة أمام الناس لو أنه أحرز انتصاره هذا في قطر آخر كفارس مثلا ، لكنه لما كان يدين بعرشه الى فئة نصف همجية وليس لها ادراك للمعاني الفلسفية فقد اضطره ذلك الى الاشتداد على نفسه وعلى أعضاء الطائفة المتقدمين الذين أظهروا التشريق (١٦) . كذلك لم يصرح علانية بمقصد الطائفة الحقيقى الى أن كان مستهل القرن الحادى عشر الميلادى حين ثبتت قوة الفاطميين وأصبحت مدعمة الأساس لا يخشى عليها فأفصح عما كان خافيا وكذلك حين أصبح فى مقلودهم - بفضل جيوشهم الجرارة وأموالهم الكثيرة - من السير قدما غير مكترئين كثيرا بحق الوراثة الشرعى (١٧) .

لم تكن الاسماعيلية فى بداية الأمر تفترق عن الطوائف الأخرى الا بتعصبها وفضائلها ، فكان رجالها يجلدون أئمة الدين والفقهاء ويقتلونهم صلبا لتوقيعهم ذكرى الخلفاء الثلاثة الأوائل (١٨) أو لجهلهم الصيغة الشيعية أو لاصدار فتاويهم وفق المذهب المالكي وذاق المسلمون منهم كل وبال ونكال ، وكان أكبر ما يخشاه المتزوج أن يقع عندهم تحت طائلة القصاص بعدهم اياه كافرا اذ يرغمونه على مشاهدة زوجته وهى تفتصب فى حضرته ويصفع على قفاه ويبصق فى وجهه .

وقد حاول عبيد الله - والحق يقال - كبح جماح جنده لكنه لم يبلغ

ما أرادهم منهم ، أما شيعته الذين يقال انهم لم يكونوا يريدون رئيسا .
 مخجوبا فقد الهوا وعيمهم عن رضا وطيب خاطر بما يتفق وأراء الفرس .
 الذين كانوا يزعمون تجسد الروح الالهى فى شخص الحاكم ، لكنهم فعلوا
 ذلك على أن يسمح لهم بممارسة كل ما يريدون ، وهيهات أن يرى من
 ضريب لما ارتكبه أولئك القنساء فى البلدان المفتوحة من الفطائح ، فقد
 حدث فى برقة أن قطع قائدهم أوصال بعض سكانها وجعلها شواء ثم أرغم
 البعض على أكل هذا اللحم المذهب ، ولما فرغ من ذلك ألقى بهؤلاء
 الأخيرين الى النار فأوقع فى أيدي الاقريقين البؤساء الذين أدخلوا الى
 السكون التمام ولم يكن أملهم فى النجاة يتجاوز القبر حتى لقد كتب أجمل
 مفاصيرهم (١٩) يقول : « وهذا دليل على هوان الدنيا على الله وصغر
 قدرها عنده ، اذ يمكن فيها لهؤلاء الكفرة الفجار أن يسوموا أولياء الله
 سنوء العذاب والمعاد القيامة ، والحاكم الله » .

* * *

كان اعتزاز الفاطميين بالحاكم العالمى جاعلا اياهم مصدر خطر على
 جميع الممالك الاسلامية عامة والاندلس خاصة ، ذلك أنهم كانوا يتوَقَّون
 منذ زمن بعيد لأن تكون لهم السيطرة على هذه البقاع الجميلة الثرية ،
 ثم أصبح عبيد الله بالكا لدولة الاغالية تقريبا قبل تحالفه مع ابن حفصون
 بيند أنه لم يكن هناك داع لأن يتطرق اليأس الى قلوب الفاطميين ، اذ جاس
 مبعوثوهم السريون أرباض شبه جزيرة ايبيريا فى زى تجار .

ويمكن للمرء أن يكون لنفسه فكرة عن التقارير التى رفعوها الى
 ولاة أمورهم اذا ما قرأ احدى هذه الرسائل التى دارت بينهم والواردة
 فى رحلة ابن حوقل (٢٠) اذ قال « ومن أعجب ما فى هذه الجزيرة بقاؤها
 على من هى فى يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم وتقص عقولهم
 وبعدهم عن اليأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس
 الأتجاد والأبطال مع علم أمير المؤمنين بمحلها فى نفسه ومقدار جبايتها
 وموقع نعمها ولذاتها » .

كان لابد للفاطميين أن يجدوا أتباعا كثيرين لهم بين أهل الأندلس
 لو قدر لهم النجاح فى النزول بينهم ، اذ كانت عقيدة المهدي المنتظر سائدة
 فى اسبانيا كما هو الحال تماما فى بقية العالم الاسلامى ، ولقد حدث
 فى سنة ٩٠١ م (٢٨٨ هـ) - كما سنقص فيما بعد - أن قام أمير من
 البيت الأموى وادعى بأنه المهدي المنتظر ، وتطالعنا نبوة أذاعها الفقيه
 عبد الملك بن حبيب (٢١) عام ٨٥٣ م (= ٢٣٩ هـ) ذكرها فى كتابه
 له أنشاء قبل قيام الدولة الفاطمية بعشرين سنة وفيها (٢٢) يزعم أن
 واحدا من نسل فاطمة الزهراء ستؤول اليه مقاليد الحكم فى اسبانيا ،

وسيفتزل جميع الذكور فى قرطبة وما جاورها من الولايات وبيع نساءهم وأولادهم حتى يصبح فى قدرة المرء أن يحصل على الغلام بسوط والحوذ الصغيرة بمهماز ، فامن الرعاغ - كما جرت العادة فى مثل تلك الأحوال - بصحة هذه النبوءة ، عَزَّ أنه يمكن القول بأنه كان فى قدرة الفاطميين أن يجلدوا من يحاربهم من ذوى العقول الناضجة لاسيما من المفكرين الأحرار ، اذ دخلت الفلسفة اسبانيا فى عهد الأمير محمد خامس حكام بنى أمية (٢٣) ، غير أن الناس كانوا يتلفون على حنق للفلاسفة لأن القوم هنا كانوا أكثر تعصبا من سواهم فى آسيا ، كما أن علماء الدين من أهل الأندلس الذين رحلوا الى المشرق كانوا يتكلمون فى شىء من الحذر الشديد عن تسامح العباسيين لاسيما فيما يتعلق باجتماعات أئمة جميع الأديان والمذاهب حيث يطرحون على بساط البحث فى هذه اللقاءات مسائل تتعلق بما وراء الطبيعة ويعالجونها بلا مبالاة ، كما أن المسلمين كانوا يتناولون فى هذه الاجتماعات (٢٤) القرآن ، وكان القوم يمقتون الفلاسفة ويمدونهم زنادقة ينبغى حرقهم ورجمهم دون ما رحمة بهم أو شفقة (٢٥) ، ومن ثم أكره المفكرون الأحرار على كتم آرائهم ، ولا شك أنهم كرموا هذا الوضع ، واذن أفلا تدفعهم هذه الحال الى شد أزر الأسرة التى تتفق مبادئهم واياها ؟

ذلك ما يذهب اليه الظن !!

والظاهر أن الفاطميين كانوا على علم بهذا الأمر ، ويتضح لنا أنهم حاولوا تكوين ركن لهم فى اسبانيا ، فبعثوا لها من أجل هذا السبب بالفيلسوف ابن مسرة (٢٦) ٨٨٣ - ٩٣١ م (= ٢٧٠ - ٣١٩ هـ) .

كان ابن مسرة هذا من أهل قرطبة وكان آخذاً بمذهب ألوهية الكون (٢٧) ، وقد تعمق فى دراسة ترجمات بعض كتب يونانية معينة ينسبها العرب الى أمبيلوكليس ، ولما رمى بالزندقة اضطر الى مغادرة البلد والطواف بأرجاء الشرق حيث وقف على مبادئ الطوائف المختلفة ، والظاهر أنه انضم خفية الى طائفة الاسماعيلية السرية ، يحملنا على هذا الظن مسلكه فى اسبانيا بعد رجوعه اليها اذ بدلا من أن يجهر بأرائه - كما كان يفعل أيام شبابه - أخذ فى كتمانها وأظهر الكثير من الورع والتشفيق ، ونحسب أن زعماء هذه الطائفة السرية ألقوا اليه أن تضليله الناس وخذعه اياهم لا يتأتى الا بطوعه عليهم فى مسوح أهل السنة والتقوى فتمكن بفضل هذا القناع الذى لبسه وبفضل أسنوبه العذب من اجتذاب العامة الى جانبه ، واختلف لسنماع دروسه حشد كثيف من الطلاب الذين أخذ يهضى بهم شيئا فشيئا من اليقين الى الشك ومن الشك الى الجحود والكفر ، غير

أنه لم يوفق في خديعة الفقهاء الذين كانوا يسرون بهدي نفوسهم فتوجسوا خيفة منه ، وأججوا النيران لحرق كتبه وليس لحرقه هو اذ لم يكن عبد الرحمن الثالث [الناصر] يسمح بذلك .

وعلى أية حال فسواء أكان ابن مسرة هذا جاسوسا اسماعيليا أم لم يكن (لعدم وجود بينة قاطعة في هذا الصدد) الا أن الواقع هو أن الفاطميين لم يدعوا وسيلة ما لايجاد شيعة لهم في اسبانيا الا واتبعوها ونجحوا في هذا السبيل الى حد ما (٢٨) ، ولا مشاحة في أن سلطان الفاطميين كان خيرا للمفكرين الأحرار وان كان كارثة كبرى للجمهور لا سيما المسيحيين ، ولقد وردت في كلام ابن حوقل عبارة حوشية تفصح عما كان يتوقعه النصارى على أيدي الكتاميين المتعصبين ، وذلك بعد أن ذكر أن المسيحيين الذين لقيهم يربون على عدة آلاف في القرى كثيرا ما يقيمون العقبات في طريق الحكومة بما يشيرونه من القلاقل والفتن ، فاقترح ابن حوقل وسيلة فعالة سريعة حتى لا يعاودوا الكرة بعد ذلك أبدا ألا وهى قتلهم جميعا على بكرة أبيهم (٢٩) .

كان هذا العمل - فى نظر ابن حوقل - عملا لا غبار عليه ، غير أن الصعوبة الوحيدة فيه هى أن القتل يتطلب أمدا غير قصير ، ومن ثم تركت المسألة للزمن ، وكان من الواضح للعيان أن أهل كتامة كانوا لا يريدون تحقيق نبؤة عبد الملك بن حبيب تحقيقا حرفيا .

* * *

كان هذا هو الخطر الذى يهدد اسبانيا العربية من ناحية الجنوب ، أما الخطر الذى يهددها من الشمال فكان مصدره مملكة ليون التى أخذت فى التضخم يوما بعد يوم ، وأصبح خطرها أجل وأدهى .

وليس هناك من أصل أتفه من أصل مملكة ليون هذه فنى القرن الثامن للميلاد كانت لا تزيد عن كورة يدين أهلها بالطاعة للمسلمين ، وحدث أن هرب ثلاثمائة رجل من سكانها تحت قيادة الزعيم « بلاى » واعتصموا بالجبال الشاهقة الواقعة شرقى « أشتوريش » وأقاموا فى كهف صغير يسمى « كوفادنيا » يقوم على نجد شاهق اذ يصعد المرء اليه تسعين خطوة ، وهو منحوت فى صخرة هائلة ويطل على واد سحيق يشقه أخلود تتجمع فيه السيول وتقوم على جانبيه سلسلتان من الصخور شديدتا الانحدار قل أن يتمكن الفارس من المرور بينهما الا بشق النفس (٣٠) ، ومن ثم لم يكن من العسير على ثلة ضئيلة من الشجعان دفع عادية المغير مهما شأهم عددا وعدة ، وهذا ما فعله الأشتوريون وان أغرقهم اليأس فى طياته حتى لقد سلم بعض أصحاب بلاى وأبى آخرون فمات أكثرهم جوعا ، ومرت على بلاى لحظات تلفت فيها حوله فلم يجد غير أربعين شخصا منهم

عشر نساء وليس لديهم جميعا ما يقتاتون به سوى العسل الذى يشتاره النحل ويضعه فى شقوق الصخور ، لذلك تركهم المسامون وشأنهم قائلين : « ثلاثون علجا ما عسى أن يجيء منهم » .

ورآى المسلمون ان ليس يجديهم نفعا أن يتعقبوا هذه الفألة فى ذلك الوادى الخطير الذى لاقى فيه كثير من الأبطال حتفهم دون أى عمل مجيد قاموا به (٣١)، وكان اهمال المسلمين هذا مساعدا لبلاى على تقوية عصابته فانضم اليه رهط كبير من الهاريين أخذ يشن بهم الغارات على الأرض الاسلامية ، وتوالى هذه الهجمات (٣٢) .

وأراد « مندوسة (٣٣) البربرى » - وكان اذ ذاك المتنفذ على الأشتوريين - أن يضع حدا لهذا التخريب فندب لمحاربة بلاى أحد قواده واسمه علقمة ، غير أن حملة علقمة هذه باءت بأعظم خسائر ولقى جنوده أشنع هزيمة ، وكان علقمة نفسه بين القتلى ، فشد نجاح عصابة بلاى من أزر الأشتوريين فرفعوا راية العصيان .

أما مندوسة الذى لم يكن لديه الجند الكافى لخماد هذه الثورة والذى خشى أن يقطع عليه خط الرجعة فقد غادر جيحون - محل اقامته - وشخص الى ليون ، لكنه لم يكده يقطع سبع مراحل حتى داهمه التوم وهاجموه وأصيب بخسارة فادحة ، فلما بلغ ليون دفع اليأس والخوف جميع جنده لرفض العودة الى هذه الجبال التى تعيد لهم ذكرى خسائرهم (٣٤) .

سرعان ما ازدادت قوة الأشتوريين بعد أن تخلصوا من نير السلطان الأجنبى ، وكانت تتأخمهم من الشرق امارة « كنتونيا » التى لم تخضع أبدا للمسلمين ، وتكاثرت قوات المسيحيين حين ارتقى عرش أستوريش الفونس الذى كان قد تزوج قبل ذلك بابنة بلاى ، ومنذ ذلك الحين تكاتف الجميع - بطبيعة الحال - على صد المغير ورده الى الجنوب ، وواتتهم الظروف اذ ذاك حين اعتنق البربر مذهب الخوارج ، وكانت غالبية مسلمى الجنوب من هؤلاء البربر الذين ثاروا ضد العرب وأخرجوهم من البلاد لكنهم لقوا الهزيمة حين تابعوا سيرهم شطر الجنوب وقتلوا كأنهم الوحوش الضارية ، وعلى الرغم من أنهم لاقوا منيتهم بظلم السيوف الا أن المجاعة المروعة التى بدأت عام ٧٥٠ م (= ١٣١ - ١٣٦ هـ) وأصابت اسبانيا لمدة خمس سنوات متتالية كانت أقوى عامل فى اخضاع البربر (٣٥) ، فأجمع أكثرهم العزم على مغادرة اسبانيا واللحوق بأبناء عشيرتهم النازلين بافريقية (٣٦) .

اهتبل أهل جليقية فرصة هذه الهجرة وقاموا جميعا قومة رجل واحد

متمردين على المغير الذي احتل بلادهم قبل عام ٧٥١ م (= ١٣٢ هـ)
وملكوا عليهم الفونس واستطاعوا بفضل معاونته اياهم الفتك بعدد كبير
من أعدائهم وارغام الباقين على الانسحاب الى أشتورقة .

واستمر البربر يتقدمون شطر الجنوب (٣٧) عامي ٧٥٣ - ٧٥٤
فأخلوا براجة وبورتو وبازو وتخلص هذا القسم بأكمله - حتى منبع نهر
دويرة - من نير العبودية ، ولما كان العرب قد أخذوا في الارتداد على
طول الخط ولم يستطيعوا الملك في أشتورقة أو ليون أو سمورة أو لديها
أو شملنقة فقد مضوا الى قورية وماردة .

أما في الجانب الشرقي فقد غادروا صلدانية وسيمكناس وسيجوفيا
وأفيلا ووخشمة وميرندة ، وتقع كلها على نهر الابرو ، كما غادروا شنشيرو
والزراونكو وهما في ولاية رية ، ومنذ ذلك الحين أخذت المعاقل الاسلامية
الهامة في التحول من الغرب الى الشرق حيث كويمبر على نهر موندجو ،
وحيث مدينة طلبيرة وطليلطة على نهسر تاجة ووادى الحجارة وتويلة
بوينلونة .

ومنذ سنة ٧٧٠ م (= ١٣٢ هـ) تعاونت الحروب الأهلية والمجاعة
العظمى على تحرير جزء كبير من اسبانيا من الحكم الاسلامي الذي لم يدم
أكثر من أربعين سنة ، غير أن الفونسو انتفع ببعض الشيء من الفوائد التي
تهيأت له فراح يذرع البقاع التي غادرها المسلمون وحكم السيف في رقاب
من وجده منهم بها ، وكانوا بلا شك ثلة قليلة ، غير أن أملة في امتلاك هذه
البلاد تبدد هباء لقله من لديه من الصبيد اللازمين لفلاحة الأرض في اقليم
فسيح كهذا الاقليم ولقلة توافر المال في يديه مما يلزمه لترميم تلك القلاع
والحصون التي عمد المسلمون الى هدمها أو تخريبها قبل رحيلهم ، ومن
ثم استصحب معه مواطنيها حين أب الى مملكته ولم يستطع أن يحتل سوى
الاقليم المتاخمة لملكاته الأولى وهي اقليم « ليانا » (أي الجزء الجنوبي
الشرقي من مقاطعة سانت أندريه) وقشتاله القديمة التي سميت فيها بعد
بردولة وشاطيه جليقية (٣٨) وربما مدينة ليون أيضا (٣٩) .

أما بقية الاقليم فلم يكن منذ زمن بعيد غير صحراء قفر تعتبر (٤٠)
حدا فاصلا بين نصارى ومسلمي الجنوب (٤١) .

الا أن خلفاء الفونس الأول أتموا ما عجز سلفهم عن ادراكه ، ذلك
أنهم في حروبهم ضد العرب دأبوا على اتخاذ مدينة ليون مركزا لهم وراحوا
يعملون شيئا فشيئا على إعادة بناء أهم المدن والقلاع ، فلما كان النصف

الثانى من القرن التاسع للميلاد - حين كان أهل الجنوب كله على وجه التقريب متمردين على السلطان - أخذ المسيحيون يمدون حدود اقليمهم حتى بلغوا نهر دويرة حيث شيّدوا أربعة حصون قوية هي : سمورة ، وشمنقة وشنت اشتيين دى جرمان وخشمة ، وهذه القلاع هي الحد الفاصل بينهم وبين المسلمين ، وهو حد ليس من اليسير اختراقه .

أما الاقليم الواسع الفقير المجلب (الممتد من نهر دورو الى وادى يانة) فقد بقى مستقلا غير تابع لأحد من العرب أو أهل ليون ، لكنه كان ميدان تنافس بينهما (٤٢) .

وأما من الناحية الغربية فقد كان الآخرون أكثر احتكاكا بأعدائهم الطبيعيين ، والسبب فى ذلك أن حدودهم فى تلك المنطقة كانت تمتد الى ما وراء « مندجو » (٤٣) الا أنه طالما اجتيزت هذه الحدود ، كما استفاد الليونيون أيضا من ضعف السلطان فأرسلوا بعض الحملات الجريئة التى ظلت تتابع سيرها حتى جاوزت نهري تاجه والوادى اليانغ (٤٤) ، وكان معظم القبائل النازلة بين هذين النهرين من البربر ، ولم تكن قادرة على المقاومة لانصرافها بطبيعة الحال الى ما كان بينها من حروب (٤٥) ، ومن ثم فقد آكروها على الخضوع للمسيحيين ابقاء على نفوسهم من الدمار .

لكن يبدو أنه قد حانت للمسلمين أخيرا فرصة الانتقام ، ذلك أنه فى سنة ٩٠١ م [= ٢٨٩ هـ] قام أمير من البيت الأموى واسمه أحمد بن معاوية ، وكان متكبا على دراسة الكيمياء والسحر كما كان طامعا فى العرش - وأعلن بين البربر أنه المهدي المنتظر وحتم عليهم الانضمام الى صفوفه ليسيروا بهم جميعا ضد « سمورة » وهى المدينة التى أعاد الفونس الثالث بناءها بمعاونة حلفائه مسيحيي طليطلة سنة ٨٩٣ م (= ٢٨٠ هـ) والتى أضحت تثير الخوف فى نفوس البربر كما كانوا يضعون فيها غنائمهم آمنين عليها لوقوعها خلف خنادق تحميها كما تقوم أمامها سبعة أسوار (٤٦) .

ولقد تكلمت دعوة أحمد بن معاوية البربر لحمل السلاح بنجاح عظيم ، ولما كانوا سُدجا سريعي التأثر والتصديق لما يلقى اليهم ويتوقون للثأر لأنفسهم فقد التفت جماعات كثيرة منهم حول أمير زعموه يأتى بالمعجزات ويؤيده الباقون ، وآمنوا بما أكده لهم من أن أسوار جميع المدن سوف تدك دكا عند اقترايهم منها ، وما انقضت بضع شهور حتى كان هذا الداعى قد جمع حوله جيشا يبلغ ستين ألف رجل سار بهم شطر نهر دورو ، فلما اقترب من سمورة بعث الى الملك الفونس الثالث - وكان مقيما بها - رسالة عنيفة يحذره فيها من وخامة العاقبة ان لم يبادر هو ورعيته الى

اعتناق الاسلام ، فلما وقف الفونس على مضمون الخطاب تميز غيظا هو
وكبار رجال حاشيته ، وتملكهم الغضب وأقسموا لينتقم من كاتب هذه
الرسالة ، وأن يكون انتقامهم عنيفا منه ، ودلفوا الى جيادهم فامتطوها
لمهاجمته ، وخف فرسان البربر لدفعهم ، ولما كانت مياه « دورو » ضحلة
(اذ كان الوقت صيفا والشهر شهر يوليو) فقد شبت المعركة فى مجرى
النهر ولم تجد السيوف أهل ليون نفعا فقد أنزل البربر بهم الهزيمة
وحالوا بينهم وبين العودة الى المدينة ودفعوهم أمامهم الى داخل الاقليم .

* * *

ان النهاية التى انتهت اليها الحملة لم تكن تبعث على التساؤل
بما سوف يحدث بعد المعركة الأولى .

أجل ، لقد استطاع المهدي المزعوم أن يكون له السلطان المطلق على
جنوده ، وكان يعتقد أن اصداره الأوامر باللسان حط من مكانته ، فكانت
أوامره اشارات ، يليها الجميع ويطيعونها طاعة عمياء ، غير أنه كان كلما
قوى نفوذه على البسطاء من جنده كلما تأججت الغيرة منه فى نفوس القادة
الذين أدركوا أنه لو تحقق نجاح الحملة لأدى ذلك الى تغلب نفوذ المتنبئ
المزعوم الذى لا يؤمنون بدعواه ، ومن ثم فقد أخذوا يتحينون الفرصة لكى
يقتلوه ولكنها كانت فرصة لم تتح لهم .

الا أنه حدث فى أثناء مطاردتهم العدو أن قام أقوى الرجال فيهم وهو
« ذلل بن يعيش » شيخ قبيلة نفوسة وأخبر أصدقائه أنهم ارتكبوا جرما
فظيحا بمقاتلتهم أهل ليون ، وأن الرجوع الى الحق واجب ، ولم يصادف
صعوبة فى حملهم على مشاركته شعوره ، فعقد الجميع الخناصر على افساد
تدابير « المهدي » وارتدوا ، فلما بلغوا مركز الطليعة على الشاطئ الأيمن
لنهر دورو جمعوا متاعهم زاعمين أن الهزيمة حاقت بهم وأن العدو فى
آثارهم ، ووجدت مزاعمهم من صدقها لا سيما أنه لم يكن معهم غير فالة
قليلة من الجيش ، أما البقية فيظهر أنها أبت طاعتهم أو أنها لم تكن تعلم
بمقصدهم .

اشتد الفرع بنفوس البربر الذين راموا النجاة فى الهرب السريع ،
ويادر عدد جم من الجند بالانطلاق شطر نهر دورو ، فلما أبصرتهم حامية
سمورة خرجت اليهم وعملت فيهم مقتلة عظيمة فى اللحظة التى كانوا خلالها
يحاولون عبور النهر ، الا أن غالبية الجيش المسلم الذى كان لا يزال مرابطا
على الشاطئ الأيسر للنهر حاصرت أهل ليون ، ولم تكن حالهم فى اليوم
التالى بالحال التى تمكنهم من امكانية الوصول الى نصر حاسم ، غير أن
تسلل الح... من جيش المهدي كان يزداد شيئا فشيئا مما كان عاملا على

تقوية خصومهم ، وأخذ المهدي يعد جنوده بالنصر فما صدقه أحد ، فلما كان اليوم الثالث داخله اليأس اذ أصبح في شزيمة ضئيلة من عسكره ، ولما كان يأنف من الحياة في ظل العار فقد ضرب خاصرة جواده بمهازه ورمى بنفسه وسط كتائب عدوه فلقى المنية التي ودعا ، ورفعوا رأسه على باب سمورة (٤٧) .

أدت هذه المعركة بطبيعة الحال الى ارتفاع معنويات أهل ليون الذين كانوا يعولون على معونة أهل تطيلة لهم لا سيما معونة شانجة الكبير ملك نافارة الذي جعل لاقليمه أهمية لم تكن له من قبل ، لذلك أخذوا يتطلعون الى اسبانيا الاسلامية تطلعهم الى غنيمة ينبغي ألا تفلت من أيديهم ، كما وجهوا أبصارهم شطر الجنوب ، لكن شدة املاقهم وحاجتهم القصوى للمال دفعتهم للمفاوضة (٤٨) وأفهمهم قساوستهم (الذين كانوا موقرين لديهم توفيرا جما والذين غمروهم بعطاياهم) أن حربهم الكفار أضمن وسيلة لبلوغهم الجنة ، فمضوا يذرعون رحاب الأندلس الغنية ، وطمعوا في خير الدنيا والآخرة ، فهل أنقذت الأندلس من سطوتهم ؟

لو أنها فشلت لحاق العذاب الأليم بالمسلمين ، ولما كان أهل ليون قد بلغوا الغاية القصوى في التعصب والقسوة فلم يكونوا يبقون على قيد الحياة أحدا ما يقع في أيديهم ، وكانوا اذا استولوا على بلد حكموا بالسيف بطبيعة الحال في رقاب سكانه جميعا ، هذا في الوقت الذي لم يكن هناك من مثيل للتسامح الذي يبديه المسلمون تجاه النصارى .

لكن ما الذي كانت تؤول اليه الحضارة العربية الزاهية التي أخذت تخطو قدما في معارك التقدم تحت حكم هؤلاء البربر الأميين الذين كان اذا أعوزهم الرجال لمسح الأرض عمدوا الى استخدام هؤلاء الشرقيين ، والذين كانوا اذا تكلموا عن المكتبة قصدوا بها الكتب الدينية ؟

وجلى أن المهمة التي كان على عبد الرحمن الناصر الاضطلاع بها في مستهل حكمه كانت مهمة عظيمة رائعة تتضمن تخليص وطنه بل والحضارة ذاتها ، فكانت مسئوليته جسيمة شاقة ، وكان عليه اخضاع رعيته وصد بربر الشمال الذين كانت سفاهتهم تزداد كلما أخذت الدولة الاسلامية في الضعف ، كذلك كان يتحتم عليه الضرب على أيدي بربر الجنوب الذين استولوا على دولة شاسعة مترامية الأطراف وراحوا يفكرون في وجوب الزحف على الأندلس وأدرك عبد الرحمن المهمة المنوطة به . ولقد رأينا أنفا كيف استطاع السيطرة على مملكته وتهدئه الأمور بها (٤٩) .

وسنرى في الفصول التالية كيف استطاع الوقوف في وجه أعدائه الذين كانوا خارج البلد .

الفصل الثاني

- اردونيو الثاني ضد الناصر • حملة ابن ابي عبدة •
- بطولته ومقتله • الناصر ضد الفاطميين سرا • امير فاكور
- يناهضهم • مقتل الأمير • الناصر يرحب بأبناء صاحب نكور
- وانتصار أحدهم على الفاطميين • تحالف اردونيو وملك نفارة
- لاذعاج الناصر • حملة الحاجب بدر وانتصاره على نصارى
- ليون • الناصر يستولى على وخشمة • محمد بن لب يد مر
- حصن قلقرة • تصالف شانجة و اردونيو ضد المسلمين • معركة
- بانبلونة وموت اردونيو • النزاع بين ملوك النصارى •
- تحالف بعض القوى الاسلامية ضد الناصر وانتصاره •

الفصل الثمانى

المواجهة بين الناصر

ومراكز القوى المسيحية

وجد عبد الرحمن الناصر نفسه - فى مستهل حكمه - مضطرا الى مناضلة أهل ليون مناضلة لم يكن يفكر فيها ، فقد حدث فى سنة ٩١٤ م (= ٣٠٢ هـ) أن شرع ملكهم القوى « أردونيو » الثانى فى مجاهرته بالعداء باغراقه اقليم ماردة فى بحر من النار والدم ، وباستيلائه على قلعة « الحنش » (١) واجهازه بالسيف على جميع المدافعين عنها وسببه النساء والأطفال مما بث الفزع فى نفوس سكان بطليموس وخافوا أن يكون مآلهم مآل جيرانهم ، فذهبوا برياسة واليهب الى الملك المسيحى منتمسين منه أن يقبل كل ما حملوه اليه من غالى المتاع ، فتقبل أردونيو ذلك مسرورا ، ثم عبر نهري دورو وتاجه منتصرا محملا بالغنائم ، وفى طريق عودته الى ليون أظهر شكره للعدراء باقامة كنيسة لها (٢) .

ولما كان سكان الأقاليم التى غزاها أردونيو لم يدينوا له بالطاعة بعد فقد كان فى استطاعة عبد الرحمن - لو شاء - أن يفض الطرف عما كان منهم لولا أن ذلك العمل لم يكن يتفق ووجهة نظره ، ولما كان يعلم جيدا أنه ينبغي عليه أن يستميل اليه أفئدة رعيته الثائرة بأن يظهر لهم دائما بمظهر الذائد عنهم ، انراعى لأحوالهم فقد آلى على نفسه الا القصاص من ملك ليون ، ومن ثم جيش جيشا اليه فى يوليو ٩١٦ م (= محرم ٣٠٤ هـ) وأغزى أحمد بن محمد بن أبى عبدة قائد عمه العجوز ، وما كانت هذه الحملة التى هى أول حملة بعد خمسة عشرة سنة من محاولة المهدي المزعوم سوى غزوه للسلب وقله غنم فيها المسلمون غنائم عظيمة (٣) .

فلما كانت السنة التالية تشكى سكان الحدود من عيب الليونيين فى أرضهم واحراقهم أرباض طلبيرة الواقعة على نهر التاجة وحرصوا عبد الرحمن الذى أصدر أمره الى ابن أبى عبدة بشن حملة أخرى والاغارة ومحاصرة حصنهم القوى « شنت اشتين دى جرمان » والذى يسمى أيضا

باسم « قاشتر مورش » (٤) ، وكان جيشه كثيفا فيه جماعة من المرتزقة الافريقيين الذى استقدمهم عبد الرحمن من طنجة .

وقد استهزل الجيش حركته بما يبشر بالفوز فضيق الخناق على حامية شنت بتبيين دى جرمان التى كانت على وشك التسليم لولا أن أقبل أوردونيو لنجدنها فهاجم ابن أبى عبدة الذى شاء سوء طالعها الا يكون، جميع جنده من طنجة وحدها لوجود طائفة كبيرة بينهم من سكان الحدود الذين لم يكن فى استطاعة أحد ما الثقة بوفائهم أو الاعتماد على حماستهم بل كانوا نصف متبربرين ونصف أسبان فلم يكادوا يبصرون ما يفعله الليونيون من التدمير والتخريب حتى استصرخوا بالسلطان ولم يصمدوا فى وجه عدوهم مما أتاح له الفرصة للظهور عليهم ، كما أنهم فى أثناء عودتهم كانوا أكبر العاملين على بث الفوضى الشاملة فى صفوف الجيش كله ، ولما رأى ابن أبى عبدة الشجاع أن الهزيمة أمر لا مناص منه أظهر الصبر وأثر أن يلقي حتفه فى المهمة التى نيطت به وكره السلامة يوفرها له الفرار ، ووقف الى جانبه كثير من جنوده الذين رأوا رأيه فاستشهدوا عن آخرهم بسيوف النصارى .

ويذكر المؤرخون العرب أن قسما كبيرا من بقية الجيش أفلح فى الانضمام الى بعض ونجحوا فى الوصول - على أكمل نظام - الى المنطقة الاسلامية ، لكن المؤرخين المسيحيين يذكرون خلاف ذلك فيزعمون أن انكسار المسلمين كان انكسارا كليا حتى لقد غطت جثث القتلى الهضاب والغابات والحقول الممتدة ما بين دويرو - وأنتيزا وجرى على أديمها كله الدم المثلول (٥) .

لم يجد اليأس سبيلا الى قلب عبد الرحمن اذ سرعان ما أخذ أهبطه لمحو آثار هذه النكبة غير أن مشاكل أفريقية استرعت انتباهه بينما كان يعد العاة لانفاذ حملة جديدة فى العام التالى .

وعلى الرغم من أنه لم يكن فى حرب ضد الفاطميين الذين لن يثيروا أمامه ما يحمله على الشكوى منهم لانشغالهم بفتح بلاد المغرب الا أنه أدرك أنهم سوف يسلون سيوفهم ضد الأندلس حالما يفرغون من هذا الفتح ، وعن ثم رأى واجبه يقتضيه أن يبذل قصارى جهده لانقاذ المغرب حتى يبقى سدا حائلا بين الفاطميين وبين أسبانيا ، لكنه مع ذلك رأى أنه ليس من الصواب أن يعلن الحرب على هذه الدولة فى وقت لم تزل فيه نيران الفتنة مشتعلة فى مملكته ، ولم يسأله نصارى الشمال فى الصلح ، والا كان اعلانه الحرب على الفاطميين دافعا لهم على النزول على شاطئ الأندلس ، ورأى ان كل ما يستطيع عمله فى تلك الظروف المحيطة به هو أن يساعد - فى الخفاء - الأمراء الذين فى استطاعتهم مقاومة المغير على أراضيهم .

وأتاحت الفرصة عام ٩١٧ [= ٣٠٥ هـ] حين هاجم الفاطميون أمير نكور (٦) الذي كان من أسرة عربية الأصل حكمت نكور وما حولها. منذ أن فتحتها ، وكان أبرز ما تمتاز به هذه الأسرة هو تمسكها بأهلها. الدين ، كما ذاعت شهرتها منذ أن افتدى السلطان محمد أميرتين من هذه الأسرة كان القراصنة النرمنديون (٧) قد اختطفوهما ، ومنذ ذلك الحين ظلت على أمتن الصلات الودية مع إسبانيا .

ولقد قام أحد القضاة من هذه العائلة - واسمه عبد الرحمن بن سعيد - وكان فقيها ورعا حج الى مكة أربع مرات وشخص الى الأندلس أيام عبيد الله قصد الجهاد ، وفي أثناء مغادرته السفينة هاجمه ابن حفصون وقتل كل من كان معه ولم ينج أحد سواه فوصل وحيدا الى معسكر السلطان [في مرسية] ، واستشهد في الحرب ضد ديسم [بن اسحق] أمير ولاية تدمير (٨) .

حين غزا الفاطميون المغرب كان على نكور الأمير سعيد بن صالح (٩) فطلبوا اليه الخضوع لهم فأبى ، غير أنه - أو بالأحرى شاعره الأندلسي - أضاف الى الرفض عدم الفطنة اذ كان الخليفة قد بعث اليه بأبيات شعرية تحمل في معناها عزمه على سحق أهالي نكور ان هم رفضوا الدخول في طاعته ، ووعدهم بالعدل بعم بلادهم ان هم أذعنوا له ، فرد عليه الشاعر الأحمس الطليطلي بالأبيات التالية (١٠) :

كذبت وبيت الله لا تعرف العدلا ولا عرف الرحمن من قولك الفضلا
وما أنت الا كافر ومنافق تميل مع الجهال في السنة المثل
وهمتنا العليسا لدين محمد وقد جعل الرحمن همتك السفلى

فاشتمد غيظ الخليفة الفاطمي عبيد الله فكتب في الحال الى قائده مصالة حاكم تاهرت يأمره بالنهوض لمهاجمة نكور ، ولما لم يكن لدى سعيد بن صالح الشيخ من قلعة يتخذها حصنا له فقد مضى لمهاجمة العدو وحاربه ثلاثة أيام (١١) ، الا أن أحد قواده (١٢) خانه فلاقى أخيرا منيته في ميدان القتال مع جميع عسكره سنة ٩١٧ م ، واستولى مصالة على نكور وقتل رجالها وسبى نساءها وأسر أطفالها .

كان سعيد قد حذر أولاده وأوصاهم فتحين ثلاثة منهم الفرصة وأبحروا قاصدين ميناء مالقة ، فلما بلغوها أمر عبد الرحمن الثالث بالاحتفاء بمقدمهم أبهى احتفاء ، وفي الوقت ذاته أبدى استعداده وترحيبه باستقبالهم اذا شخصوا الى قرطبة ، لكنه لما لم يكن راغبا في التضييق

عليهم فقد ترك لهم حرية الإقامة في مالقة طالما هذا هواهم ، وأجابه
الأمراء بأنهم يؤثرون البقاء في بقعة تكون على مقربة من مسرح الأحداث
لأنهم يؤملون العودة في القريب العاجل الى وطنهم ، ولم تطش آمالهم
بددا فقد فكر مصالة في الرجوع الى تاهرت بعد ستة شهور قضاها في
نكور التي استخلف عليها ضابطا كناميا اسمه « ذلول » في فئة قليلة
من الجنود ، فانتهز هذه الفرصة هؤلاء الأمراء [الثلاثة] الذين كان أتباعهم
يوافونهم بكل ما يجد ، وجهزوا السفن واستقلوها الى نكور بعد أن اتفقوا
فيما بينهم على أن تكون ولاية الامارة لأسبقهم في الوصول اليها ، فكان
صالح - وهو أصغر الأبناء الثلاثة - أسبق الاخوة ، فتسارع اليه بربر
الساحل ورحبوا بمقدمه وأمروه (١٣) عليهم وساروا قاصدين نكور
وفتكوا بذلول وجنده ، وسرعان ما حرر صالح - وقد ملك الاقليم - كتابا
الى عبد الرحمن الناصر يشكر فيه عطفه عليه وعلى أخوته ، ويفضى اليه
بنبا انتصاره ، وأعلن في الوقت ذاته - في جميع رحاب المملكة - سيادة
هذا الحاكم ، فبعث اليه عبد الرحمن بالأخبية والآلات والبنود
والطبول (١٤) .

إذا كانت أحداث نكور قد أنست عبد الرحمن الثائر لهزيمة جيشه
ولوت قائده الباسل ابن أبي عبدة الذي علق أردونيو رأسه على سور
شنت اشتيين الى جانب رأس خنزير برى (١٥) فان المسيحيين ذكروه
بهذا كله حين عاث أردونيو الثاني وحليفه (١٦) ملك نفارة في ربيع ٩١٨م
[= ذو القعدة ٣٠٥ هـ] في منطقتي ناجرة وتطيلة ، ثم استولى شانجة
بعد ذلك على اقليم بلتيرة وأحرق الجامع وحصنها (١٧) ، فعهد عبد الرحمن
الثالث اذ ذاك بقيادة عسكريه الى بدر [بن أحمد] الحاجب وأرسل الى
سكان الحدود يطلب اليهم الانضواء تحت لوائه [والجد في نكاية أهل
الكفر] وحثهم على اغتنام هذه الفرصة لغسل عار هجوم السنة الماضية .

وفي السابع من يوليو ٩١٨ م [= ٢٥ محرم ٣٠٦ هـ] غادر
الجيش قرطبة ، فلما بلغ حصود ليون حمل حملة عنيفة على العدو المعتصم
بالجبال ، ونشبت معركة ثمان في الثالث عشر والخامس عشر من أغسطس
[٣ و ٥ ربيع الأول ٣٠٦ هـ] على مقربة من مكان يدعى «طونية» (١٨) ،
وخرج المسلمون ظافرين في كل من الوقعتين ، أما أهل ليون فيشهد
مؤرخهم أنهم قد تأسوا بقول داود عن الشك في السلاح (١٩) .

ثم لعبد الرحمن مسح عار هزيمته غير أنه كان واثقا من أن أهل
ليون لم يخضعوا بعد ، وكان يتحرق شوقا لمشاطرة قواده شرف الظهور
في الحرب على الكفار ، فقاد الجيش بنفسه وجهد حملة استولى بها على
وخشمة (٢٠) ، اذا اتفق مع عاملها على تركه هو وشأنه ، واستأجر

عبد الرحمن جيش هذا الرجل وتظاهر بقبوله عرضه بالشخص الى نهر ابرو عن طريق مدينة سالم ، لكنه انعطف فجأة يسارا الى نهر دويرو ، وبعث امامه كتيبة من الفرسان آمرا اياها سلب ارباض وخشمة وتدميرها ، فذهلت حاميته لهذا الهجوم المباغت وأسرعت الى الاعتصام بالغياض والأكام والجبال ، ودخل المسلمون الحصن دون مقاومة وأضرموا فيه النار ثم مضوا فهاجموا حصن شنت اشتيبن دى جرمان ودخلوه هو أيضا دون أن يصادفوا أى مناهضة لهم فقد فرت عنه حاميته حين قدوم المسلمين الذين دخلوه ودمروه كما دمروا حصن القبيلة (٢١) المجاورة له ثم ساروا من هناك الى قلونى (٢٢) وهى بلدة قديمة هامة درست معالمها اليوم ولم يبق ما يدل عليها سوى أطلالها ، ويظهر أن الليونيين اتفقوا على عدم المقاومة فى أية جهة ، فقد وجد المسلمون قلونية خالية تماما فهدموا كثيرا من بيوتها وكنائسها .

كان من أثر استغاثة مسلمى تطيلة بعبد الرحمن أن عزم على محاربة شانجة ملك نفارة ، فسار على مهل حتى لا يتهك التعب جيشه وقطع المسافة ما بين قلونية وتطيلة فى خمسة أيام ، ثم وضع كتيبة من الفرسان رهن أوامر محمد بن لب عامل تطيلة وأمره بمهاجمة حصن قلقرة الذى بناه شانجة ليشرف منه على سكان تطيلة وليجعلهم فى خوف دائم منه ، فوجد المسلمون الحصن مهجورا اذ سرعان ما فر عنه شانجة الى أرميدو .

ومع ذلك فقد هاجم شانجة مقدمة المسلمين حين عبورهم نهر ابرو ، ودارت بين الفريقين رحى القتال الذى أظهر المسلمون فيه أنهم اذا كانوا قادرين على الاستيلاء والنهب وحرق القصور غير المحصنة فهم قادرون أيضا على الحاق الهزيمة المنكرة بالعدو واکراهه على الاعتصام بالجبال طلبا للسلامة ، وقامت مقدمة الجيش وحدها باحراز هذا النصر العالى ، أما عبد الرحمن الذى كان فى الوسط فقد كان لا يدرى بأن جيشه قهر العدو ولم يعلم بهذا الأمر الا حين حملوا اليه رؤوس القتلى .

استنجد شانجة بأردونيو حين دارت الدائرة عليه وأصبح لا يقوى بمفرده على مقاومة المسلمين ، فأجمع العاهلان العزم على مهاجمة مقدمة الجيش أوساقته حسبما تسمح الظروف ، وفى أثناء ذلك كان المسيحيون الذين لم يغادروا الجبال قد حملوا على جناحى المسلمين الذين كانوا يسيرون عبر المرات والأودية صارخين صرخات عالية لبث الفرع فى نفوس أعدائهم وانتفعوا بما مهدته لهم الأرض فقتلوا البعض .

وغنى عن البيان أن الجيش المسلم ألقى نفسه فى مركز خطر ، واستعمل من أهل الجبال خفاف الحركة ذوى اليأس الذين يذكرون النكبة الكبرى التى أنزلها أجدادهم بجيش شارلمان العظيم فى وادى باب

شيزروا (٢٣) ، والذين أرادوا اغتنام الفرصة في هذه اللحظة لانزال مثلها بجيش عبد الرحمن الذي لم يكن جاهلا الخطر الذي يهدد رجاله ، لذلك لم يكذب يبلغ وادى الخيزران (٢٤) (الذي سمي بهذا الاسم لكثرة الخيزران به) حتى أمر بنصب الخيام ، وحينئذ ارتكب المسيحيون هفوة جسيمة اذ نزلوا السهل بدلا من اعتصامهم بالجبال وتقدموا غير وجلين ، فالتحموا بالمسلمين فيما أرادوه من حرب ، بيد أنهم دفعوا غالبا ثمن تهورهم اذ نكبوا بهزيمة ساحقة ، وتتعقبهم المسلمون حتى حجز الظلام بينهم وبين عدوهم وأخفاه عن ابصارهم ، لكنهم أسروا نفرا من قواده من بينهم مطرانان هما « هرموجيس » أسقف توى ، و « دولكيديس » أسقف لمنقة اللذان تسربلا بلباس الحرب كما كانت العادة اذ ذاك .

وعلى الرغم من ذلك فقد تسلل أكثر من ألف نصراني لو اذا الى قلعة مويش معتصمين بها ، فأحرق بها عبد الرحمن واستولى عليها وقطع رؤوس جميع المدافعين عنها ، وراح المسلمون يخربون الحصون دون أن يجدوا أدنى مقاومة ، ثم راحوا يجوسون خلال نفارة يزدهيهم النصر ويتشدقون بأنهم أحرقوا كل ما صادفوه في بقعة مساحتها عشرة أميال مربعة ، وكانت الغنيمة - لاسيما المؤونة - التي استولوا عليها عظيمة فكانوا في معسكرهم يبيعون القمح بسعر التراب (٢٥) ، ثم عمدوا الى حرق جزء كبير من المؤونة حين عجزوا عن حملها كلها .

خرج عبد الرحمن من هذه الحملة منصورا يخفق فوق رأسه علم الفخار ، فأخذ في اليوم الثامن من شهر سبتمبر في الارتداد ، ولما بلغ أنتيسة فارق عسكر الحدود الذين أبلوا بلاء حسنا في وقعة وادى الخيزران بعد أن فرق فيهم عطاياهم ، ثم قفل راجعا الى قرطبة التي بلغها في الرابع والعشرين من شهر سبتمبر (٢٦) بعد غيبة طالت ثمانية أشهر (٢٧) .

كان من حق عبد الرحمن أن يعلل نفسه بأن من شأن هذه المعركة الظافرة أن تنزع من نفوس النصارى الى حد ما التفكير في معاودة الغارة على الأرض الاسلامية ، بيد أنه كان يواجه خصما ليس من اليسير عليه أن يخضد شوكته ، فلقد حدث في عام ٩٢١ م أن شن أردونيو غزوة أخرى (٢٨) .

وإذا سلمنا بما يذكره أحد المؤرخين النصارى الذي ربما أسرف في تقدير مدى الانتصارات التي أصابها أبناء دينه فقد أصبح ملك ليون على مسيرة يوم واحد من قرطبة (٢٩) ثم استولى بعد عامين على ناجرة (٣٠) ، بينما استولى حليفه شانجة - ملك نفارة - على بقيرة (٣١) التي كان من أثر مباحاته بها أن قال قول النبي (٣٢) « لقد شتتت شملهم ، وأكرهتهم على الفرار الى أماكن قاصية مجهولة » .

دب الذعر في أسبانيا الاسلامية من جراء استيلاء النصارى على بقرية (٣٣) ، فقد ترامي الى الاسماع خبير قتل جميع المدافعين عنها وفيهم رجال من أبرز العائلات (٣٤) ، واذا كان عبد الرحمن لا يميل للاخذ بثأر هذه النكبة فقد كان يدفعه اليه الشعور العام ، لكنه لم يكن في حاجة لمن يحثه على ذلك فقد ملك الغيظ والغضب عليه كل نفسه حتى أبي التريث في انتظار الفصل الذي تبدأ الحملات فيه عادة ، فغادر قرطبة في ابريل ٩٢٤ م (= محرم ٣١٢ هـ) على رأس جيشه كي ينتقم لله والدين من الشعب الدنس الكافر ، كما يقول مؤرخ عربي .

وفي العاشر من يوليو [٩٢٤ م ، = ربيع الثاني ٣١٢ هـ] بلغ حدود نفارة ، وكان اسمه يبعث الرهبة الشديدة في نفوس أعدائه ، فخلفوا أنى كانوا قلاعهم وغادروها حين قدومه ، فمر بطريقه على قلقرة وبيطرة ألتة ، وقالجش سالبا كل ما يصادقه في طريقه مضرما النار فيه ، ثم توغل في الاقليم متجها شطر العاصمة ، وحاول شانجة صده في الممرات الضيقة لكنه كا يرتد كل مرة خائبا ويؤوب خاسرا ، وبذلك وصل عبد الرحمن من غير مقاومة الى بامبلونة التي لم يجسر أهلها على ملاقاته فهربوا منه ، وهدم كثيرا من بيوت المدينة كما هدم الكنيسة التي كان يفد اليها كل عام جمهور غفير من الحجاج ، ثم أمر بعدئذ بهدم كنيسة أخرى عظيمة التوقير في نفوس الأهالي كان شانجة قد بذل الأموال الطائلة في بنائها على جبل مجاور ، ولم يفلح شانجة فيما تكبده في سسبيل اتقاذا ، كما لحقه الفشل في محاولاته الأخرى فقد وصلته امدادات من قشتالة أغار بها مرتين على الجيش الاسلامي أثناء مسيره لكنه عاد في كليهما خاسرا ، أما المسلمون فعلى العكس من ذلك لم يقتل منهم غير نفر قليل في هذه الحملة الباهرة التي عرفت فيما بعد بوقعة بانبلونة (٣٥) .

ذل ملك نفارة بعد أن استبد به الزهو من قبل ، وظل ردحا من الزمن مسلوب القوى ، ولم يكن ثمت ما يخيف عبد الرحمن حينئذ من ناحية ليون فقد مات أردونيو الثاني الشجاع قبل بدء معركة بانبلونة (٣٦) ، ثم خلفه أخوه فرويلا الثاني لكنه لم يلبث غير سنة واحدة لم يساهم فيها قط بحرب ضد المسلمين الا ببعض امدادات أنفدها الى شانجة ملك نفارة ، فلما مات سنة ٩٢٥ م (= ٣١٣ هـ) تنازع التاج ابنا أردونيو الثاني وهما شانجة والفونسو ، وآل التاج الى الأخير الذي نعت بالرايع ، وكان ذلك بفضل مساعدة حميه شانجة ملك نفارة ، فلم يوهن ذلك من عزم شانجة (بن أردونيو الثاني) بل جمع جيشا جديدا وتوج في كنيسة القديس جاك ثم مضى محاصرا ليون واسنولى عليها واسنرد العرش من أخيه سنة ٩٢٦ م (= ٣١٤ هـ) الا أنه في

سنة ٩٢٨ م (= ٣١٦ هـ) استعاد الفونس العاصمة بمساعدة النفايين
ولكن شانجة استبقى جليقية في يده (٣٧) .

لم يشغل عبد الرحمن نفسه بهذه الحرب الأهلية الطويلة بل ترك
النصرانية في نزاعها والتفت الى مصالحه الشخصية مستغلا هذه الفرصة
التي تهيأت له لآخامد الثورات التي كانت دائمة الاندلاع في أرجاء مملكته ،
حتى اذا أوشك على تحقيق رغائبه تطلع للحصول على لقب آخر ، ذلك أن
أموي اسبانية كانوا قانعين حتى هذه اللحظة بلقب « السلطان » أو
« الأمير » أو ابن الخلائف ، أما الخليفة العباسي الذي كان وياهم في عدا
دائم فلم ينازعه لقب (٣٨) « الخليفة » لاغتناقهم الفكرة القائلة بأن هذا
اللقب هو حق للشخص الذي تدين له مكة والمدينة بالولاء والتبعية (٣٩) ،
أما وقد أصبح العباسيون دمي في أيدي الأمراء (٤٠) ولم يتعد نفوذهم بغداد
وما حولها لاستقلال حكام الولايات بمقاطعاتهم فلم يعد ثم حائل يحول بين
الأمويين وبين الحصول على لقب هم في حاجة اليه ليجلبوا لأنفسهم احترام
رعيتهم عامة والمغاربة خاصة ، ومن ثم أمر عبد الرحمن في عام ٩٢٩ م
(= ٣١٧ هـ) أن يدعى (٤١) له ابتداء من يوم الجمعة ١٦ يناير
في الأدعية والصلوات العامة بلقب « الخليفة » مقرونا بلقب « أمير المؤمنين
الناصر لدين الله » .

في ذلك الوقت بالذات وجه كل همه نحو أفريقية فحالف محمده
بن خزر شيخ قبيلة مغراوة (٤٢) البربرية الذي هزم قوات الفاطميين
شر هزيمة وقتل بيده قائدهم مصالة فتم التحالف بين الاثنيين وسرعان
ما طرد ابن خزر الفاطميين من المغرب الأوسط (أعنى إقليم الجزائر
وهرات) واعترفت هذه الناحية لعبد الرحمن (٤٣) الذي أفلح أيضا في
فصل عضد قوى من الفاطميين هو قائد مكناسة العظيم المسمى (موسى)
ابن أبي العافية الذي كان حتى هذه اللحظة ساعدهم الأيمن والذي استولى
على سبنة عام ٩٣١ م (= ٣١٩ هـ) لما كان يراه من ضرورة امتلاك حصن
على الساحل الافريقي (٤٤) .

والظاهر أن نصارى الشمال أخذوا أنفسهم بعدم مناوأة الخليفة حتى
يتفرغ للمشاكل الافريقية وانتهت حروبهم الأهلية الأولى بموت شانجة
عام ٩٢٩ م [= ٣١٧ هـ] وما أهل ربيع عام ٩٣١ م حتى نشبت حرب
أخرى فقد حزن ألفونس الرابع حزنا شديدا (٤٥) على زوجته في
هذه السنة فتخلى من تلقاء نفسه عن العرش لأخيه راميرو الثاني ، وأما هو
فقد لبس مسوح الكهنة وأقام في دير ساهاجون ، لكنه سرعان ما تبين
أنه لم يخلق حياة الرهبانية الرتيبة فغادر الدير ونودى به ملكا على
شلمنقة ، فكان هذا العمل في نظر رجال الدين جرما لا يغتفر ، وأنذروه

بأهوال الجحيم ان لم يعد الى الرهبانية فأذعن لهم بعد لآى ، لكنه كان ممالئا غير صادق فى عودته اذ لم يلبث أن طرح لباسها عن نفسه مرة أخرى .

استغل الفونس فرصة غياب راميرو الثانى الذى كان قد ذهب لنجدة طليطلة (٤٦) التى حاصرها جنود الخليفة فجاء الى ليون واستولى عليها ، فانكفء راميروا عائدا اليها لساعته وحاصر بدوره ليون ودخلها ظافرا ، وأراد ألا يدع مجالا لأخيه بعدئذ للمطالبة بالعرش فسمل عيون الثلاثة من أبناء عمه فرويلا الثانى الذين اشتركوا فى ثورة عام ٩٣٢ م (٤٧) .

* * *

أما من ناحية عبد الرحمن فقد تغير الموقف أمامه عما كان عليه من قبل ، اذا انقضى الوقت الذى كان يتجاهل فيه أمر مملكة ليون ، ولما كان راميرو رجل حرب وبأس فقد أذكى نار الكراهية والبغضاء المتأصلة فى النفوس ضد المسلمين ، وكان همه الأول انقاذ طليطلة تلك الجمهورية الشامخة بأنفها تيبها وكبرياء ، والتى انفردت بين جميع ولايات اسبانيا الاسلامية بتحديدها جيوش السلطان كما أنها كانت حتى هذه اللحظة حليفة صادقة لمملكة ليون ودرعا واقيا لها ، ومن ثم فقد شن الحرب وهاجم مدريد التى كانت فى طريقه واستولى عليها (٤٨) ، ومع ذلك فقد عجز عن انقاذ طليطلة حين نهضت لصدده كتيبة من الجيش المحاصر للمدينة وأرغمته على التقهقر والارتداد عنها (٤٩) تاركا اياها وشأنها ثم لم تلبث أن سلدت عام ٩٣٣ م (= ٣٢٣ هـ) حين فقدت كل أمل لها .

وخان الحظ راميرو اذ أخبره فرديناند كوثالث (أو جونزالتز) كونت قشتالة أن الجيش الاسلامى يهدد وخشمة فنهض لدفعه وأوقع به الهزيمة (٥٠) .

لكن عبد الرحمن أخذ بثاره عام ٩٣٤ م ، وكان يتطلع لأن تشهد سهول وخشمة كبرى انتصاراته كما شهدت عار الهزيمة قبل ذلك بقليل ، فحاول عبثا اخراج راميرو من الحصن ، وحينذاك رأى ملك ليون أن الحكمة تقتضيه عدم المساهمة فى معركة يفرضها المسلمون ، وخلف عبد الرحمن جزءا من جيشه أمام وخشمة لمحاصرتها ، وتابع هو سيره ناحية الشمال وارتكب رجاله - لاسيما المغاربة الذين كانوا لا يعرفون الرحمة - فظائع جمّة فى الطريق وفى أرض العدو ، ففتكوا على مقربة من برغش (عاصمة قشتالة) بجمع رهبان دير بطرس قديس شرطائيس الذين بلغ عددهم حوالى المائتين (٥١) ، ودمروا العاصمة وعددا كبيرا من الحصون (٥٢) .

غير أن الال لم تلبث أن تطورت فى الجهات الشمالية تطورا مخيفا

تحتكون حلف قوى ضد الخليفة ، وكان أشد المحرضين عليه صاحب
سرقسطة : محمد بن هاشم التجيبى .

أما بنو هاشم الذين نزلوا أرجونة منذ أيام الفتح فقد أدوا خدمات
جليلة للمسلطان محمد وقت أن كان بنو قصي (٥٣) لا يزالون فى أوج
مجدهم فى هذا الاقليم ، كما ظلت أسرهم تتوارث مناصب الحكم والولاية
فى المناطق الشمالية أكثر من أربعين سنة ، وكانت هى العائلة الوحيدة
التي أبقى لها عبد الرحمن الثالث مظاهر النفوذ والعظمة ، على حين قد
سلبها من جميع الزعماء العرب ، ومع ذلك لم يكن محمد بن هاشم على
وفاق مع الخليفة ، ولربما كان مرجح ذلك الرغبة الملحة فى محو الاهانات
التي حاقت بجماعته ، أو لعله لم يكن يرى فى عطف عبد الرحمن عليهم
ألا ضرورة فرضها عليه خسوفه منهم ، أو لعل [محمدا نفسه] كان
يتمنى (٥٤) العرش لنفسه ولأولاده من بعده فتحالف مع ملك ليون وأبدى
استعداده للاعتراف بسيادته عليه ان هو شد أزره ضد الخليفة ، ووجدت
عروضه من راميرو أذنا صاغية .

وفى أثناء حملة ٩٣٤ م (= ٣٢٤ هـ) رفع محمد راية العصيان
برفضه الانضمام الى الجيش الاسلامى (٥٥) ، ولم تمض غير ثلاث سنوات
حتى اعترف بتبعيته لراميرو ، فأبى بعض قواده متابعتة فى خيانتة واختلفوا
عليه فأقبل راميرو برجاله الى الاقليم وحاصر قلاعه واستولى عليها وكانت
لا تزال تابعة للمسلطان ، واستنزل القواد من معاقلمهم وأسلمهم الى محمد
ابن هاشم التجيبى ، فلما تم ذلك تحالف راميرو ومحمد مع اقليم نفارة
الذى كان يحكمه غرسية تحت وصاية أمه «طوطة» أرملة شانجة الكبير .
حينئذ أصبح الشمال كله يدا واحدة ضد الخليفة وبذلك أطل ثانية برأسه
الخطر الذى كان قد اختفى ، غير أن الخليفة واجهه بحزمه المألوف اذ قام
فى سنة ٩٣٧ م على رأس جيشه وسار توا الى قلعة أيوب التي كان
يحكمها مطرف (بن منذر) أحد أقارب محمد (بن هاشم التجيبى)
وتتألف حاميتها من فريق من نصارى « البة » الذين بعث بهم راميرو ،
وقتل مطرف فى الواقعة الأولى فخلفه فى القيادة أخوه الحكم الذى طلب
الصلح والأمان الشامل لنفسه ولجنده المسلمين حين رأى نفسه مكرها
على الجلاء عن البلد والارتداد عنه الى القلعة التي أسلمها الى الخليفة .

أما الليونيون الذين لم يشملهم الأمان فقد قتلوا عن بكرة أبيهم بحد
السيف (٥٦) . وقد أدى هذا الفتح الى استيلاء عبد الرحمن على ما يقرب
من ثلاثين حصنا ثم وجه جيشه بعد ذلك ضد نفارة وسرقسطة التي وكل
حصارها الى قريب له هو الأمير أحمد بن اسحق قائد الفرسان وولاه
حكومة الأراضى الشمالية ، الا أن هذا القائد سرعان ما كان سببا فى
أمور آلت النفس .

على الرغم من أن بنى اسحق هؤلاء عاشوا في اشبيلية أمدا طويلا
عيشة خاملة كلها شظف وشدة ولم يتجنبوا مخالطة من هم دونهم مرتبة
الا أنه لم يكن لمطامعهم حد تقف عنده ، اذ كان كبيرهم أحمد يتطلع الى
ولاية العهد ، بل انه لم يتورع عن اثاره حفيظة الخليفة بأن أنفذ اليه كتابا
يفصح له فيه عن قصده ، وفي الوقت ذاته لم يكن صادق العزم في نيته
تجاه سرقسطة ، فاستشاط الخليفة غضبا من هذا السفه ، وكتب اليه
- وهو حائق عليه - يقول له :

« أما بعد فانا كنا نرى الاستحمام اليك استصلاحا لك ، فأبى الطبع
الغريزي الا ما استحکم منه فيك الا أن استحوذ عليك ٠٠٠ فالفقر
يصلحك ، والغناء يطغيك اذ لم تكن عرفته ولا تعودته ٠٠٠ أو ليس أبوك
كان فارسا من فرسان ابن حجاج أحسهم ما لا عنده وأنت يومئذ نخاس
الحمير باشبيلية ، فأقبلتم الينا فأويناكم ونصرناكم ، وشرفناك ومولناك
واستوزنا أباك ، وقلدناك أعنة الحيل أجمع وفوضنا اليك أمر ثغرنا الأعظم
لتهأونت بالتنفير لنا وقلة المبالاة بنا ثم مع هذا الترشح للخلافة ٠٠٠٠
غاي حسب أو نسب وفيكم قال القائل :

أنتم خشار الخشيار وليس خز كخيش
ان كنتموا من قريش تزوجوا من قريش
أو كنتموا قبط مصر فذا التعالي لايش ؟

الليست أمك كان حمدون الساحرة (٥٧) ، وأبوك المجذوم ، وجدك
بواب حوثة بن عباس يقتل الجبال في الطوانة ، ويخيط الحلفاء على
باب داره ؟

فلمنك الله ولعن من أنشينا في الاستخدام بك .
فيا مابون ويا مجذوم ويا ابن الكلب والكلبسة ٠٠٠ أقبل
صاغرا (٥٨) » .

فلما عزله مبعوضا قام أحمد بمساعدة أخيه أمية (بن اسحق)
يدبران مكيمة للخليفة الذي اكتشف تأمرهما ونفاهما ، فاستولى أمية
على شنترين ، وجاهر بالعصيان ، وكاتب ملك ليون عارضا عليه العمل
معه ، وموضحا له نواحي الضعف في الدولة الاسلامية وهي النواحي التي
يمكن منها التغلب عليها ، وخرج (٥٩) ذات يوم عن المدينة فقام أحد
قواده وأعاد اليها سلطان الخليفة (٦٠) فهر أمية اذ ذاك الى راميرو وظل
أخوه (أحمد بن اسحق) مقيما على ما هو عليه من تدبير المكائد والمؤامرات
بعزيمة لا يقل غربها ، ورسم خطة يسلم بمقتضاها الأندلس الى الفاطميين
الذين اتصل ببلاطهم ، غير أن عبد الرحمن أحبط مسعاه وقبض عليه
وحاكمه ورماه بتهمة التشيع وقتله (٦١) .

في هذه الأثناء رافق التوفيق الخليفة في الشمال وحاصر سرقسطة
وفيها محمد (بن هاشم) الذي استسلم له ، ولما كان محمد هذا أقوى رجل
في الدولة وأبرز شخص بعد الخليفة فقد عفى عبد الرحمن عنه وأقره
على ما بيده (٦٢) *

أما «طوطة» (٦٣) التي كانت تبني آمالا جساما فقد جاءت تطلب
مساعدة الخليفة وتعتبره حاميا نفارة (٦٤) ، ومن ثم أصبح عبد الرحمن
السيد المطلق على جميع اسبانيا باستثناء مملكة ليون وجزء صغير من
قطالونيا *

الفصل الثالث

الناصر يقرب الصقالبة والخصيان لضرب الأشراف -
استعداده لغزاة القدره • خروج بعض القادة العرب عليه •
هزيمة شلمنقة والخنق • النزاع بين ملوك النصرانية
الاسبانية • فرناند كوثالث • ثورة ابي يزيد البربري ضد
الفاطميين • انتصاراته • تغير سلوكه وتحول الناس عنه •
نهايته • النزاع بين راميرو وفرناند • موت راميرو الثاني
والنزاع حول العرش • اشتداد قوة الفاطميين •

الفصل الثالث

ظهور فرناند كوثالث

كانت الأعوام السابعة والعشرون الأولى من عهد عبد الرحمن الناصر أعوام نجاح موصول ، غير أن الحظ تجهم له فما لبث الزمن أن تغير وحدث في المملكة انقلاب كبير ، ذلك أن القوة الملوكية قضت على ما كان للأشراف في الماضي من صولة كرهها عبد الرحمن الذي كان يرى أن الواجب يفرض على الحاكم أن يسلب ما في يد الأشراف من سلطة حتى لقد قال (١) ذات يوم لسفير بعثه إليه أوتو الأول « اننى أعتقد أن ملككم حاكم مفكر حاذق. غير أنى أرى فى سياسته ما لا يرضينى اذ يترك بعض المسائل لاتباعه يعالجونها بأنفسهم بدلا من أن يأخذ هو مقاليد الأمور جميعها فى يده ، ثم انه يترك لهم ولاياته ظنا منه أنه بذلك يستميلهم اليه وتلك هفوة جسيمة منه ، فليس للرعاية التى يبديها نحو الأشراف من عاقبة غير العمل على زيادة تسلطهم ودفعهم الى التمرد » .

ومع أن الناصر لم يقح قط فى الخطأ الذى عابه على ملك ألمانيا الا أنه ارتكب حماقة لا تقل عما أخذه عليه ، ذلك أنه على الرغم من أخذه الأمور كلها فى يده وعلى الرغم من أنه لم يصطنع غير « الحاجب » (٢) ، الا أنه خلج كثيرا من المناصب الرفيعة على رجال أخساء وطلقاء وأغراب وأرقاء ، وقصارى القول انه جعلها فى أيدي رجال ليس لهم ما يذكهم سوى قرب منزلتهم اليه ، لأنهم كانوا آلات طبيعة لينة العريكة يحركها كيف شاء ، وكان الصقلية أكبر من خصهم بثقته فلم يظهر نفوذهم الا فى عهده دون سواه فلعبوا دورا بارزا فى تاريخ اسبانيا العربية ، ومن ثم ينبغى أن نلم بهم فى شئ من التفصيل .

كان لفظ « الصقلية » يطلق فى الأصل على الأسرى الذين تأسرهم الشعوب الجرمانية فى حروبها ضد الأمم الصقلية ثم يبيعونهم (٣) الى مسلمى اسبانيا ، ولكن ما لبث هذا الاسم أن انسحب على أناس من أجناس أخرى (٤) حتى شمل جميع الأجانب الذين كانوا يستخدمونهم فى الحريم أو الجيش أيا كان أصلهم .

وهناك شهادة أوردتها رحالة عربي في القرن العاشر للميلاد مؤداها أن بين الصقالبة الذين يستعملهم خليفة اسبانيا كثيرا من الغاليسيين والفرنجة (أي من الألمان والفرنسيين) وبعضا من سكان السواحل الشمالية للبحر الأسود (٥) ، وكان من بين هؤلاء رجال وقعوا في أسر القراصنة الأندلسيين ومنهم من اشتروا في موانئ ايطاليا اذ كان اليهود يستغلون فرصة فقر الناس ويعمدون الى شراء أطفالهم - ذكورا كانوا أو اناثا - ويجلبونهم الى الموانئ البحرية حيث تأتي سفن الاغريق أو الهنادقة في طلبهم وتعود بهم الى المسلمين .

كما كانت هناك طائفة أخرى تعرف بالخصيان يستعملون للخدمة في الحريم ويؤتى بهم من فرنسا التي كانت فيها أسواق الخصيان الضخمة التي يصرف أمورها اليهود وأشهرها جميعا سوق « فردان » (٦) وغيره في الجنوب (٧) .

ولما كان أغلب هؤلاء صغار السن عند وصولهم الى اسبانيا فقد كان من اليسير عليهم اعتناق ديانة سادتهم والامام بلغتهم والتشبه بهم في طباعهم ، واصاب الكثيرون منهم حظا وافرا من التعليم المتقن حتى لقد بلغ الأمر بهم ان كانت لهم مؤلفات وقيهم من نظم الشعر ، وهناك كثير من الأدباء الصقالبة منهم صبيب الذي ألف كتابا برمته درس فيه اشعار الصقالبة ورحلاتهم (٨) .

كان عدد الصقالبة ضخما في بلاط أمراء قرطبة وجيوشهم ، غير أنهم لم يبلغوا من الكثرة ما بلغوه في عهد عبد الرحمن الناصر ، اذ يذكر البعض أنهم بلغوا ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين (٩) رجلا ، ويذكر آخرون أنهم كانوا ستة آلاف وسبعة وثمانين شخصا ، وترفعهم بعض الروايات الى ثلاثة عشر ألفا وسبعمائة وخمسين فردا ، وربما كانت هذه الأرقام تشير الى عددهم في فترات مختلفة من عهد عبد الرحمن ، لأنه من الثابت أن هذا الأمير لم يكف أبدا عن الاستكثار من الصقالبة ، ومع أنهم كانوا رقيقا الا أنهم كانوا يملكون الضياع الواسعة .

وقد عهد عبد الرحمن اليهم بالشئون الحربية وقلدهم المناصب الدينية الهامة وذلك لكراهيته الشديدة للطبقة الارستقراطية حتى انه أرغم ذوي الأحساب النبيلة - وهم من نسل أبطال صحراء العرب - على الخضوع لهؤلاء القوم الجدد الذين كان العرب يحتقرونهم كل الاحتقار .

كان هؤلاء الأشراف العرب ناقلين على الخليفة حين أعلن عن رغبته في النهوض بحملة ضد ملك ليون تشرؤو سابقتها في خطرها ، فرصد لها مبالغ طائلة واستدعى تحت لوائه مائة ألف رجل ، ولما كان واتفا من

النصر القشيب فقد يادر الى تسمية هذه الحملة « بغزاة القبرة » (١٠) ، لكنه للأسف اختار لقيادتها صقلبيا يدعى « نجدة » فغضب إقادة العرب من هذا الاختيار ، وأقسموا وهم فى سورة حنقهم أن يكفر الخليفة عن امتهانه الارستقراطية القديمة بالهزيمة الساحقة .

فلما كانت سنة ٩٣٩ م [= شوال ٣٢٧ هـ] نهض الجيش قاصدا شلمنقة فخرج لمنازلته راميرو الثانى وحليفته الملكة طوطة الوصية على نفاة .

وفى الخامس من أغسطس اشتبك الجانبان فى القتال فترك بعض القادة العرب ساحة القتال وارتدوا على أعقابهم ، ولا شك أنهم لم يتبصروا العاقبة ، فقص أهل لون أثر المسلمين حتى اذا أصبحوا على مقربة من ناحية تعرف بالخنندق جنوب شلمنقة وعلى صفاف تهر دويرة جمع المسلمون شملهم ثانية ونازلوا العدو غير أنهم بأؤوا كلهم بالهزيمة ، ونجا الخليفة بعد أن أو شك أن يكون نهيا لسيوف النصارى ، وآلت الحال — بعد وقعة الخندق — من ارتداد الى هزيمة فادحة واضطرب النظام ، وعمت الفوضى ، واختلطت الصفوف بعضها ببعض ، وصاح القوم يريدون انقاذ ما يمكن انقاذه ، واختلط الحابل بالنابل والفرسان بالمشاة ، وامتلات الطرق بجيف القتلى من العسكر والقادة ، وحاقت السمات بكتائبها .

كان لانتصار راميرو الهائل وفوزه الزاهى دوى عظيم فى جميع الجهات حتى بلغ ألمانيا وأقصى بلاد الشرق ، وان اختلفت المشاعر ازاه فى كل ناحية عنها فى الأخرى ، فاهتزت نفوس طربا وامتلات أخرى غما وحزنا ، ورأى البعض فيما حدث نصرا لقوم ، وعده آخرون نكبة فادحة (١١) .

أما الخليفة فقد تسرب الوهن الى نفسه بعد أن لاقى « نجدة » مصرعه (١٢) .

أما عامله على سرقسطة محمد بن هاشم الذى أسسر (١٣) فى المعركة الأولى فى وقعة شلمنقة (١٤) فقد ظل يبكى حظه العائر فى سجن ليون ، وأدت الهزيمة الى القضاء على جيش الخليفة الذى كان هو نفسه أن يكون بين القتلى أو الأسرى لولا أنه أنقذ بمعجزة ، وكان الذين نجوا معه تسعة وأربعين رجلا فقط ، فكان لكل هذا تأثيره على نفسه فلم يرافق جيشه بعد ذلك أبدا فى أية حرب خرجها الجيش .

كان من حسن حظ الخليفة أن شبت الفتنة بين النصارى فحالت بين راميرو وبين جنى ثمار انتصاره ، اذ تطلعت قشتالة لاقتسام مملكة ليون التى كانت قد شبت فيها ثورة أيام أودونيو الثانى والد راميرو ، وتظاهر الملك برغبته فى حسم النزاع فأعلن عزمه على عقد مؤتمر فى طليارة (١٥) على شاطئ كريون الذى يفصل ليون عن قشتالة .

ودعى الملك الأمراء القشتاليين الأربعة للحضور اليه فلبوا الدعوة ، غير أنه ألقى القبض عليهم وضرب أعناقهم ، فاستنكر أهل ليون - على بكرة أبيهم - هذا المسلك الشاذ البعيد عن العدل ، لكنهم لم يملكوا الا أن يؤيدوا ملكهم (١٦) .

وأما القشتاليون فلم يوافقوهم فيما ذهبوا اليه ، ولكن لما لم يكن لديهم قادة يسلمون اليهم زمامهم فقسد واحوا يتطلعون الى اللحظة التى يرون فيها على رأسهم رجلا قادرا على الثأر لهم من الليونيين الخونة .

ثم حانت أخيرا الساعة التى كانوا يترقبونها بفارغ الصبر حين وجدت قشتالة أملها فى الكونت فرناند كوثالث الذى صار فيما بعد أحد الأبطال المحبوبين عند شعراء العصور الوسطى والذى لزال اسمه يتردد حتى اليوم على السنة القشتاليين بالاكبار العظيم .

بينما كانت جيوش عبد الرحمن الثالث المروعة تدمر كل ما فى طريقها من الأديرة والقلاع غير مستثنية العاصمة نفسها ، كان من المستحيل على فرناندو العظيم Egregius Comes - كما كانوا يسمونه حينذاك (١٧) -

- أن يفكر فى تخليص وطنه [من نير (١٨) الليونيين] ، لكنه رأى فى الوقت ذاته أن ليس هناك ما يخشاه من جانب العرب ، ومن ثم أعلن الحرب على الملك (١٩) واستغل الخليفة هذه الفرصة لاعادة تنظيم جيشه الذى ما وافى شهر نوفمبر ٩٤٠ م (= صفر ٣٢٩ هـ) حتى كان على أتم أهبة للاغارة على الأراضى الليونية بحملة جعل قيادتها الى أحمد ابن يعلى (٢٠) حاكم بطليوس (٢١) .

والظاهر أن القدر أراد فى الوقت ذاته أن يعوض عليه فى افريقية ما خسره فى اسبانيا .

الواقع أنه حتى هذه اللحظة كان الخليفة يخرج من نصر الى نصر فى افريقية ، غير أن الأقدار أخذت تعاكسه فتوالت هزائم أنصاره ، وفشلت الخطط التى رسمها ليسيروا بمقتضاها ، ومرت لحظات عجز فيها عن أن يمنع القتال من النشوب فيما بينهم ، الا أنه نجح على أية حال فى ابقاء

الفاطميين بأفريقية والحيلولة دون رسوهم على الشاطئ الأندلسي ، وكان ذلك منتهى غايته وهدفه ، واذ ذاك استطاع أن يتفرغ لجنى ثمار ما أتاحه له هذا الظرف .

غير أنه حدث أن قام بالثورة ضد الفاطميين عدو ييز في خطره . كل عدو آخر لهم ، ونعني به أبا يزيد من قبيلة بنى يفرن البربرية ، وهو ابن تاجر اعتنق منذ نعومة أظفاره عقيدة الخوارج الذين كان لا يزال لهم بأفريقية أتباع كثيرون وأشياح عديون ، ثم أنه أملق بعد موت أبيه فراح يتكسب من وراء تعليم صبيان القرى وأصبح داعية كما هو الحال . لزاء مؤسس الامبراطورية الفاطمية ، وأخذ يثير البربر باسم الدين والحق والحرية ، ومناهم بتكوين حكومة جمهورية حالما يتخذون القيروان عاصمة لهم ، واتسم توفيقه بما يشسبه المعجزة كما حدث لأعدائه من قبل . بسنوات فتلاشت جيوش الفاطميين تلالى الثلج في الربيع أمام هذا الرجل القميء القبيح الطلعة ، المتخذ من الصوف الخشن له لباسا ، والمتمطى حمارا أشمط ، وكان السنيون قد نعموا على الفاطميين كفرهم ولم تعد لهم قدرة على مطاردتهم فتقاطرت زمرهم أفواجا تحت لوائه ، كما حمل الفقهاء والزهاد السلاح لنصرة هذا القائد الخارجي ، وكانما أخذ على عاتقه تحقيق أملهم فما وافت سنة ٩٤٤ م (= ٣٣٣ هـ) حتى دخل العاصمة وترحم على الخليفتين الأولين (٢٢) اللذين أمر الفاطميون بلعنهما ، وطلب الى أهل البلد أن يأخذوا أنفسهم بمنهب الامام مالك الذي أبطله الفاطميون ، فقرت نفوس أهل السنة واستطاعوا أن يفتدوا ويروحوا آمنين ، وسارت مواكبهم تخفق فوقها الأعلام وتدق أمامها الطبول بعد أن حرموا من ذلك أعواما طويلة ، وأخذ أبو زيد يقودهم بنفسه في هذه الاحتفالات العامة ، ثم قدم لهم برهانا جديدا على تسامحه فتجالف مع خليفة الأندلس وأوفد اليه وفدا ، ان لم يكن قد اعترف بسلطانه الزمني فلا أقل من أنه عدو صاحب السلطة الروحية على الأقطار الفسيحة التي استولى عليها (٥٢) .

ويظهر أن الفاطميين أصبحوا على وشك الدمار ، ففي خلال الوقت الذي كان فيه أبو يزيد بالمهدية يضيق الخناق على سلطانهم القائم (٢٤) استطاع حاكم اسبانيا - بفضل أتباعه ومواليه الافريقيين - أن يستحوذ على الشمال الغربي بأجمعه تقريبا ، وأثار الناس في كل مكان ضد عدوه ، ثم حالف ملك ايطاليا Hugues de Provence الذي كان يود أخذ الثار لجنوة التي نهبها (٢٥) أحد قواد الاسطول الفاطمي ، كما عقد

مخالفة أخرى مع امبراطور القسطنطينية الذي كان يتلطف لاستخلاص صقلية من يد القائم (٢٦) .

لكن سرعان ما تبدلت الأمور ذلك أن أبا يزيد أثمته نشوة انتصاراته فثنى عطفه تيتها ولم يقتنع بما بلغه من قوة وما حازه من سلطان ، ونسى الطرق التي نهجها حتى بلغ ذلك فتطلع للمظهر والأبهة الكاذبتين ، واستبدل بعبأته الصوفية الخشنة ثوبا من الحرير ، وبحماره الأشمط جوادا دطهما ، فكان دماره في غفلته هذه إذ تخلى عنه أغلب أتباعه وهم دعاة المساواة والجمهورية فجرحهم هذا الرجل في ايمانهم ، وغادره بعضهم الى بلادهم وانضم آخرون الى عدوه ، فأيقظ ذلك أبا يزيد من غفلته ، فنبذ ظهريا مظاهر البهنية والترف وعاد الى عبأته الخشنة والى حياته الأولى البسيطة الجافة ، لكن الصيف كانت قد ضيعت اللبن فقد تلاشى ما كان له من نفوذ ، ولعله كان لا يزال معتمدا على معونة أهل السنة لو لم يفتح أعينهم - في لحظة من تعصبه الوحشى - على حقيقة هذا التسامح المزعوم ذلك أنه في عشية إحدى المعارك أمر رجاله بترك جند القيروان - وهم اخوانهم في السلاح - يلاقون وحدهم نقمة الفاطميين ، فاستجابوا لأمره ، وقتل الكثيرون من أهل السنة الذين اشتد خوفهم منه منذ ذلك الحين ، وأخذوا يوازنون بين طاغية وطاغية ، وبين هرطيق وهرطيق فأثروا الركون الى الخليفة الفاطمي .

وكان المنصور الذي خلف أباه ، أقدر أسلافه على تصريفه الأمور ، فرفع أبو زيد الحصار عن المهديّة رغم أنه ورجع الى القيروان التي تأمر أهلها عليه فلم ينج من كيدهم الا بكل مشقة ، وظل يحارب جند الفاطميين ودحا طويلا سقط بعده أسيرا في أيديهم متخنا بجراحه فوضعه في قفص من حديد ، ولما مات سنة ٩٤٧ م (= ٣٣٦) حشوا جلده تبنا وطاقوا به شوارع القيروان ، ثم علقوه على أسوار المهديّة ، وظل على هذه الحال حتى تناثرت أوصاله اربا اربا (٢٧) .

كان فشل الخوارج صدمة عنيفة لعبد الرحمن الثالث لا تقل في ألمها عما لاقاه في من هزيمة في شلمنقة والخندق ، وسرعان ما استعاد الفاطميون في الغرب أراضيهم التي فقدوها وأرغموا رجال عبد الرحمن على اللجوء الى طرطية .

أما في الشمال فكانت الحال على غير ما هي عليه هنا ، فقد جرت الأمور وفق مشيئة عبد الرحمن أو بعبارة أخرى كان هذا الاقليم فريسة للفتنة الطخياء ، فنشبت الحرب - كما رأينا - بين راميرو الثاني وبين فرناند كوثالث وخرج الأول منها ظافرا إذ باغت خصمه وألقى به في

أحد سجون ليون (٢٨) ، ثم جعل حكم قشتالة - بادىء ذي بدء - فى يد ليونى اسمه أسور فرماندز Assur Fernandez كونت موزن (٢٩) ، ألقى بها من بعده الى ابنه شيانجة (٣٠) (سانشو) ، وصنادر أملاك فرماندو ان لم يكن اعتبرها ملكا له ، ثم أراد التقرب الى الشعب فوهب بعضها لذوى النفوذ القوى فى الاقليم من الفرسان ورجال الدين (٣١) ، لكنه لم يبلغ هدفه اذ استفاد القشتاليون من تساهل الملك راميرو وظلوا باقين - قلبا وروحا - على ولائهم لمولاهم الاسير ، ولم يروا فيما منحهم راميرو الا اختلاسا ، فكانوا فى صكوك البيع والمهاداة وما شاكلها من الأمور التى يذكرون فيها بعد التاريخ اسم الملك والكونت يذكرون - فى بعض الأحيان - الكونت الذى فرضه عليهم الملك (راميرو) ، لكنهم كانوا لا يعمدون الى ذلك الا حينما لا يجدون مهربا ، والا حين يكون للسلطة تدخل فى الأمر . وكانوا فى العادة يذكرون اسم فرناند كونثالت .

كذلك أوضحوا بطريقة أخرى ما يكونه له من الحب حيث أقاموا له تماثلا وأدوا شعائر الاحترام لهذه الكتلة الصخرية (٣٢) ، ولما عيل صبرهم من طول أسر فرناند كونثالت أجمعوا العزم على الانتقام له ، ولندع ذلك للقصة الجميلة (٣٣) المعروفة باسم Turamento LLevan التى تقول :

« لقد أقسم الجميع فى صوت واحد على ألا يرجعوا الى قشتالة من غير سيدهم الكونت فنصبوا تمثاله الحجرى فى مركبته ، وآلوا على أنفسهم الا يعودوا بدونه . لقد أقسموا رافعين الأيدي على ألا يترك الصفوف أحد ما منهم دون أن يصحبهم (٣٤) الكونت . . . ولتأدية فروض الطاعة له ركزوا علمه الى جانب تمثاله وقبل الجميع - صغيرهم وكبيرهم - يد النصب وغادروا برغش وأرباضها المجاورة ، ولم يتخلف بها غير النساء والأطفال » .

خاف راميرو من تقدم القشتاليين فأذعن بعد لآى وأطلق سراح فرناند بعد أن أخذ عليه المواثيق الغلاظ والشروط المهينة ، فأقسم فرناند كارها على الولاء والخضوع له والتخلى عن أملاكه ، وتعهد أن يزوج ابنته أوراك Uraque من أردونيو أكبر أبناء الملك (٣٥) ، وبذلك استرد فرناند كونثالت حريته ، وكان من الطبيعى بعد ذلك أن يمتنع بتاتا عن مد يد المعونة الى ملك أكرهه على امضاء معاهدة كهذه المعاهدة .

أما القشتاليون الذين فشلوا فى استرجاع السلطة الى من لازالوا يسودونه عليهم فما زالوا ناقلين على راميرو الذى فقد بذلك مساعدة أبسل رجاله ومعونة قومه الصناديد مما أضاع بأسه ، فشن المسلمون

الغارة عليه في سنة ٩٤٤ م (٣٣٣ هـ) وقاموا بائنتين غيرها (٣٦) خلال عام ٩٤٧ م (٣٢٦ هـ) ، ولم يستطع أن يمنهم من اعادة بناء وتحصين مدينة سالم التي أضحت منذ ذلك الحين حصن الامبراطورية العربية ضد قشتالة (٣٧) .

أصبح (راميرو) صاحب انتصار شلمنقة والخندق (٣٨) في موقف الدفاع بعد أن كان في موقف الهجوم ، ولم يبق بأية غارة جديدة على الأراضي الاسلامية بعد ذلك الا سنة ٩٥٠ م (= ٣٩ هـ) فلزمه النصر فيها على مقربة من طلبيرة ، لكنه كان آخر انتصار أحرزه اذ ما وافى شهر يناير من العام التالي [= ٩٥١ م / شعبان ٣٣٩ هـ] حتى قبضه (٣٩) الموت .

مات راميرو فنشبت الحرب اثر وفاته من أجل العرش ، ذلك أنه كان قد تزوج مرتين فانجب من زوجته الغاليسية الاولى ابنا سماه أردونيو ، ومن الثانية وهي أوراك (أخت غرسية ملك نفاة) ولدا آخر سماه شانجة ، وكان أردونيو هو الابن البكر فطالب بطبيعة الحال بالعرش ، غير أن شانجة ناقسه اعتمادا على معاونة النفارين (٤٠) له ، وجهد أن يجذب اليه كلا من فرناند كوثالث والقشتاليين ، وبذلك لم يكن من الصعب على فرناند أن يختار الانضمام الى أحد الجانبين .

حقيقة أن أردونيو كان زوج ابنته ، لكن كيف يساعده وهو ممقوت اليه مبغوض عنده ؟ ثم انه الى جانب ذلك لا يشعر في نفسه بأدنى ميل اليه؟ ولذلك فانه أيد شانجة لما بينهما من وشيجة القربى (٤١) وبدافع من مصلحته الشخصية ، وكانت الى جانبه طوطة ملكة نفاة وهي حماة فرناند الذي كان لو تردد لتغلبت هدايا شانجة العظيمة على ترده ، فوعده الأمير بارجاع كل أملاكه المصادرة اليه وكذلك امارة قشتالة ، ومن ثم انضم فرناند الى جانبه ودعى رجاله الى حمل السلاح واستصحب شانجة وجيشا نفاريا وتكاتفوا جميعا على مدينة ليون لاستخلاص التاج من أردونيو الثالث (٤٢) ، ويقول أحد المؤرخين العرب (٤٣) انه جرى بين أردونيو ابن أردونيو وبين غرسية اختلاف من الله به على المسلمين ، والواقع أنه بينما كان النصرى يقتل بعضهم بعضا أمام أسوار ليون كان قواد عبد الرحمن يخرجون من نصر الى نصر في كل خطوة يخطونها عند الحدود ، ولم يكن رسول يفد من الشمال الا ويحمل الى القوم في قرطبة نفا غزوة موقفة ، أو خبر انتصار جديد حازه المسلمون ، حتى لقد استطاع الخليفة أن يرى الشعب آكوما من النواقيس والصلبان والرؤوس المقطوعة التي عدوها ذات مرة في سنة ٩٥٥ م (= ٣٤٤ هـ) فكانت

خمسة آلاف رأس معظمها لرجال من قشتالة سقطوا في ميدان الوغى
الذى خاضوا غماره وحملوا لواءه (٤٤) .

وإذا كان فرناند كوثالث قد انتصر على مقربة من شنت اشتين
دى جرمان (٤٥) فان أردونيو الثالث رد أخاه وتأمر من لشبونة بتدميرها ،
وأرغم أهل جليقية على الطاعة له بعد أن كانوا من الثائرين (٤٦) عليه ،
غير أن هذا لم يكن غير تعويض تافه للخسارة التى أنزلها المسلمون
بالنصارى .

أما أردونيو الذى كان يخشى قيام ثورات أخرى فقد كان يتلهف
على السلام ، وقد أوفد من أجله سفيرا الى قرطبة عام ٩٥٥ م [٣٤٤ هـ] .
ولما كان عبد الرحمن راغبا هو أيضا فى السلم كى يوجه جيوشه شبطر
ناحية أخرى فقد لبى رغبات أردونيو ، وبعث فى العالم التالى (٣٤٥ هـ)
الى ليون جماعة من رجاله فيهم محمد بن حسين والعالم اليهودى حسداى
بن شبروط (٤٧) ، وكان حسداى هذا هو المشرف على الخراج .

لكن هذا التحالف لم يعمر طويلا .

ولما كان أردونيو قد أبدى استعداده للمفاوضة عارضا التنازل أو
هدم بعض حصون معينة فقد توصل الفريقان الى خطوط معاهدة بينهما
قفل بها الرسل الى قرطبة ليصدق عليها الخليفة .

وعلى الرغم من أن المعاهدة المقترحة كانت مشرفة لعبد الرحمن وفى
صالحه الا أنه لم ير فيها كل ما كان يرجوه ، ولما كان قد نيف على
السبعين ولم يعد له أمل فى الغد فقد رأى أن المسألة تتعلق بابنه الحكم
أكثر مما تتعلق به هو ذاته ، فاستشاره وسأله الراى . فأفضى اليه
ابنه - وكان هادى الطبع مجبا للسلم - بوجود امضائها (٤٨) ، ولم
ينقض غير قليل من الوقت حتى أقر اتفاقا آخر مع فرناند كوثالث (٤٩) .

بذلك لم يبق من خصوم اسبانيا الاسلامية سوى النصارى .

* * *

إذا كان عبد الرحمن قد أبدى فى هذه المرة كثيرا من اللين عن ذى
قبل فمرجع ذلك هو رغبته فى الانصراف الى محاربة الفاطميين الذين
أخذ بأسهم فى التزايد يوما بعد يوم ، ولما كانوا يتحرقون للثار من حكام
أوربا الذين كان لهم ضلع فى محاولة ابادتهم فقد بدأوا فى الانتقام منهم
فى شخص امبراطور القسطنطينية وذلك بتخريب قلهورية (٥٠) .

ثم جاءت سنة ٩٥٥ م (= ٣٤٤ هـ) تحمل كل مظاهرها أن تفكير
الخليفة الفاطمى الرابع كان منصبا على مهاجمة الأندلس .

وحدث إذ ذاك أن بعث الناصر بمركب شديد الضخامة محملة بالبضائع الى الاسكندرية فالتقت في البحر بسفينة قادمة من صقلية وعلى ظهرها رسول موفد من قبل حاكم هذه الجزيرة الى المعز (لدين الله الفاطمي) ، والظاهر أن هذا الأمر لم يكن مجهولا عند ربان السفينة الأندلسية ، وربما ارتاب عبد الرحمن في أن تكون في الرسائل التي حملها المبعوث خطة مهاجمة إسبانيا ، ومن ثم أنفذ أمره الى الربان بمعارضتها . ومهما يكن الأمر فقد هاجم ربان السفينة المركب الصقلية وسلبها واستولى على ما فيها من الرسائل .

لكن سرعان ما انتقم المعز إذ أمر حاكم صقلية أن يبحر بالأسطول الى المرية ويستولى أو يحرق كل ما يجده من السفن بهذا الثغر ، فاستولى على نفس المركب التي كانت سببا في تلك الحملة والتي كانت راجعة من الاسكندرية وعلى ظهرها جماعة من المغنيات والبضائع النفيسة الى الخليفة ، فلما أنجز البحارة الصقليون ما عهد به اليهم من تخريب المرية عادوا الى مراكزهم (٥١) .

ولقد عزم عبد الرحمن على الرد على هذه الحملة فأمر بلعن الفاطميين كل يوم في الصلوات العامة (٥٢) كما بعث بقائده غالب أمير البحر (٥٣) الى سواحل افريقية كي يخربها ، الا أن تلك الحملة لم تصادف من النجاح ما كان يؤمله الخليفة الناصر - ذلك أنه على الرغم مما أصابه الأندلسيون من الغنائم في ناذىء الأمر الا أنهم ارتدوا على أعقابهم أمام القوات التي كانت تحرس تلك الناحية والتي أكرهتهم على ركوب البحر ثانية .

كان عبد الرحمن قد وصل الى هذا الحد في محاربة الفاطميين في الوقت الذي دارت المفاوضات فيه بينه وبين ملك ليون ، وطبيعى أنه كان يتلهف على مسالة مسيحيي الشمال حتى يوجه كل قوى دولته وثرواتها لمحاربة افريقية ، فكان ذلك مدعاة لعدم تشدده في فرض شروطه الخاصة .

وما كاد عبد الرحمن يحقق المواعدة حتى ركز كل اهتمامه ضد افريقية ، فاعد حملة كثيفة لم تدع للعمال في المصانع دقيقة واحدة من الراحة ، وكانت الكتابب تغد من جميع البقاع شطر الموانئ وسجلت أسماء الملاحين . غير أن مشاريع الخليفة لم تلبث أن توقفت مرة واحدة . حينما مات أردونيو الثالث في ربيع (٥٤) سنة ٩٥٧ م [٣٤٦ هـ] .

* * *

لقد رأينا أننا أن أردونيو لم يحصل على السلام المنشود الا بعد أن قدم عروضاً معينة ليس من شك في أن أهمها هو أن يسلم الى عبد الرحمن

حصونا معينة أ ويهدم بعضها ، غير أن شانجة - منافس أخيه القديم - الذى
ولى العرش بعده دون أى عقبة رفض تنفيذ هذا الشرط ، لذلك وجه
عبد الرحمن ضد ليون كل ما كان قد جهزه لغزو افريقية ، وأغرى قائده
الصنديه أحمد بن يعلى حاكم طليطلة (٥٥) فقام بهذه الحملة ، وما وافى
شهر يوليو حتى ظهر ظهورا مؤزرا على ملك ليون (٥٦) ، فكان هذا النصر
من غير شك عزاء للخليفة الذى لم يكن راغبا قط فى هذه الحرب الجديدة
والذى لم يكن يتأخر عن تقاديبها لو أنه وجد سبيلا الى ذلك ليس فيه
ما يخذش شرفه ، وسرعان ما شعر بالراحة تغمره حين وجد عدوه فى
موطنه قديمه .

الفصل الرابع

شانجة بن رامبرو • خلعه عن العرش • اختيار أردونيو
الرابع مكانه • استنجد شانجة بجدته طوطة التي قامت بعث
سفارة الى الناصر لمعاونة حفيدها • سفارة حسداى بن شبروط
اليهودى • طوطة وحفيدها فى بلاط الناصر • شانجة يسترد
عرشه ويعترف بفضل الناصر عليه • موت الناصر سنة ٣٥٠هـ •
تقدير أعماله • ضبطه لأمور المملكة • تأسيسه الزهراء •

الفصل الرابع

شانجة وموت الناصر

يقول أحد المؤرخين العرب (١) أن شانجة كان محاربا أجوف فارغا ، وليس من شك في أنه استعار هذه العبارة من مؤرخ ليونى (٢) معاصر ، ويقصد الكاتبان الإشارة الى أن شانجة جعل هدفه تحطيم نفوذ الأشراف واسترجاع ما كان لأسلافه من السلطان المطلق عليهم مما جعلهم يحسون بالامتنع له والكرهية دون أن تتوفر له القدرة التي كان عليها أسلافه .

والواقع أن شانجة أضاع كل الكفاءات التي هيأت له فى بادئ الأمر تقدير رعيته العظيم ، فأصبح هذا الأمير المنكود مكتنظ البدن عاجزا عن امتطاء جواده ، وكائن إذا سار فلا بد له من مرافق يعتمد عليه ، مما لم يلبث معه أن أصبح مثار السخرية ، وأخذ الناس يتهايمسون فيما بينهم بوجود عزل هذا الملك المضحك العاجز (٣) .

أما فرناند كوثالث الذى كان يطمح أن يكون صانع الملوك والذى حاول ذلك من قبل ذات مرة ولم يفلح فقد ألهب حفيظة الليونيين ضد الملك (شانجة) وأثارهم عليه (٤) ، مما أدى برجال الجيش لتدبير مؤامرة ضده أفلحت اذ خاعته فى يوم صافى الأديم من ربيع (٥) سنة ٩٥٨ م [ربيع الثانى ٣٤٧ هـ] وأخرجته من مملكته .

وبينما كان هذا الملك المخاوع ميمما - والحزن يملأ نفسه - شطر بنبلونة حيث يقيم خاله (٦) غرسية كان فرناند كوثالث مجتمعا برهط من الأشراف لانتخاب ملك جديد غير شانجة ، فوقع اختيارهم على ابن عمه (٧) أردونيو الرابع بن أذفونش (الرابع) الذى لم يكن هناك ما يزيه عندهم سوى مولده ، فقد كان قميئا أحسب (٨) مدهانسا ممتنها (٩) ، قد بلغ من لؤم الطبع حدا تعارف معه القوم على تسميته بأردون الخبيث (١٠) ، وزوجه أمير قشمتالة بابننه « أوراك » أرملة (١١)

أردونيو الثالث التي أصبحت اذ ذاك - وللمرة الثانية - ملكة (١٢) على ليون .

في اللحظة التي اجتمع فيها القوم لانتخاب خليفة لشانجة كان هذا الأخير في بنبلونة يقص نبا الخطب الذي ألم به على جدته العجوزة الطامحة « طوطة » التي كانت تدير دفة الأمور في نفاة باسم ولدها على الرغم من بلوغه سن الرشد منذ زمن بعيد ، وقد آلت طوطة على نفسها أن تقف الى جانب حفيدها وأقسمت لتعيده الى العرش مهما كلفها ذلك من ثمن ، ولم يكن هذا الأمر مبسرا حينذاك اذ لم يكن لشانجة في مملكته القديمة من صديق ذى نفوذ يستطيع الركون اليه والاعتماد عليه ، ناهيك بما كانت عليه نفاة من الضعف الذي يستحيل عليها معه أن تهاجم بمفردها ليون وقشتالة معا ، فكان لزاما على طوطة حينئذ أن تنشد لها حليفا قويا ، أضف الى ذلك أنه كان ينبغي على شانجة - وهو يريد استرداد عرشه المسلوب - أن يستأصل ما جعله هزاة بين الناس ومدعاة لسخرتهم به ، وهو أن يعالج كرش بطنه الذي لم يكن طبيعيا عنده ، بل نشأ من علة جثمانية كان لا بد لها من أن تزول لو توفر لها الطبيب الحاذق والنطاسى الباهر ، غير أن هذا الحكيم المرتجى كان فى قرطبة التي كانت رقتنذ مجتمع العبقريات ، ولم يكن من العسير عليه أن يجد فيها بعينه ، لذلك رأت طوطة أن تبحث فى قرطبة عن الحليف المنشود فعزمت على أن تسأل الخليفة أن يرسل لها أحد الأطباء لعلاج حفيدها ، وأن يمد لها بجيش لارجاعه الى عرشه ، ولا مشاحة فى أن هذا العمل كان جرحا لكبريائها ، كما كان من أنكى الأمور على نفسها أن تجد نفسها مكرهة على التماس المعونة من « كافر » ظلت تناصبه العداة والحروب أكثر من ثلاثين سنة ، كما انه هو نفسه لم يكن يدع عاما يمر دون أن يغير على مملكته فيخرب سهولها ويحرق قراها ، غير أن حبها لحفيدها ورغبتها الملحة فى أن تراه على العرش ثانية وغضبها لما عومل به من مذلة ٠٠٠ كل ذلك كان أقوى من حقدتها الطبيعى على الخليفة ، فأوفدت سفارة (١٣) من لدنها الى قرطبة .

ولما أفضى السفراء الى الخليفة بما جاءوا اليه فيه أجابهم بأنه سعيده اذ يرسل الى شانجة مطببا ماهرا وانه على استعداد لمعاونته بالرجال حتى يسترد عرشه المسلوب ، ولكن على شروط خاصة سيحملها أحد وزرائه الى بنبلونة .

وعاد المبعوثون النفازيون ، وأرسل عبد الرحمن فى طلب اليهودى حسداى وزوده بتعاليمه ثم أذن له فى الشخصوس الى بلاط نفاة ، وكان الخليفة موافقا كل التوفيق فى اختياره حسداى لما كان يجمعه فى شخصه

من كل الصفات التي تؤهله لمنزل هذه المهمة ، فقد كان يجيد الحديث بلسان النصراري اجادة تامة ، كما كان في الوقت ذاته طبيبا عظيما وسياسيا محنكا ، وكان الجميع يثنون على آرائه ومواهبه وفطنته ومقدرته البالغة ، كما أنه حدث قبل قليل أن وفد رسول من ألمانيا فذكر أنه لم ير قط رجلا باع من الحنكة والدهاء ما بلغه حسداى (١٤) بن شبروط ، الذى ما كاد يبلغ بنبلونة حتى اكتسب ثقة شانجة لما أخذه على نفسه من ابرائه من علته ووعده بالصحة العاجلة ، ثم أخبره أن الخليفة يطلب منه ثمن وقوفه الى جانبه وهو أن يتخلى له عن عشر قلاع ، فوعده شانجة باجابة طلبه حالما يتبوا العرش .

لم يكن هذا كل ما طلبه حسداى بل سأل طوطة الحضور الى قرطبة فى صحبة ابنها غرسية وحفيدها شانجة ، وأصر الخليفة على هذا الطلب ارضاء لكبريائه ، ورغبة منه فى أن يرى شعبه مشهدا لم يسبق له أن أبصر مثيله أبدا حين تركع عند قدميه ملكة نصرانية ومملكان مسيحيان متوسلين اليه أن يعينهم بجيوشه .

ويحق للمرء أن يتوقع الرفض من ناحية طوطة المتكبرة ، اذ الواقع أن رحلتها الى قرطبة كانت أكثر اذلالا من أن تكون مصافاة مع عدوها القديم ، لذلك كان هذا الجانب من مهمة حسداى أكثر جوانب سفارته دقة وحساسية وكان أمر تأدية هذه المهمة - لاسيما اقتاعها بالسفر الى قرطبة - يتطلب حنكة كبيرة ومهارة فائقة ، غير أن حسداى أثبت ما عرف عنه من أنه من أمهر رجالات عصره اذ استطاع التغلب على ملكة نفارة المتكبرة بسحر حديثه ونضج تفكيره وسعة دهائه ، وقوة مكره كما يقول أحد شعراء هذا العصر من اليهود ، فاقنتعت طوطة أن ليس من ثمن غير هذا لارجاع حفيدها الى ملكه ، وجاهدت نفسها جهادا عنيفا حتى رضيت بالرحلة التي أرادها عليها اليهودى حسداى .

حينذاك أبصرت اسبانيا الاسلامية مشهدا غريبا حيث سارت ملكة نفارة فى وناء ميممة شطر قرطبة ، ووراءها جمع غفير من الاشراف والقسس ، وفى صحبتها غرسية وشانجة الشمس الذى لم يكن قد استرد عافيته تماما ، والذى كان يسير متكئا على حسداى .

وإذا كان هذا المشهد قد أرضى كبرياء المسلمين الوطنى فقد كان أكثر ارضاء لكبرياء اليهود الذين رأوا أن تمام الأمر انما كان على يد رجل من بنى جلدتهم فتبارى شعراؤهم فى تمجيد عودته ، وقال أحدهم :

طأطئى الهام أيها الجبال فهذا سيخ يهوذا حيالك .

ولتمتلىء جميع الأفواه بالضحك والفرحة .

ولتغن الأرض الجدباء ولتبتسم الصحراء ولتزدهر الورد فقد

جاء شيخ الجميع . . .

لقد جاء وفي ركابه الطرب والغناء

لقد كانت المدينة العظيمة هنا - وقت غياب حسداى عنها - تعاو

مبانيها الرائعة الكتابة ويلفها كلها الظلام .

أما فراقها الذين لم تعد عبونهم تكتحل بهرآه الوضاء كالنجوم . . .

فقد علتهم غبرة . .

• واستبد بنا المنجبرون وأخذوا في بيعنا وشرائنا كما لو كنا عبيدا .

وتلمظوا لآزدراد ثرواتنا ، وزأروا زئير الليوث

فاكتنفتنا الفزع وتملكنا الرعب لأن المدافع عنا لم يكن موجودا .

• لقد وهبنا الله إياه زعيما ، وقربه من الملك فكانا عليا .

فسماه بالأمير ورفع منزلته على كثيرين غيره .

فهو ان سار لم يجزؤ أحد على فتح فمه

• وقد أمن ضراوة خنازير الغايات والمدن بفضل لسانه وحده .

• لا اعتمادا على الحراب والسيوف (١٥) .

ولما بلغت الملكة والملكان وأتباعهم قرطبة تلقاهم الخليفة فى قصره

بمدينة الزهراء (١٦) لقاء رائعا كان له وقعه على الغرباء ، وكان ذلك

مناسبا كل المناسبة لاعطائهم فكرة بالغة عن سلطانه وثرائه ، ولا شك أنها

كانت لحظة سرور بالغ لعبد الرحمن حين أبصر عند قدميه ابن عدوه اللدود

راميرو الثانى (١٧) الذى انتصر فى وقعتى شلمنقة والخندق ، كما سره

أن يرى الملكة الشموس المتكبرة التى قادت بنفسها الجيوش الغالبة فى

هاتين الوقعتين الخالدتين ، ولكن مهما كان شعوره الداخلى فقد كتمه

واصطنع البشاشة فى لقاء ضيوفه فجدد له شائجة ما كان قد قطعه على

نفسه لحسداى من تسليمه القلاع العشر التى أرادها الخليفة ، كما تم

الاتفاق على أن يهاجم الجيش الاسلامى مدينة ليون فى الوقت الذى يهاجم

فيه النفازيون قشتالة استدراجا لقوات فرناند كوناك للخروج من هذه

الناحية (١٨) .

فى هذه الأثناء لم يكن عبد الرحمن قد حول بصره عن افريقية ،

بل كان مجدا كل الجهد فى تجهيز قواته واعدادها ، وفى نفس السنة التى

وصلت فيها ملكة نفاة الى قرطبة أبحر (١٩) أحمد بن يعلى بجيش كثيف

قوامه سبعون سفينة .

ولازم النوفيق هذه الحملة فأحرقت مرسى الخزر المعروف اليوم

باسم La Calle وخربت أرباض سوسة وطبرقة (٢٠) .

كذلك لم ينصرم غير وقت قليل حتى زحف الجيش الاسلامي على مملكة ليون وفي صحبته شانجة الذي تخلص من بدائته المفرطة بفضل عناية حسداى له ، وأصبح - كما كان في سالف أيامه - سريع الحركة نشيطا (٢١) .

كانت سمورة أول بلد سقط في يد المهاجرين (٢٢) . وما جاء شهر ابريل ٩٥٩ م (= صفر ٣٤٨ هـ) حتى كان كثير من جهات المملكة قد دانت بالطاعة لشانجة (٢٣) ، ومع ذلك فقد ظلت العاصمة في يد أردونيو الرابع ، لكنه ما لبث أن ولى عنها مدبرا طلبا للنجاة عند الاشتوريين (٢٤) ، ومن ثم خلصت في النصف الثاني من سنة (٢٥) ٩٦٠ م (= ٣٤٩ هـ) لشانجة الذي ما كاد أن يستردها ويسترد مملكته حتى أنفذ وفدا الى الخليفة شاكرا له يده عليه ومعاونته اياه، وكتب في الوقت ذاته الى جميع جيرانه يعلن اليهم نبأ استرداده عرشه ، وأخذ - في كتبه هذه - يسلق بالسنة حداد كونت قشتالة (٢٦) لغدره به ، وغير بعيد أنه كان لا يزال يخشى جانبه ، بيد أنه اذا كان هذا صحيحا الا أنه سرعان ما تلاشت مخاوفه فقد شن النفازيون الغارة على قشتالة وفق ما تم الاتفاق عاينه من قبل ، وفي هذه السنة ذاتها - أعنى سنة ٩٦٠ م (= ٣٤٩ هـ) - أوقفوا الهزيمة بالكوننت ، وأسعدتهم ظروفهم فأخذوه أسيرا ، ومنذ ذلك الوقت حاق الفشل بأردونيو (أردون المراجع العربية) وأصبح ممقوتا محتقرا في عيون الجميع اذ لم يستطع التمكن من العرش حتى ذلك الوقت الا بفضل نفوذ فرناند الذي أوجده وصنعه (٢٧) ، ومن ثم طرده الأشتوريون من اقليمهم ودانوا بالطاعة لشانجة فلاذ أردون ببرغش (٢٨) ، وسنلتقى به فيما بعد .

★ ★ ★

بينما كانت هذه الأحداث تجرى في الشمال اذا بالخليفة يخاطر بنفسه من غير تبصر وسط رياح مارس الهوجاء ، فطرقته علة خيف عليه منها ، الا أن أطباءه نجحوا هذه المرة في انقاذه ، فلما كان شهر يوليو (ربيع الآخر) نقه من مرضه واستقبل كبار رجاله ، لكن عافيته لم تكن الا أمرا ظاهريا فما لبث المرض أن عاوده فللفظ نفسه الأخير في السادس عشر من أكتوبر (٢٩) سنة ٩٦١ م [الثالث من رمضان ٣٥٠ هـ] ، وقد أوفى على السبعين من عمره بعد أن حكم تسعة وأربعين عاما .

ليس ثمة اعتراض في أن عبد الرحمن الثالث كان أعظم خلفاء بني أمية الذين حكموا الأندلس ، وكانت أعماله آية الاعجاز في انجازها ، فقد جاء في وقت كانت الأندلس فيه نهبا للفوضى والحروب الأهلية ، كما أنها كانت قد نفرقت أحزانا وتقاسمها رهط من الأمراء من مختلف

الجنسيات ، كما كانت عرضة لغزوات مسيحيي الشمال المستمرة بلا انقطاع ، وكان البلد على وشك أن يذهب لقمة سائغة لليونيين أو [لفاطمي (٣٠)] افريقية .

ولقد تخلى عبد الرحمن كثيرا من العقبات الكأداء التي اعترضت طريقه ، فأخذ بلاد الأندلس من أوصابها الداخلية ومن السيطرة الأجنبية على السواء ، وجعلها أقوى مما كانت عليه في الماضي ، وبوأها مكانة لم تشغلها قط من قبل ، فانتظمت أمورها بفضل سياسته ، وعمها الرخاء ، كما بلغت الدولة من الهيبة والاحترام في الخارج مبلغا عظيما وزادت ماليتها بعد أن كانت مشرفة على الافلاس وقت توليه الحكم ، حتى أوقف على الجند ثلث جباية الامبراطورية الذي كان يبلغ في العام الواحد (٦٢٤٥٠٠٠) ستة ملايين ومائتين وخمسة وأربعين ألف دينار) وادخر الثلث الثاني لوقت الحاجة وخصص الباقي للعمارة (٣١) ، حتى اذا كان عام ٩٥١ م (= ٣٤٠ هـ) بلغ مجموع ما في خزائنه عشرين مليون دينار .

ويؤكد أحد الرحالة المسلمين - وكان خبيرا بالشئون المالية - أن عبد الرحمن الثالث والحمداني - حاكم الجزيرة اذ ذاك - كانا أغنى أمراء هذا العصر (٣٢) .

ولقد عم الرخاء الأندلس وأصبح الناس في سعة ، وازدهرت الصناعة والزراعة والتجارة والفنون والمعارف ، وكان نظر الغريب لا يقع في البلاد الا على حقول مخضرة ، تروى وفق نظام دقيق قائم على أسس علمية ثابتة أحال الأراضي الى جنات مثمرة دائية القطوف ، كما استرعى انتباه (ابن حوقل) هذا النظام (٣٣) الكامل الذي كان سائدا في الأقاليم البعيدة والذي كان الفضل فيه راجعا الى سياسة عبد الرحمن اليقظة ، كما أدهشه رخص أسعار الغلال والفواكه اللذيذة ، وأعجبه ما كان ينعم به الناس من فاخر النياب ومن الثراء الذي كان يسمح لكل فرد بركوب البغال بدلا من الترجل (٣٤) .

وشهدت قرطبة والمرية وغيرها من البلدان كثيرا من الصناعات ، وتقدمت التجارة فكانت رسوم الصادر والوارد تؤلف الجزء الأعظم من دخل الدولة كما جاء ذلك في تقرير رئيس الجمارك (٣٥) .

ولم يكن يداني قرطبة في كسرة سكانها الذين بلغوا نصف مليون نسمة، ومساحتها التي بلغت ثلاثة آلاف مسجد، وقصورها الفخمة التي أربت على ثلاثة عشر ألف بيت ، وحماماتها الثلاثمائة، وأرباضها النماينة والعشرين (٣٦) ٠٠٠٠ أقول لم يكن يضاهاى قرطبة في ذلك كله وفي سعتها وبهائها غير بغداد التي يميل أهلها لمقارنتها بها (٣٧) . وشرق

صيت قرطبة وغرب حتى بلغ أقصى ربوع ألمانيا فسامها القاضي السكسوني رزفينا « زينة الدنيا » (٣٨) وهو الكاهن الذي ذاع اسمه في النصف الثاني من القرن العاشر بما نظمه من القصائد ألفه من المسرحيات اللاتينية، ولم تكن المدينة المنافسة لها [وهى الزهراء] التي بناها عبد الرحمن بأقل منها بهاء ، فلقد سألته إحدى محظياته يوما أن يوصي لها بمبلغ جسيم كان قد نجاه جانبا لافتداء من وقع من المسلمين أسرى فى يد العدو فأنبأه عماله أنهم لم يجدوا أسيرا واحدا فى مملكة نفاة أو ليون بعد أن جاسوا خلالهما تفتيشا عن الأسرى ، فلما سمعت جاريته الزهراء ذلك قالت له : « اشتهيت لو بنيت لى مدينة تسميها باسمى وتكون خاصة بى » . فوقعت هذه الفكرة عند الخليفة موقع الرضا ، وكان يهوى إقامة العماثر شأنه فى ذلك شأن جميع الأمراء العظام .

فلما كان يوم ١٩ نوفمبر (٣٩) سنة ٩٣٦ م [أول المحرم سنة ٣٢٥ هـ] وضع فى الشمال من قرطبة أساس مدينة سميت بالزهراء ، ولم يأل جهدا فى جعلها آية فى الفخامة وجعل فى بنائها عشرة آلاف عامل واسعمل ألفا وخمسمائة دابة . واستغرق انشاؤها ربع قرن من الزمان .

ومع ذلك فقد مات منشؤها قبل أن يتم الفراغ منها ، وكان الخليفة قد وعد كل مقيم بها أربعمئة درهم ، فتقاطر الناس لسكنائها .

وأما قصر الخليفة الذى اجتمعت فيه عجائب الشرق والغرب معا (٤٠) فقد كان بالغ الضخامة ، كما كان يوجد فى حريمه ست آلاف امرأة (٤١) .

لقد كانت قوة عبد الرحمن مكينة فمكنته عمارته البحرية الفخمة من منافسة الفاطميين فى سيادة البحر الأبيض المتوسط ، وضمنت له الاستحواذ على سببة مفتاح بلاد المغرب - كما كان عنده جيش كثيف كامل السلاح لعله أحسن جيوش عصره (٤٢) ، وهو الجيش الذى أتاح له الغلبة على نصارى الشمال ، فخطب وده الملوك الشامخون بأنوفهم تيبها ، وجاءته رسل امبراطور القسطنطينية وملوك ألمانيا وإيطاليا وفرنسا تنشد صداقته .

وطبيعى أن تؤدى هذه الحال الى خير النتائج ، غير أن الذى يبعث الباحث على الاعجاب والدهشة حين يدرس هذه الفترة العظيمة هو الفاعل نفسه أكثر من العمل ، وكذلك المعية هذا الذكاء اللودعى الذى كانت لا تفوته شاردة الا وعاءها ، ولا واردة الا حفظها ، والذى أبدى اهتماما عظيما بكل ما يعرض مهما دقت تفاصيله .

وليس من شك في أن هذا الرجل الطلعة الحكيم الذي تبلورت فيه وحدة الأمة والقوة ، والذي استطاع أن يوجد نوعاً من توازن القوى بفضل مخالقاته ، والذي بلغ من تسامحه أنه كان يستشير الرجال أياً كان دينهم أقول ليس من شك في أن هذا الرجل كان يعد من حكام-العصور الحديثة المنالين أكثر من أن يكون ملكاً من ملوك العصر الوسيط .

الفصل الخامس

أوليات خلافة الحكم بن عبد الرحمن • وصول أردونيو الخبيث الى مدينة سالم وترحيب الخليفة به • أردونيو في الزهراء • الحكم يعد بالتأييد والنصر وهو يعد بالوفاء • شانجة يخاف المودعة بين الحكم وبين أردونيو فيبث في طاب تجديد الاتفاق الذي كان بينه وبين عبد الرحمن الناصر • ثم يتراجع لموت أردونيو • الحكم يؤدب الكونتات فيعودون للمودعة • شانجة يهاجم جليقية ثم موته مسموما • ابنه راميرو الثالث يخلفه تحت وصاية عهته الراهبة • اهتمام الحكم بالكتب والمكتبات • طلبه كتاب الأغانى • المدارس بالجان • جامعة قرطبة وعلماء المشرق بها •

خلافة الحكم بن عبد الرحمن

مات عبد الرحمن الثالث فلم يحزن لموته أحد في بلاط ليون ولا ينبلونة على الرغم من الخدمات الجليلة التي أداها لهما ، بل الذي حدث فعلا هو أن كلا منهما رأى في موته الفرصة المتاحة لنقض الاتفاقيات التي كانت بينه وبين المسلمين للتخلص من السيادة الإسلامية التي رأى فيها كلاهما غلا ثقيلا له بعد أن لم يعد له صالح ما في بقائها منذ زمن بعيد ، وخيل الى رجال هذين البلاطين أن هذه خير فرصة ينبغي عليهم انتهازها للخلاص من كل ما التزموا به للمسلمين لاسيما وأن الحكم الثاني خليفة الناصر كان رجلا أميل الى السلم والمودعة ، وكان الظن به عندهم أنه لن يصر على تنفيذ معاهدة عقدها أبوه . وعلى أية حال فقد كان من الحكمة التريث حتى تشب حرب تكشف عن مقدار نجاحه بالنسبة لسلفه .

وسرعان ما تهيأت الظروف لأن يستلقت الحكم انتباه جيرانه ، ذلك أنه لما طولب شانجة بالوفاء بتسليم القلاع المتفق عليها أخذ يماطل ويسوف ويتحاييل لتأجيل الوفاء بهذا الوعد (١) ، كما رفض غرسية سؤاله بتسليمه أسيره فرناند كوثالث (٢) ، بل لقد ذهب أبعد من ذلك فرد عليه حريته بعد أن وعده أن يكون معه في مصادلة صهره أردونيو الرابع ، وبر له بوعده فأمر بأن ينتزع أردونيو في فظاظة من بين زوجته وابنتيه فكان له ما أراد وانزعوه من بينهم ، ثم سار به حرس قسوى الى الاقليم الإسلامي (٣) ، وحينئذ قام فرناند - ولم يكن مقيدا قط بمعاهدة كملكي نفاة وليون - وجاهر المسلمين بالعداء (٤) مما دفع الحكم في فبراير ٩٦٢ م (= ٣٥١ هـ) للكتابة الى قواده وعماله بالتأهب للحرب (٥) .

في هذه الأثناء وصل أردونيو الخبيث الى مدينة سالم يصحبه العشرون نبيلاً الذين ظلوا وحدهم مقيمين على الولاء له ، فشاهدوا في هذه المدينة ما أعده المسلمون للحرب ، فنضرت هذه الحبال الأمل في نفس

أردونيو ، ولما كان ابن عمه قد استرد العرش على يد عبد الرحمن فقد فكر في أن يكون رجوعه هو الآخر الى عرشه على يدى ولده الحكم ، فأبدى لغالب والى مدينة سبتة رغبته فى الشخصوص الى قرطبة ليسأل الخليفة حمايته إياه ، فشاور غالب الخليفة الحكيم ماذا يكون رده عليه . واجابته إيساه .

أما الخليفة الذى لم يسخطه أن يكون تحت يده مدع والذى لم يبت فى الموضوع نهائيا فقد أجاب بأن فى استطاعة غالب أن يسوق أردونيو وحاشيته الى قرطبة ، وخرجت للقائهم كوكبة من الفرسان بعث بها الحكم لمصاحبتهم ، كما لقيتهم كوكبة أخرى أكثر من سابقتها عدا عند أرباض العاصمة ، ولم يدخر أردونيو وسعا فى اكتساب العطف الجميل من عنكر الخليفة الذين أخذ يتملقهم ، فما كاد يدخل قرطبة حتى سأل القوم أن يأخذوه الى قبر الناصر فلما أوقفوه عند القبر تقدم نحوه فى خشوع والتفت إليه وجثى على ركبتيه واستمطر الرحمة على روح السلطان الذى خلعه عن العرش قبل موته بقليل ، لكن كان الأمل فى استرداد الصولجان قد ملك عليه نفسه فأنساه كل شئ فلم يعد يحجم عن قبول أية اهانة تلحقه مادامت تبلغه هدفه وتحقق له بغيته .

وقضى أردونيو يومين فى قصر (٦) فخم أعد لنزوله ، ثم جاء الإذن بالتوجه الى مدينة الزهراء لمقابلة الخليفة فتدثر برداء وعباءة من الحرير الأبيض ، وكان ذلك بطبيعة الحال دليلا جديدا على ولائه للأمويين فقد كان البياض شعارهم ، ووضع على رأسه قبعة رصعت بالأحجار الثمينة وأقبل عليه أمراء الأندلس النصارى كالوليد بن خيرزان قاضى نصارى قرطبة وعبيد الله بن القاسم مطران طليطلة ليمضوا به الى الزهراء ويوقفوه على آداب اللقاء ومراسيمه التى كان بلاط قرطبة يوليها غاية اهتمامه .

وسار أردونيو ورفاقه الليونيون بين صفوف الجند الذين اصطفوا على جانبى الطريق الى مدينة الزهراء ، فظهرت الدهشة على الأمير النصرانى ورجاله ، وعلتهم الرهبة من هذه المظاهر الحربية فغضوا من أبصارهم ورسموا الصليب على صدورهم ، حتى اذا بلغوا أول باب من أبواب القصر ترحلوا جميعا سوى أردون ورجاله الليونيين ، فلما بلغوا الباب المسمى بباب « السدرة » ترحل الأخيرون ، ولم يبق على الخيل سوى أردونيو والقائد ابن طملى فقد ظلا على جواديهما حتى صارا على مقربة من ايوان صفت فيه الأرائك ليتخذ منها هو ورجاله مجلسهم . ولقد شاهد هذا الإيوان من قبل سانجة ينتظر الإذن له بالمتول بين يد الخليفة حينما جاءه ملتسما مساعده .

ومضت فترة من الوقت أذن بعدها لليونيين بدخول قاعة الاستقبال .

فأما بلغ أردونيو بابها نزح قبعته من فوق رأسه وخلع عباءته. وبرنسه دليلا على الاحترام ، ثم تقدم حين أمر بالتقدم حتى صار قبالة العرش الذي كان الخليفة جالسا عليه وجولسه أخوته وأقاربه ووزراؤه وقاضيه وفقهائه ، وجثى عدة مرات ، وكان كلما تقدم خطوة خر ساجدا حتى واجه الخليفة فمد هذا اليه يده فقبلها أردونيو ثم تراجع الى الوراء بظهره وجلس على أريكة من الحرير المشجر على بعد خمسة عشر قدما من العرش ، ثم أقبل السادة الليونيون وفعلوا فعل مولاهم مع الخليفة وقبلوا يده ثم عادوا الى مكانهم مصطفين وراء سيدهم الذي كان يقف على كثر منه الوليد بن خيزران (٧) الذي قام بالترجمة بين الطرفين .

وأطرق الخليفة لحظات حتى أفرخ روع الملك السابق مما شاهده من لقاء رائع لم يكن يدور قط بخلده ثم قال الخليفة له « ليسرك اقبالك ، ويغبطك تأميلك فلدينا من حسن رأينا ورحب قبولنا فوق ما قد طلبته ، فلما ترجمت هذه الكلمات لأردونيو تهلل وجهه بالبشر وهب واقفا وتقدم فقبل البساط الذي يغطي سلالم العرش وقال : « أنا عبد أمير المؤمنين مولاي المتورك على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم فى نفسه ورجاله ، فحيثما وضعتى من فضله وعوضنى من خدمته رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة » ، فقال الخليفة : « أنت عندنا بمحل من يستحق حسن رأينا ، وسينا لك من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على أهل ملتك ما يغبطك وتعرف به فضل جنوحك الينا واستظلالك بظل سلطاننا » .

فلما فرغ الخليفة من كلامه هذا عاد أردونيو فخر ساجدا وابتهل دأعيا له ثم أفصح عن مرماه بقوله : « ان شانجة ابن عمى تقدم الى الخليفة السابق مستجيرا به منى فكان من اعزازه اياه ما يكون من منله من أعظم الملوك وأكارم الخلفاء لمن قصدهم وأملهم ، وكان قصده قصد مضطر قد شنأته رعيتيه وأنكرت سيرته واختارتنى مكانه من غير سعى منى - عام الله ذلك - ولا دعاء عليه ، فخاعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا ، فتطول عليه - رحمه الله - بأن صرفه الى ملكه وقوى سلطانه وأعز نصره ، ومع ذلك لم يقم بفرض النعمة التى أسديت اليه ، وقصر فى أداء المفروض عليه فى حقه وحق مولاي أمير المؤمنين من بعده . وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة من قرارة سلطاني وموضع أحكامى ، محكما له فى نفسى ورجالى ومعاقلى ومن تمويه من رعيتى ، فشتان ما بيننا بقوة الثقة ومطرح الهمة » .

فقال الخليفة : « قد سمعنا قولك ، وفهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من اقراضنا اياك على الخصوصية شأنه ويتداف من احساننا اليك به أضعاف

ما كان من أئبنا رضى الله عنه الى نذك ، وان كان فضل التقدفم بالجنوح الينا والقصد الى سلطاننا فليس ذلك مما يؤخرك عنه ولا ينقصك مما أنلناه ، وسنصرفك مغبوطا الى بلدك ونشد أواخي ملكك ونعقد لك بذلك كتابا يكون بيدك تقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ، وسيترادف عليك من أفضالنا فوق ما احتسبته ، والله على ما نقول وكيل « .

فكرر أردونيو الخضوع وأسهب فى الشكر ثم انتصب واقفا وغادر الغرفة مستدبرا ، فلما دخل الحجره المجاورة أفضى لمن كان يتبعه من الخصيان عما بهره وأذهله من جلال المشهد الذى أبصرته عيناه حتى لقد خر ساجدا أمام مقعد اعتاد الخليفة الجلوس عايه ، ثم أخذوه بعد ذلك الى جعفر الحاجب فأظهر أردونيو له الاحترام وهم بتقبيل يده لولا أن جذبها الحاجب وعانقه ثم أجلسه الى جواره ، وأكد له أن الخليفة لا بد وأن يبر له بكل ما قطعه على نفسه من عهد له ، ثم ناوله الخلع التى خلبها الخليفة عليه وعالى من معه ، كل قدر استقامته ومرتبته ، وخرج الجميع مع ملكهم بعد توديعهم الحاجب قاصدين البهو فوجد أردونيو فرسا قطوانا فى سرجه ولجامه أخرجوه من أجله من اسطبل الخليفة فامتطاه ، وعاد والأمل يملأ جوانحه مع رجاله الليونيين والقائد ابن طملس ومضوا الى القصر الناقلين به (٨) .

ولم ينقض زمن طويل حتى أسلموه معاهدة ليمهرها قاطعا فيها على نفسه العهد أن يعيش فى سلم دائم مع الخليفة ، وأن يسلمه ابنه غرسية رهينة لتأكيد العهد ، وألا يحالف أبدا فرناند كوثالث ، فأضى أردونيو ذلك كله واذا ذاك وضع الحاكم تحت تصرفه فريقا من الجيش بقيادة غالب (٩) ، ولم يكتف بهذا بل جعل له بعض المستشارين كالوليد قاضى نصارى قرطبة ، وأصبح (١٠) بن عبد الله بن نبيل كاثوليكيها (١١) وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة (١٢) بعد أن أمر الذين وكل اليهم العناية بغرسية أن يبذلوا كل ما فى وسعهم لارجاع الليونيين الى طاعة أردونيو (١٣) .

كان لهذه الاستعدادات دوى عظيم فى كل مكان ، ولم يكن القوم مخطئين حين طمعوا أن يذب الخوف فى نفس شانجة الذى أدرك حرج مركزه وصعوبة موقفه ، اذ كانت جليقية تنكر عليه مكانته ولا تعترف به (١٤) ، لذلك لم يكن من العسير على أردونيو الاعتماد على معونة هذا الاقليم له ان هو دخله بالجيش الاسلامى . أما أقاليم المملكة الأخرى التى خضعت مكرهه لشانجة فقد توقع الجميع أنها سوف تؤثر خلبه للمرة الثانية بدلا من أن تغامر بنفسها فى حملة من أجله .

كذلك استعد شانجة من جانبه فأرسل (١٥) في شهر مايو الى الخليفة بقرطبة بعض الأشراف والمطارنة مجددين له البيعة التي قطعها على نفسه في تنفيذ كل ما تقضى به المعاهدة (١٦) ، لهذا لم يفكر الحكم - وقد نال كل ما ابتغى - في الوفاء بالعهود التي قطعها لأردونيو ، وذهب أدراج الرياح كل ما أبداه أردون الأمعة التعس من التذلل المعين، والظاهر أنه لم يستطع تحمل ضياع آماله بهذا فلم يعد اسمه يخرى على السنة الأندلسيين اذ يقال انه ما لبث أن مات (١٧) بقرطبة ، وكل ما هناك يحمل على الاعتقاد أنه مات قبل نهاية سنة ٩٦٢ م . وبموته تلاشت مخاوف شانجة الذي ما لبث أن أعلن استقلاله وتكت (١٨) بعهوده اعتمادا منه على مساعدة (خصمه فرناند) كونت قشتالة وملك نفاة والكونتين القطلونيين بوريل وميرون له . وحينذاك اضطر الحكم الى شن الحرب على النصارى فزحفت جيوشه أولا على قشتالة مستولية على حصن شنت اشتين دي جرمان سنة ٩٦٣ م (= ٣٥٢ هـ) فأرغمت بذلك كونت فرناند على طلب الصلح (١٩) الذي نكته قبل أن ينعقد ، فجاربه غالب وكانت المعركة بينهما في أنثيسة وكان النصر للغالب ، كما أن يحيى بن محمد التجيبي - حاكم سرقسطة - هزم الملك غرسية الذي فقد مدينة قلهرة الهامة التي أحاطها الحاكم باستحكامات جديدة (٢٠) ، كما أعاد في نفس الوقت ترميم ما تهدم من حصن شنت اشتين في قشتالة وشجحه بالرجال والمقاتلة .

وقصارى القول أنه على الرغم من كراهية الحكم للحرب التي قامت رغم أنه الا أنه أبلى فيها البلاء الحسن حتى اضطر أعداءه للسعي في الصلح ، فكان أولهم شانجة ملك ليون سنة (٢١) ٩٦٦ م (= ٣٥٧ هـ) واقتفى أثره بوريل وميرون اللذين حاقت بهما المصائب الجمة فتكفلا بهدم أسوار قلاعهما القريبة من التخوم الاسلامية (٢٢) ، وبعث غرسية ملك نفاة - بعض الأمراء والقسس الى قرطبة ، كما أن شريفا جليقيا هو الكونت رزريق فولسبك أنهض أمه رسولا من قبله الى الخليفة في طلب الصلح فلقبها الحاكم بالترحاب العظيم ووصلها بخلعة (٢٣) ثمينة .

كان السلام الذي عقده الخليفة مع جل جيرانه طويل المدى اذ كان الحكم نفسه يميل للسلم بكل جوانحه ، كما أصبح النصارى في حال من الفوضى الشاملة فلم يعودوا للتفكير في امتشاق السيف من جديد ضد المسلمين .

بينما كانت المفاوضات جارية بين الخليفة وبين شانجة قام الأخير بمهاجمة جليقية التي كانت دائمة الثورة عليه ، في اخضاع كل النواحي

الواقعة الى الشمال من نهر دورو ، ثم حدث أن الكونت جونزالف - الذى
جميع جيشا ضده بالجنوب من هذا النهر - طلب مقابله وتحت الملقبلة
غير أن جونزالف الخائن دس للملك فاكهة مسمومة مة كاد يأكلها حتى
عشى عليه وعلى الرغم من تأثير السم على قلبه إلا أنه لم يمض لساعته ،
وأخذ شانجة يفضى الى جماعته - أنا بالإشارة وأنا بالكلمات المنقطعة -
برغبته فى أن يذهبوا به الى ليون ، لكنه مات فى اليوم الثالث وهو فى
الطريق (٢٤) .

* * *

مات شانجة فخلفه على العرش ولده راميرو الثالث الذى كان فى
الخامسة من عمره فقامت بالوصاية عليه عمته « ألفيرة » الراهبة بدير
سان سلفادور دى ليون ، غير أن وجوه المملكة عن عليهم أن يخضعوا
لامرأة وطفل لم يشب بعد عن الطرق فبادروا الى اعلان استقلالهم (٢٥)
وبذلك أصبحت المملكة نهب جماعة من الأمراء الصغار ناهيك بما آلت
اليه من الضعف الشديد ، ومضت ثلاث سنوات (٢٦) على جليقية يخرب
أرباضها جيش قوامه ثمانية آلاف دانيمركى كانوا بادىء ذى بدء فى خدمة
ريتشارد الأول دوق نرمنديا الذى بعث بهم بعد ذلك الى اسبانيا حين
أصبح فى غير حاجة اليهم ، ومن ثم لم تعد ألفيرة الوصية تحام بشن
غارة على المسلمين (٢٧) .

استمرت الغارات تتوالى على قشتالة فترة من الزمن (٢٨) ، غير أن
موت فرناند كوثالث عام ٩٧٠ م (= ٣٦١ هـ) أتاح للخليفة هدوء
البال من هذه الناحية ، ومن ثم استطاع التفرغ لرعاية الآداب والعناية
بتقدم بلده ورخائه .

والحق أن اسبانيا لم تشاهد من حكامها حاكما مثله ، وعلى الرغم من
أن جميع أسلافه كانوا أهل ثقافة مبالغى مكنباتهم بالكتب الا أنه
لم يكن فيهم من عنى عنايته الكبيرة باقتناء الكتب القيمة والنادرة ، فكان
له وكلاء فى القاهرة وبغداد ودمشق والاسكندرية يتصيدون له الكتب
القديمة والحديثة على السواء وينسخونها أو يشترونها له دون التفات
الى ارتفاع ثمنها ، فزدهم بها قصره ، وكان به جناح لا تقع العين فيه
الا على النساخ والمجلدين والمنمقين . كما أن فهرست مكتبته وحده كان
يقع فى أربع وأربعين كراسة ، ويقول البعض انه كان فى كل كراسة
عشرون ورقة ، ويقول آخرون بل خمسون اقتصر فيها على عناوين الكتب
ولم تشمل وصفها - ويذكر بعض الكتاب أن مجلداتها بلغت أربعمئة
ألف مجلد قيل انه قرأها وعلق على الكثير منها ، وكان يكتب فى أول
الكتاب أو نهايته اسم مؤلفه ولقبه وينسبه الى عائلته وقبيلته مع الإشارة
الى عام مولده وسنة وفاته وذكر أخباره ، وكانت هذه ملاحظات قيمة ولم

يكن هناك من أحد يجارى الحكم فى الإمامه بالتاريخ الأدبى حتى لقد كان
جيلة علماء الأندلس يعدون تعليقاته مرجعاً ، وطالما ألبم بالكتب الموضوعه
فى فارس والشام قبل أن تطالع فى الشرق ، ولهم يكذب يسمع بخبر عالم من
علماء العراق (وهو أبو الفرج الأصفهاني) وأنه وضع كتاباً جمع فيه بين
دفتيه أخبار الشعراء والمغنين العرب حتى أرسل إليه ألف دينار مبالغاً إياه
أن يبعث إليه بنسخة منه حين الفراغ من وضعه ، فبادر أبو الفرج - وقد
استخفه السرور - بتلبية طلبه قبل اذاعة مجموعته الفائقة المسماة
بالأغاني التى ما زالت حتى اليوم محل اكبار الأدباء .

وكانت النسخة التى بعثها الى خليفة الأندلس متقنة وقد أرفقها
بقصيدة فى مدحه وبيحث عن نسب الأمويين - فوصله الحكم بصله
أخرى (٢٩) .

ومجمل القول انه لم يكن هناك حد لعطف الحكم على العلماء من أهل
الأندلس والأجانب على السواء ، فازدحم بهم بلاطه ، وامتد عطفه فشمل
الجميع وأفاء عليهم ظل رعايته لم يستثن من ذلك أحداً حتى الفلاسفة
الذين حينما لاذوا الى كنفه انما لاذوا بكهف منيع استطاعوا فى ظله أن
يتابعوا دراساتهم دون أن يخسروا نقمة الأتقياء أو غضبهم عليهم أو
قتلهم ايهم (٣٠) .

وطبيعى أن تزدهر جميع فنون العلم فى عهد أمير مثقف كهذا الأمير ،
فكثرت المدارس وآتت أكلها ، وكاد جميع أهل الأندلس أن يكونوا ملمين
بالقراءة والكتابة فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا النصرانية - بجميع
رجالها ذوى المكانة الرفيعة عدا القسس - فى حالة من الجهالة طخياء .
وقامت المدارس (٣١) بتدريس النحو والبيان .

ومع ذلك فان الحكم كان يرى أن التعليم غير منتشر كما ينبغى أن
يكون ، وقد دفعته الرغبة فى تثقيف الطبقات الفقيرة لأن ينشئ فى عاصمته
سبعاً وعشرين مدرسة ينال فيها أبناء العامة حظاً من العلم من غير أجر
يدفعونه ، متكفلاً هو بدفع رواتب المدرسين من جيبه الخاص (٣٢) .

وطبقت الخافقين يومذاك شهرة (٣٣) جامعة قرطبة ، فجلس للحديث
بها أبو بكر (٣٤) بن معاوية القرشى ، كما أملى بها أبو على القالى - وهو
من أهل بغداد - مجموعة كبيرة طريفة فى الغريب من أخبار العرب القدماء
وأمثالهم وأشعارهم ، وقد طبعت هذه المجموعة فيما بعد تحت اسم
« الأمل » (٣٥) .

وقام بتدريس النحو ابن القوطية الذى كان أبو على يعده أكبر
علماء الأندلس فى هذا الفن (٣٦) .

٦١ - يبرز في العلوم الأخرى رجال أفذاذ لا يقلون عن هؤلاء شأننا ،
فوفد على دروسهم آلاف من الطلاب الذين كان أكثرهم شديدي الولع
بدراسة الفقه الذي يؤهل صاحبه لأرفع المراتب شأننا (٣٧) .
٦٢ - وفي أحضان هذه الجماعة الجامعة الجامعة الفتية ظهر رجل لم يقتصر شهرته
على إسبانيا وحدها بل دوت في جميع أنحاء العالم أجمع وينبغي أن نلم
بأمره في هذا الصفحات (٣٨) .

الفصل السادس

- أوليات المنصور بن أبي عامر • أحلامه العظيمة •
- أصله • التحاقه بالقصر وتعرفه بصبح البشكنسية • تقدمه
- عندها وعند حريم القصر • تدفق الأموال بين يديه •
- حب الناس له • خروجه لمحاربة ابن طملس القائد الأندلسي
- والحسن بن كنون الأدريسى • حملة غالب أمير البحر ضد
- ابن كنون • إخضاعه الأدراسة •
- ابن طملس القائد الأندلسي والحسن بن كنون
- الأدريسى •
- حملة غالب أمير البحر ضد ابن كنون • إخضاعه
- الأدراسة •
- المنصور قاضي قضاة المغرب • مراقبته الجيش هناك •
- محاصرة ابن كنون في صخرة النسر واستسلامه • ظهور
- الوزير المصحفي • وموقفه من ابن كنون • انشغال الحكم
- باستخلاف ولده عبد الرحمن ثم هشام • أخذه البيعة لهشام •
- وفاة الحكم •

الفصل السادس

النصور بن أبي عامر

في مستهل ولاية الحكم الثاني جلس خمسة من الطلاب يناولون غداءهم في حديقة بضاحية من ضواحي قرطبة ، واستبدت النشوة بهم فمضوا يتفكهون بالحديث ، غير واحد منهم لزم الصمت واستترقه التفكير ، وكان شابا غرانا طويلا القامة ترتسم على وجهه امارات النبل ومخايل العظمة وسمات الكبرياء وتدل جميعها على أنه خلق للزعامة (١) ، ثم استغاق أخيرا من تفكيره وصاح فيهم على غرة منهم : « ماذا ترون ان صارت مقاليد أمور هذا البلد في يدي يوما ما ؟ » ، فضحك أصحابه لهذا الخاطر ، غير أن النساب تابع كلامه قائلا في هدوء : « ليختر كل منكم خطة أوليه اياها اذا أفضى الى الأمر » .

فقال أحدهم : « توليني حسبة السوق فاني أحب هذا الأسفنج » (٢) .

وقال آخر : « توليني كورة (رية وهي) مألقة وطني وأعمالها ، فاني يهيجني هذا التين الذي يجيء منها » .

وقال الثالث : « اني أوثر قرطبة ، وأقضي ما أتمناه ان أصير واليا عليها » .

لكن رابعهم لاذ بالصمت اذ أسخطه تفكير اخوانه العجيب ، فقال له : « وأنت أما طلبت ما تتمنى ؟ » فهب واقفا وأمسك بلحيته وقال : « اذا أفضى اليك الأمر فمر ان يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي لذنيه وأنا مطبل بالعسل ليجتمع على الذباب والنحل » .

فتفرسه السائل مليا وحده بنظرات يتطأر منها الغضب ولكنه كظم غيظه ثم قال : « ليكن ما أرادته كل منكم - وسسياني الزمن الذي تنذاكرون فيه هذا اليوم وستجاب طلبه كل منكم » (٣) .

ولما فرغوا من طعامهم ذهب كل لطيته ، أما الفتى المستسلم لأحلامه وآماله الضخمة فقد عاد الى بيت أحد أقاربه لأمه حيث كان يستضيفه ، فأخذه صاحب الدار الى حجرة بالطابق الأعلى وجاوب أن يجاذبه الحديث ، غير أن الشاب كان غارقا في لجة أفكاره فكان رده كلمات متقطعة ، فلما رأى الآخر فشله في حمله على الكلام حياها وانصرف ، فلما جاء الصباح لم يحضر الفتى للافطار فظنوه لا يزال نائما ، فمضى المضيف الى حجرته ليوقظه وكم كانت دهشته عظيمة حينما أبصر الفراش لم يمس ، والطالب جالسا على الأريكة وقد تدلت رأسه على صدره ، فقال له : « ما أراك نمت الليلة ؟ » (٤) -

قال : كلا ! ..

قال : « في ماذا كنت تفكر ؟ وما أسهرك ؟ » .

قال : « فكرة عجيبة ، لقد فكرت اذا أفضى الى الأمر ومات محمد بن يثير القاضى (٥) فمن استبدله ومن ذا الذى يقوم مقامه ؟ فجلت الأندلس كلها بخاطرى فلم أجد رجلا الا واحدا » .

فقال له : « لعله محمد بن السليم » (٦) .

فأجابه : « هو والله . لشد ما اتفق خاطرى وخاطرك » (٧) .

كانت هناك فكرة استولت على الشاب فشغلته نهاره كله ، وحرمته رقاده بالليل .

فمن كان هذا الشاب الضائع بين جمهور العاصمة اللجب ؟ .

ومن هذا الذى تضطرب نفسه بمثل هاتيك الآمال الجسام ، والذى كان يؤمل فى قرارة نفسه بأنه سيغدو يوما المتصرف فى شئون البلد على الرغم من أنه لم يكن له سند فى البلاد ؟

كان هذا الفتى يدعى أبا عامر محمد من بنى أبى عامر ، وهى أسرة تنتمى الى قبيلة معافر اليمنية ، ومع أنها لم تكن من الأسر البارزة الا أنها كانت شريفة المحتد ، فجدده السامع عبد الملك أحد أولئك العرب القلائل الذين كانوا فى الجيش المغربى الذى خرج به طارق الى اسبانيا ، ثم ذاع صيته حينما قاد كتيبة من الجند استولت على قرطاجنة الى كانت أول مدينة أسبانية تقع فى أيدي المسلمين فأرادوا مكافأته على انتصاره فأقطعوه حصن طرش الواقع على نهر الوادى الكبير باقليم الجزيرة وما حوله من الأراضى ، ولكن قل أن سكن أبناؤه من بعده هذه الناحية

الا نادرا ، اذ جرت العادة أن يقضوا أيام شبابهم بقرطبة ليسعفهم ذلك بأن يكونوا من رجال البلاط أو القضاء ، وهذا ما فعله مثالا أبو عامر محمد بن الوليد الحفيد الأكبر لعبد الملك ، وكذلك ابنه عامر الذي شغل كثيرا من المناصب ، وأحبه السلطان محمد حتى أمر بنقش اسمه على السكة وتطريزه على الأعلام - كما تقلد محمد - جد صاحبنا - قضاء اشبيلية مدة ثمانية أعوام زمن السلطان عبد الله (٨) ، كما كان أبوه عبد الله فقيها مبرزًا شديد الورع والتقوى ، حج الى مكة (٩) ، ومن ثم كانت هذه العائلة تطمح على الدوام للاتصال بذوى الشرف ، فتزوج جد محمد من ابنة العليج يحيى بن أسحق النصراني (١٠) طبيب عبد الرحمن الثالث ثم أصبح وزير بطليوس وعاملا عليها ، وكانت أم أبي عامر تدعى « بريهة » وهى ابنة القاضى ابن برطل التميمى (١١) .

وعلى الرغم من قدم أسرة بنى عامر وما تتمتع به من الاحترام الا أنها لم ترق الى مرتبة الطبقة العليا فلم يكن لها من النبل غير ثوبه ان جاز استعمال هذا التعبير ، ولم تصل الى هذا بخد السيف .

وإذا استثنينا عبد الملك الذى صحب طارق بن زياد لم نجد عامريا سواه مارس الحرب وولج ميدان الوغى الذى هو أشرف منازل الحياة (١٢) . فكان العامريون جميعهم اما قضاة أو موظفين فى القصر . وقد قدر لمحمد - هو الآخر - أن يسلك سبيل القضاء ، ففى ذات يوم فى صدر شبابه ودع هذه الحصون المنيعه وذلك القصر الموروث وشخص الى العاصمة فى طلب العلم حيث سمع من أبى بكر بن معاوية القرشى وأبى على القالى وابن القوطية (١٣) ، وكان شابا ذكى الفؤاد ، سريع الفهم ، مشبوب العاطفة ، مرهف الحس سريع الغضب ، يؤثر من الكتب الحوليات القديمة عن تاريخ (١٤) أمته ، وكان أهم ما يسترعى انتباهه فى هذه الأخبار الغابرة صور المخاطرات التى قام بها أولئك الرجال الذين نشأ أغلبهم بين طبقات دون طبقتهم بكثير وتدرجوا فى المناصب حتى بلغوا أسنى المراتب ، فاتخذهم مثلا يحتذيه ، وكان لا يكتف مطامحه عن أقرانه لذلك طالما اتهموه بالجنون وليس به مس منه ، والواقع أنه لم يكن يسيطر عليه غير فكرة واحدة شغلت كل تفكيره لكنها لم تكن ضربا من الجنون بل ترجع الى العمقوية ، كما كان على جانب كبير من المواهب العظيمة ، فكان خصب التفكير ، شديد البأس ، جريئا حيث تنبغى الجراءة ، كما كان لين العريكة مدبرا ، يحتال للأمر أن دعت الحال الى ذلك . أضف الى هذا أنه كان قليل التشكك فيما هو بسبيله من الطرق التى تمهد له الوصول الى هدفه العظيم ، كما كان قوى الثقة فيها

جميعاً ، وكان جيم النشاط يتابع الفكرة المرموقة في ونباء وتمهل ، وكان اذا استهدف هدفاً وجه اليه همنه وآلى على نفسه الا أن يبلغه مهما كلفه الأمر ، ثم يوضى قدما اليه لا يئننيه عنه ثان ، ولا يرده عنه راد .

.. ولقد بدأ حياته بمغمورا مجهولا فلما أتم دراسته دفعه السعى لكسب العيش الى فتح مكتب بجوار باب القصر لكتابة الرقاع التي يرفعها الناس الى الخليفة . يسألونه شيئا (١٥) .

ثم شغل بعد ذلك وظيفة صغيرة في محكمة قرطبة ، لكنه لم يحظ بعطف رئيسه القاضي ، وكان الذي يشغل منصب القضاء يومئذ ابن السليم الذي كان محمد يحله عن حق وينزله من نفسه أرفع منزلة لبروزيه في العلم والشرف ، كما كان من احسن القضاة الذين شهدتهم قرطبة (١٦) ، غير أنه كان في الوقت ذاته جاف المعاملة منطويا على نفسه شديد البعد عن ليسوا على شاكلته ، فغاظه أكبر الغيظ آراء مرؤوسه الشباب الغربية وذهوله الدائم ، فكان لا يتمنى شيئا سوى الخلاص منه ، وشاءت الصدفة وحدها أن تؤدي الكراهية التي يحسها القاضي لمحمد (بن أبي عامر) لأن ينال هذا الأخير ما اشتهاه من الالتحاق بالبلاط ، فقد شكاه القاضي الى الوزير المصحفي سائلا اياه الحاق هذا الشاب بمهنة أخرى فوعده المصحفي بتحقيق طلبه ، ولم يلبث الحكم الثاني ان طلب وكيلا ماهرا لادارة أملاك ابنه البكر عبد الرحمن الذي كان في الخامسة من عمره (١٧) اذ ذاك ، فحبب المصحفي اليه محمدا بن أبي عامر وذكاه عنده ، ولم يقع هذا التعيين موقع الرضى من الخليفة وحسنه فحسب بل ومن الجارية السلطانية صبح أيضا ، وكانت « صبح » بشكنسية المولد لها دالة كبيرة على زوجها ، وتقدم اليها كثيرون لم تقبل منهم غير ابن أبي عامر فقد راقها منه حسن طلعتة ولطف معاملته ، فاختر دوين سواه ، وفي يوم السبت (١٨) ٢٢ فبراير ٩٦٧ م عين مشرفا على أملاك عبد الرحمن بمرتب شهري قدره خمسة عشر دينارا ، وكان له من العمر يومئذ سنا وعشرين سنة .

لم يكن ابن أبي عامر يدع فرصة الا ويغتنمها كي يزداد اعجاب ضبح به ، وصاحبه التوفيق فاخترته لادارة أملاكها الخاصة هي أيضا ، ولم تنقض سبعة أشهر على التحاقه بالقصر حتى اختير مديرا لاشئون المالية (١٩) ، فهيا له هذا المنصب الأخير الفرصة لتوفير المال الجرم بين يديه ، فتوسل به لأيجاد أصدقاء له من بين الكبار ، فكان اذا أشرف أحدهم على الافلاس (وتلك حال كان يؤذيهم اليها في الواقع اسرافهم) هب ثمحمد بن أبي عامر لنجدته ، ويقال ان محمد بن أبي أفلاح - أحد موالى الخليفة وموظفى البلاط (٢٠) - كان قد استندان مبالغ طائلة لتجهيز

ابنته فمضى الى بيت المال وقدم الى ابن أبي عامر حلقة مرصعة بالجواهر الكريمة رهنها عنده لقاء مبلغ يريده قائلا له انها الشيء القيم الوحيد الذى يبقى له ، فلم يكذب يفرغ من كلامه حتى أمر ابن أبي عامر أحد مرؤسيه بأن يزن له زنتها فضة ، فأخذها ابن أفلح وأذهله هذا الكرم لتقل الحديد والجلد اللذين صنعت منهما الحلقة ، ولم يصدق ابن أفلح أذنيه فيما أمر به صاحب بيت المال ، غير أنه آمن أن أذنيه لم تخوناه حين جاؤه بعد لحظات طالبين اليه بسط عباءته مكسسين فيها قدرا كبيرا من الفضة لاتكفى لسد ديونه فحسب بل ولتجعله فى بسطة من العيش ، فانطلق لسانه قائلا (٢١) : « أحببت ابن أبي عامر حتى لو دعاني الى معصية الحكيم - وهو مالك رقى وامامي - لما قعدت عنه » .

بهذه الوسيلة استمال ابن أبي عامر الى جانبه كثيرا من الناس فكانوا مؤيدين له ، غير انه كان يرى أن واجبه الأول انما هو تلبية كل رغبات السلطانة (صبح) واغراقها بهدايا لم يسبق أن رأت لها قط مثيلا من قبل ، ونجحت خطته بطبيعة الحال ، من ذلك مثلا ما حدث ذات مرة من أنه بذل كثيرا فى صنع قصر صغير من الفضة فلما تم كما أراد أمر بحمله على رؤوس الخدم الى القصر الخلقى ، فاستبد العجب بأهل العاصمة الذين لم يروا أبدا منزل هذا العمل الفخم ، وكان هذا (القصر) هدية لصبح النى لم تكتم اعجابها الشديد به ، ومنذ ذلك الوقت لم تكن تدع فرصة تمر دون أن تمتدح مواهب وكيلها وتطلب زيادة راتبه (٢٢) .

وتمكنن أوامر المودة بينهما تمكننا عظيما أتاح لبعض الوشاة أن يلغوا بالقول السىء .

كذلك أغدق ابن أبي عامر هداياه على غيرها من الحريم فأسرهن كرمه ، وأعجبتهن رقة حديثه وجميل خصاله ، ولم يفهم الخليفة العجوز شيئا حتى لقد قال ذات يوم لخاصة أصدقائه (٢٣) : « ما الذى استلطف به هذا الفتى حريمتنا حتى ملك قلوبهن مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن حتى صرن لا يصفن الا هداياه ولا يرضيهن الا ما أتاه ؟ .. انه لساحر عليم ، وخادم لبيب ، واني لخائف على ما بيده » .

والواقع أن المدير الشاب لاقى الأخطار الجسام من تلك الناحية ، فلقد كان يبسط يده بالمال من بيت المال الى أصدقائه ، ولما كان تدرجه السريع فى مدارج العلية داعيا بطبيعة الحال الى ايجاد حساد له فقد اتهمه أعداؤه ذات يوم عند الخليفة بالسرقة ، فطلب ان يحضروه اليه لساعته ليسؤل عما بيده من المال الذى استؤمن عليه فوعد بالمنول ، لكنه

أسرع في البحث عن وزيره ابن حدير وصارحه بحرج موقفه وما يحق به من الخطر ، وتوسل إليه أن يقوم بسداد ما يحتاجه من المال ليدفع الخطر الموشك أن يلزم به . فأعطاه ابن حدير للحظته ما سأله ، ومضى ابن أبي عامر الى الخليفة وأطلععه على التقارير المالية وعلى المال الذي ينبغي أن يكون في بيت المال بين يديه ، فأفحم مناوئيه وألجم ألسنتهم ، وبدلا من الشر الذي أرادوه له فانهم مهدوا له سبيل النجاح العظيم . فعاملهم الخليفة معاملة النمامين ، وراح يمتدح مهارة وكيل بيت المال وأمانته (٢٤) ، وعهد اليه بمهام أخرى ، ذلك أنه في مستهل ديسمبر ٩٦٨ م اختاره ناظرا لبيت المال ، ثم جعله بعد أحد عشر شهرا قاضي اشبيلية ولبلة ، ولما مات عبد الرحمن الصغير وكان طفلا اختير ابن أبي عامر مشرفا ومدبرا لأملاك هشام الذي صار ولي العهد في يوليو ٩٧٠ ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد إذ أنه في فبراير ٩٧٢ م اختير مديرا للقسم الثاني من الشرطة الذي كانت مهمته المحافظة على المدينة (٢٥) ، ولما بلغ الحادية والثلاثين من عمره كان في يده خمس أو ست وظائف هامة مريحة (٢٦) ومن ثم تقاب في بلهنية من العيش قل أن كان يتقلب فيها غير الأمراء .

ولم يكن هناك قصر يضارع في الأبهة قصره الذي شيده في الرصافة لما احتشد فيه من الكتبة والموظفين الذين اختيروا من أرفع طبقات المجتمع ، ولم يجعل حجابا بينه وبين أي طارق لبابه الذي كان مفتوحا على الدوام لطلاب الحاجات غير مسدود في وجوههم ، أضف الى ذلك أنه لم يكن يدع فرصة تمر دون أن يتقرب فيها الى الشعب ونجح في ذلك كل النجاح ، فأجمع الكل على امتداح كرمه ، وتغنوا بعطفه ، ولهجت ألسنتهم بالثناء على رحمته وكريم طباعه ، ولم يختلف في ذلك اثنان (٢٧) . وعلى الرغم من أن تلميذ طرش كان قد بلغ مرتبة رفيعة الا أنه كان يطمح فيما فوقها ، وجعل ذلك الهدف نصب عينيه ورأى الضرورة تحتم عليه مصادقة القواد ، وقد أتاحت له أحوال المغرب تلك الفرصة .

لم تضع الحرب أوزارها لحظة في هذا القطر بين أتباع الفاطميين وبين الموالي الأمويين الا أنها اتخذت أسلوبا آخر ، ذلك أنه اذا كان عبد الرحمن الناصر قد حارب الفاطميين لحفظ بلده من غارة أجنبية فان هذا الخطر لم يهد له وجود ابان الفترة التي نتكلم عنها الآن ، فقد وجه الفاطميون جيوشهم نحو مصر ففتحوها عام ٩٦٩ م (= ٣٥٩ هـ) ، وبعد ذلك بثلاث سنوات غادر خليفتهم المعز المنصورية عاصمة دولته وأقام على ضفاف النيل ، واستعمل على بلاد المغرب وأفريقية الأمير الصنهاجي أبا الفتوح يوسف بن زيري ، فأمنت الأندلس منذ ذلك الحين عادية من

يسمون أنفسهم بالعلويين ، وربما كان الحكم مصصبا في عزمه على ترك هذه الأقطار الأفريقية التي كانت ترهقه مألبا أكثر مما تفيده ، إلا أنه رأى في هذا الترك ما يثلّم شرفه فأخذ في توسيع حدوده بدلا من ترك هذه الممتلكات ، فخرج غازيا أمراء الدولة الأدرسية الذين كانوا يدينون بالولاء للفاطميين .

كان أحد هؤلاء الأمراء هو الحسن بن كنون (أو جنون الأدرسي) حاكم طنجة وأرزيلة وبعض الأماكن الساحلية الأخرى ، وكان ابن كنون يميل تارة الى الأمويين وتارة الى الفاطميين وان كان الى الأخيرين أكثر ، إذ كان يخيل إليه أنهم أقل خطرا من الأمويين الذين تتاخمه ممتلكاتهم ، وكان (الحسن) أول من انضم الى جانب أبي الفتوح حينما دخل ذلك الوالي بلاد المغرب فاتحا ، فنقم عليه الحكم بسبب تمردّه ، وبعد أن غادره أبو الفتوح أغزى الحكم قائده ابن طلمس (٢٨) للقصاص من ابن كنون وردّه الى طاعته .

وفي مستهل أغسطس ٩٧٢ م (= شوال ٣٦٣ هـ) أبحر ابن طلمس على رأس جيش عرمرم بعد أن انضم إليه عدد كبير من عسكر سبتة التي كان ابن كنون مقيما بها فخرج لطرده غير أنه منى بهزيمة نكراء حتى أنه لم يستطع الرجوع الى طنجة التي تركت بمفردها وسرعان ما استسلمت وخضعت للقائد الأموي الذي حاصر ميناءها . أما الجيش البربري فقد احتل ناحية أرزيلة (٢٩) . وكانت العساكر الأموية حتى ذلك الوقت ظافرة منتصرة ، غير أن الحظ أخذ في مناوأتها إذ جمع ابن كنون تحت رايته جنودا آخرين وزحف بهم على طنجة (٣٠) وهزم ابن طلمس الذي خرج لصدّه فلقى حتفه في هذه المعركة ، وإذ ذاك شق جميع الأمراء الأدارسة عصا الطاعة وجاهروا بالثورة ، كما كتب قادة الحكم الذين عادوا الى طنجة ينبئونه بضياع الممتلكات الأموية في بلاد المغرب ويسألونه أن يسرع الى نجدها بالامدادات .

شعر الحكم بفداحة الخطر فعزم على ارسال أحسن جنده الى افريقية في التو واللحظة وجعل القيادة فيها الى أعظم قائده عنده وهو غالب العجوز فاستدعاه الى قرطبة وقال له : « امض يا غالب ولا تعودن الا غالبا ، فان لم تستطع فخير لك أن تلقى منيتك على طبا السيوف ، ولا تدخرن مالا بل فرقه في الثوار ، واخلع جميع بني ادريس واستنزلهم الى الأندلس » .

وعبر غالى المضيق وفي صحبته نخبة من عساكر الأندلس وأرسى عند قصر مصمودة بين سبتة وطنجة ، وراح يتقدم فحاول ابن كنون

تعويقه ، ومع ذلك فلا يمكن أن يقال انه جرت موقعة ما بل كان القتال مناوشات استمرت بضعة أيام حاول غالب أثناءها زشوة زعماء جيشن عدوه ، ونجح في مقصده ، فانضم معظم قواد ابن كنون الى الراية الأموية بفضل ما قدم اليهم من مال وما خلع عليهم من الثياب الفخمة وما أصابوه من السبوف المحلاة بالجواهر التي خطف بريقتها أبصسارهم ، وحينذاك لم يجد الأدارسة بدا من الاعتصام بقلعة قائمة على قمة جبل قريب من « سبينة » تسمى باسم يطابق الواقع ألا وهو « صخرة النسر » (٣١) أو « خجر النسر » (٣٢) .

تلقي الخليفة نبأ هذا النصر الأول بالغبطة والارتياح لكنه لما علم بما بذله غالب من المال في سبيل استمالة زعماء البربر وجد أن قائده لم يتصرف بالحكمة ، وسواء أكان مال الدولة قد بعثر في المغرب أم امتدت اليه يد النهب والسرقة فالواقع أن النفقات التي تحملها الخليفة جاوزت كل تصور ، وأزاد الحكم وضع حد لهذا الاسراف أو تلك اللصوصية فألى على نفسه أن يبعث الى بلاد المغرب رجلا محنكا ليكون مراقبا للشئون المالية فندب لذلك ابن أبي عامر وجعله قاضي قضاة المغرب وعهد اليه بمراقبة جميع أعمال القادة لا سيما المالية ، كما أنهى أمره الى ضبطه الحربيين ورجاله المدنيين في الوقت ذاته ألا يباشروا أحدهم عملا الا باستشارة ابن أبي عامر وموافقته .

وهكذا وجد ابن أبي عامر نفسه - ولأول مرة في حياته - على صلة بالجيش وزعمائه وكان ذلك أقصى ما يتمناه ، غير أنه كان بلا شك يرجو أن يكون هذا الحدث في ظروف غير هذه الظروف ، فكانت المهمة التي وكل اليه القيام بها شاقة شائكة ، فدفعه صالحه الخاص لتوثيق علاقاته بالقادة ، وان لم تغفل عينه في الوقت ذاته عن مراقبتهم ، وفي هذا نجاحه أو فشله ، ومع ذلك فيرجع الفضل لكل الفضل الى مهارته البارعة في أداء واجبه ومعرفته لأهدافه ، وكان قيامه بكل ما عهد به الخليفة اليه خير قيام حاملا الخليفة على الرضاء عنه كل الرضا ، كما أنه أحسن معاملة الموظفين الذين كان يخشى كراهيتهم له فانطلقت ألسنتهم بمدحه والثناء عليه ، كما آكد في الوقت ذاته أواصر الصداقة بينه وبين الأمراء الافريقيين وشيوخ القبائل البربرية ، تلك الصداقة التي عادت عليه في النهاية بخير ما يحب ، وألف حياة المعسكرات واكتسب محبة التجند الذين ألهمتهم غريزتهم أن في مسنوح هذا القاضي جنديا .

بعد أن تم لغالب اخضاع جميع الأدارسنة الآخرين ظل محاصرا ابن كنون في صخرة النسر ، وإذا كان من العسير اقتحام هذه القلعة

لحصانتها فقد بعث الخليفة الى المغرب عسكريا جديدا أخذهم من الكنائب التي كانت تحرس حدود الامبراطورية الشمالية ، وجعل على رأسهم الوزير يحيى بن محمد التجيبى نائبه فى النغر الأعلى ، وفى أكتوبر ٩٧٣ م ، وصل هذا المدد واشتد الحصار واتسم بالوحشية والضراوة التى أرغمت ابن كنون على التسليم فى الأيام الأخيرة من شهر فبراير ٩٧٤ ، وحينذاك سألهم الابقاء على حياته وحياته غائلته وجنده ، وترك أمواله لهم ، فأجيب الى ما طلب ، ويقال انه سلم حصنه ومضى الى قرطبة .

واستقرت الحال فى المغرب وعبر غالب المضيق ثانية عائدا الى الأندلس وفى صحبته جميع الأمراء الأدارسة ، وخف الخليفة وجميع أشرف قرطبة لاستقبال الغازى فكان دخوله طاقرا يوم ٢١ سبتمبر ٩٧٤ (= ٢ محرم ٣٦٤ هـ) من أفخم المناظر التى شهدتها عاصمة الأمويين ، وأظهر الخليفة عظما كثيرا على المغلوبين لاسيما ابن كنون ، ووصلهم بالعطايا الجمة ، وضم جندهم - وهم زهاء سبعمائة فارس - لخدمته ، وأثبتهم فى ديوان جنده لما شهد به لهم من الشجاعة (٣٣) .

كان دخول غالب العاصمة آخر أيام السعادة فى حياة الخليفة ، فما وافى شهر ديسمبر حتى داهمه مرض خطير هو الصرع (٣٤) ، فلما أحس بدنو أجله انصرف لأعمال البر فأعتق رقاب مائة من عبيده ، وتنازل عن سدس الجباية الخليفة فى الأقاليم الاسبانية التابعة للدولة ، وأمر أن يوقف ما جيبى له من حوائت سروجية قرطبة على تعليم الأطفال الفقراء (٣٥) . أما أعمال الدولة التى لم يكن يستطيع الالتفات اليها الا قليلا فقد وكل القيام بها الى وزيره المصحفى (٣٦) ، وكان من الواضح أن يدا أخرى كانت هى التى تسير الأمور .

ولما كان المصحفى أكثر اقتصادا من مولاة فقد وجد أن ادارة الولايات الافريقية والاحتفاظ بالأمراء الادارسة يكلفان الدولة كثيرا لذلك بعث بهم الى تونس ومنها الى الاسكندرية (٣٧) بعد أن أخذ عليهم المواثيق الغلاظ الا يدخلوا المغرب ، ثم بعث فى استدعاء الوزير يحيى بن محمد التجيبى الى الأندلس وكان التجيبى نائبه على الممتلكات الافريقية منذ رحل غالب ، وعهد المصحفى بادارة هذه الأقاليم الى أمرين من أهلها هما جعفر ويحيى ابنا على بن حمدون (٣٨) ، ولم يكن الاقتصاد وحده هو الذى أمله على المصحفى هذه الخطة بل دفعه إليها الرغب الذى قذفه فى قلبه نصارى الشمال الذين شجعهم ما ترامى الى سمعهم من نبأ مرض الخليفة وغيباب أجسده فعادوا فى ربيع ٩٧٥ م (= ٣٦٦ هـ) يجاهرونه بالعداء ، وحاصروا كثيرا من قلاع (٣٩) الميهلين بفضل مساعده

أبى الأحمس (٤٠) معن لهم ، وهو من عائلة التجيبى المقيمة فى سرقسطة ، فآمن المصحفى أنه ينبغى عليه فى مثل هذه الظروف أن يعنى قبل كل شىء بالدفاع عن البلد ، فما كاد البطل يحيى بن محمد يعود حتى أسرع فولاء ولاية النجر الأعلى (٤١) .

أما الخليفة فلم يكن يشغل باله طوال هذه الأشهر الأخيرة من حياته سوى شاغل واحد ذلك هو ضمان إبنه العرش من بعده وان كان لا يزال طفلا ، وكان قبل توليه الحكم لا يرى أن أمنيته الغالية قد تحققت وهى أن يكون أبيا لاسيما وقد تقدم به العمر تقدا كاد أن يبأس معه حتى اذا واقت سنة ٩٦٢ (٣٥١هـ) ولدت له صبيح ولدا سماه عبد الرحمن ، ثم أنجبت له بعد ثلاثة أعوام ولدا ثانيا هو هشام ، فكان سرور الخليفة بقدميهما عظيما ، ومنذ ذلك الحين تزايد نفوذ صبيح على زوجها (٤٢) [الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر] تزييدا ما له من حد ، غير أن سروره لم يتم اذ مات ابنه البكر (عبد الرحمن) معقد رجائه ولم يبق سوى هشام ، ولم يعد يشغل بال الحكم الا الخوف من أن تقوم الرعية فتسوق العرش الى واحد من أعمامه ايثارا له على طفل حدث ، ولم يكن من المستغرب أن يسيطر عليه ذلك الخاطر ، فلم يحدث قط أن اعتلى عرش قرطبة سلطان صغير كهذا السلطان هشام ، أضعف الى ذلك كراهية العرب لفكرة الوصاية ، وكان قصارى أمل الحكم أن يخلفه ابنه فقد كان القوم يؤمنون بتبوءة قديمة تقول ان أسرة بنى أمية ستزول من الحكم اذا ما خرج العرش عن البيت (٤٣) .

لم ير الخليفة أمامه من وسيلة لضمان العرش لولده الا أن يسارع بأخذ البيعة له ما وسعه الاسراع ، ومن ثم استدعى كبار رجال مملكته الى مجلسه ، واجتمعوا يوم الخامس من فبراير ٩٧٦ م ، حيث أفضى اليهم بقصده داعيا اياهم جميعا للتوقيع باعتباره ولي عهده من بعده ، فما استطاع أحد أن يرفض طلب الخليفة .

حينذاك كلف الحكم ابن أبى عامر وكاتبه ميسورا - وكان ممن حررتة (٤٤) صبح - أن يستنسخا عدة صور من هذا القرار ، وبعث بها الى جميع ولايات الأندلس وأفريقية ودعى الاشراف والعمامة للتوقيع على هذا القرار (٤٥) .

وأنجز الأمر فى ساعته وبادر الجميع الى تحقيق ما طلبه الخليفة دفعا لسخطه أن ينزل بهم .

أضف الى هذا أن اسم هشام أصبح منذ ذلك الحين يذكر في
الصلوات العامة ، فلما وافى الموت الحكم (٤٦) يوم أول أكتوبر ٩٧٦ م
(= ٢ صفر ٣٦٦ هـ) حمل الى قبره وهو مطمئن الى أن ولده هشاماً
سيخلفه لاسيما وان ابن أبي عامر والمصحفي - الذي أصبح حاجباً (٤٧) -
لا بد وأن يحملا أهل الأندلس على احترام العهد الذي قطعوه على أنفسهم •

الفصل السابع

- الخصيان الصقليين فائق وجوزد يغليان خبر موت الحكم لتدبير من يحكم بعده • تقريرهما صرف الخلافة عن هشام الى عمه المغيرة • ظهور المصحف على مسرح الأحداث •
- ايثاره هشام بن الحكم • ابن ابي عامر يتعهد للمصحف بالتخلص من المغيرة • الحلفاء الأعداء في القصر • اخذ البيعة لهشام وتضخم نفوذ المصحف وابن ابي عامر • حوادث الاغتيال •
- الحملة لمحاربة نصارى الشمال بقيادة ابن ابي عامر • نجاحها واثر ذلك على ابن ابي عامر •

أحداث استخلاف هشام بن الحكم

لفظ الحكم المستنصر نفسه الأخير بين أذرع كبيرى خصيانه :
فائق (١) وجوزر ، فلم يعلم أحد سواهما بنياً موته الذى آليا أن يبقى
سرا مكتوما حتى يتم الاتفاق بينهما على الخطة التى يسلكانها .

وعلى الرغم من أنها كانا عبدين اذ كان أحدهما يلقب بصاحب
البرد والطراز والآخر بصاحب البياذرة الا انهما كانا أصحاب شأن ضخيم
يتمتعان بسלטان كبير ونفوذ غير منكور ، وكان فى خدمتهما ويعيش على
حسابهما الخاص جمع من الخدم المسلمين الذين لم يكونوا خصيانا
ولا عبيدا ، زد على ذلك أنه كان تحت امرتهما قرابة ألف صقلبي من موالى
الخليفة لكنهم كانوا بالغى الثراء لما يملكون من الأراضى الفسيحة والقصور
الجميلة ، وكان رجال هذا الجيش من الخلم ينعمون بكثير من الامتيازات ،
كما كان ينظر اليهم بأنهم زينة البلاط وأبهى حلل المملكة ، لكنهم جاروا
على القرطبيين وأساءوا السيرة معهم كل السوء ، وعلى الرغم مما أثر عن
الخليفة من ايثاره العدل وحرصه على تطبيقه الا أنه كان دائم الاغضاء عن
قبائحهم وجرائمهم فاذا حاول أحد تنبيهه الى ذلك أجاب : « هم أمناؤنا
وثقاتنا على الحرم ، فينبغى للرعة أن تدين لهم وترفق فى معاملتهم فتسلم
من معرفتهم ، اذ ليس يمكننا فى كل وقت الانكار عليهم » (٢) .

ولم تكن المعاملة الحسنة لتريد أولئك الصقالبة الا صلفا وعتوا ،
فكانوا أكثر هيبات الحكومة قوة ، حتى خيل الى زعيميهما فائق جوزر
أن اختيار خليفة جديد أمر موكول اليهما وحدهما فحسب لا يشاركهما فيه
أحد ما . ولقد ترتب على هذا الظن أن انصرف كل منهما عن هشام لما أدركاه
فى اعتلاء هذا الطفل العرش من ظهور نفوذ المصحفى (٣) الوزير الذى
يكرهانه وبودان لو تقلص نفوذه الشخصى (٤) . والواقع أن العامة كانت

قد أقسمت يمين الولاء لهشام بن الحكم لكن الخصيين لم يكونا يقيمان وزنا ليمين سياسية ، ادراكا منهما أن معظم من أقسموه انما أقسموه قسرا ، كما كانا يعرفان أن الشعب لا يميل لفكرة الوصاية وأن هناك ثلثة من الناس لا ترغب أن ترى العرش يساق الى حاكم طفل لا يتجاوز الثانية عشرة من عمره ويكون له الحكم الزمني والروحي . كما أنهما كانا من ناحية أخرى يطمعان في استبقاء البقية الباقية من حب الشعب لهما بأيسر طريق وذلك بعقد الامامة لأمير بالغ عاقل ، ثم انهما يعلمان أن مثل هذا الأمير لا بد وأن يشكر لهما يدهما عليه اذ أخذنا به الى العرش ومن ثم يستطيعان التصرف في أمور الدولة باسمه من غير معارضة لهما من جانبه ، لذلك صمما على المبادرة الى اقضاء هشام وصرف الخلافة الى عمه المغيرة وكان في السابعة والعشرين من عمره آنذاك واشترطا عليه أن يعلن ابن أخيه خليفة له ، كراهية منهما في أن يظهر بمظهر المعارض لرغبات مولاها الراحل .

فلما اتفقا على هذا القرار قال جوذر لصاحبه : « ينبغي أن نحضر جعفر بن عثمان [الصحفي] ونضرب عنقه فيتم بذلك أمرنا » .

لكن فكرة القتل هذه أفرغت فائقا الذي كان أقل دهاء من صاحبه كان أكبر منه مقاما ، ومن ثم اعتزما على كتساب الصحفي باللين فبعثا مولانا وشيخ من مشيختنا دون ذنب ولعله لا يخالفنا شيئا نريده مع افتتاحنا الأمر بسفك الدم ؟ » .

لم يكن جوذر يؤيد هذه الفكرة لكنه تخلى عما قال مرغما لأن فائقا كان أكبر منه مقاما ، ومن ثم اعتزما على اكتساب الصحفي باللين فارسلا في طلبه الى القصر فلما جاء أفضيا اليه بموت الخليفة وأطلعناه على المشروع الذي أجمعا العزم عليه ، ثم طلبا اليه موثته .

كانت خطة الخصيين تخالف تمام المخالفة رأى الحاجب ولكنه تظاهر بقبولها خوفا من بطشهما به ، وقال لهما : « هذا والله أسد رأى وأوفق عمل ، والأمر أمركما ، وأنا وغيرى فيه تبع لكما ، فاعزما على ما أردتما واستعينا بمشورة المشيخة فهي أنفى للخلاف ، وأنا أسير الى الباب فأضبطه بنفسى وأنفذ أمركما الى بما شئتما » (٦) .

ولما أدرك الصحفي نجاح خطته في خدع الخصيين واطمئنناهما اليه استدعى أصحابه ، وأعلم بالأمر ابن أخيه (٧) هشاما وابن أبى عامر (٨) . وزياد بن أفلح (٩) أحمد موالى الحكم وقاسم بن محمد (بن القائد

ابن طلمس الذى لاقى حنقه فى افريقية فى محاربة ابن كنون) وبعض الشخصيات الأخرى ذات المكانة البارزة ، كما أحضر كذلك قوات الكتائب الاسبانية ورؤساء الكتائب الافريقية التى كان جل اعتماده عليها ألا وهم بنو برزال ، وعندما تكامل عقد الجميع أفضى اليهم نبأ موت الخليفة وبما دبره الخصيان ثم ختم كلامه اليهم بقوله :

« ان نحن حبسنا الدولة على هشام أمنا على أنفسنا وصارت الدنيا فى أيدينا . »

« وان انتقلت الى المغيرة استبدل بنا وطلب شفاء أحقاده » .

واتفقت ميسول الحاضرين وميول المصحفى ، فأجمع هو وياهم فيما بينهم على احباط مشروع الخصيين وذلك بقتل المغيرة قبل أن يعلم بموت أخيه ، واستصوب المصحفى هذه الفكرة لكنه لم يجد من يقوم بهذا القتل حين طلب من القوم رجلا ينفذه ، اذ لم يشأ أحد أن يخضب يديه بدم المغيرة أو أن يتحمل تبعه هذا العمل .

حينذاك تقدم ابن أبى عامر وقال : « يا قوم انى أخاف فساد أمركم ونحن تبع لهذا الرئيس فينبغى الا تختلفوا عليه ، وأنا أتحمل ذلك عنكم ان هو أنفذنى . . فخفضوا عليكم » .

أثارت هذه الكلمات دهشة الجميع اذ لم يكن أحد يتوقع أن يرى موظفا مدنيا يتقدم لانجاز القتل فى الوقت الذى أحجم فيه رجال مارسوا الحرب وألقوا رؤية الدماء واعتادوا سفكها ، فبادروا الى قبول عرضه وقالوا له : « أنت أحق بتولى كبره لخاصتك بالخليفة هشام ومملك فى الدولة » .

سرعان ما امتطى ابن أبى عامر جواده مستصحبا القائد بدرأ أحد موالى عبد الرحمن الثالث ومائة محارب وكوكبة اسبانية ويمموا جميعا ناحية قصر المغيرة فلما بلغوه أوقف ابن أبى عامر الحراس بالباب واقتحم هو بالآخرين الدار فلما صاروا فى ردهته دخل وحده البهو فوجد به الأمير فأفضى اليه بموت أخيه الخليفة الحكم المستنصر وخبر اعتلاء ابنه هشام العرش وقال له : « انهم خشوا خلافاك فأنفذونى لامتحان القصة » .

فامتقع الأمير حين سمع هذه العبارة وأدرك ما وراءها ، ورأى السيف مصلتا على رأسه فقال فى صوت مرتجف : « لقد استوجعت بالموت أخى ولكنى استبشرت بملك ابنه ، فأعلمهم أنى سامع مطيع ، وواف ببيعتى ، فتوثقوا منى كيف شئتم » .

ثم أقبل يستلطف ابن أبي عامر ويناشده الله في دمه ويسأله
المراجعة في أمره (١٠) .

وعطف ابن أبي عامر على شبيبته وخلاه لطيبة قلبه واعتقد وفاءه
فيما تعهد به ، وما كان له أن يتراجع عن قتله ان قضت بهذا القتل سلامة
الدولة وأيدته مصالحه الخاصة ، ولكنه لم يشأ أن يخضب يديه بدم رجل
لا يراه مدعاة خوف ومن ثم كتب للمصحفي منبثا اياه أنه وجد الأمير وفق
ما يهوى ولم يقف على ما يخشاه منه ، وعلى ذلك فانه يطلب منه الاذن في
الابقاء على حياة المغيرة، وبعث بهذه الرسالة الى الوزير مع أحد الجنند الذي عاد
اليه بعد قليل حاملا رد المصحفي وقد جاء فيه « غررتنا من نفسك فانفذ
لشأنك أو فانصرف نرسل سواك » .

أظهر ابن أبي عامر للمغيرة هذه المقالة التي تتضمن الأمر بقتله ،
ولما كان ابن أبي عامر راغبا عن مشاهدية هذا الحدث الفظيع الذي لا بد من
تنفيذه فقد غادر البهو وأمر رجاله بالدخول مكانه ، فعرقوا ما هو المطلوب
منهم ، فخنقوا الأمير وعلقوا جثته في حجرة مجاورة لمكان خنقه وأسروا
الى الخدم بأنه قتل نفسه حينما عرف أنهم مرغموه على الذهاب الى ابن
أخيه لقطع يمين الولاء له ومبايعته ، وسرعان ما أمرهم ابن أبي عامر بإدخال
الجثة الى البهو وتسوير الأبواب .

ولما أنجز ابن أبي عامر هذا العمل عاد الى الوزير المصحفي وأخبره
بتنفيذ أمره ، فشكره المصحفي شكرا حارا وأجلسه الى جانبه اظهارا منه
لعرفانه يده عليه ، ولم يلبث فائق وجودر أن أدركا أن المصحفي مسقطهم
وأنه أحبط مشروعهم فخافاه لاسيما جوذر الذي قال لصاحبه : « نصحت
لك بقتل المصحفي فلم تسمع مني » ، ومن ثم كانا مضطرين للتكفير عن
زلتهم فدخلوا على المصحفي معتذرين ذاكرين له انهما تنكبا محجة الصواب
وأن ما فعله هو الأمر الصحيح وانه خير مما فكرا فيه (١١) .

كانت الكراهية متبادلة بين الطرفين غير أن الوزير لم يكن قادرا في
هذه اللحظة على الانتقام منهما فتظاهر بتصديقهما وعاد السلام بينه
وبينهما (١٢) .

وفي صباح اليوم التالي ، أعنى الاثنين ٢ أكتوبر [= ٣ صفر] نودي
في أهل قرطبة بالشخوص الى القصر فما بلغوه حتى وجدوا الخليفة الغلام
في قاعة العرش وعلى كئيب منه المصحفي ، ورأوا فائقا على يمينه وجودر
على يساره ، أما بقية رجال الدولة ففي أماكنهم .

وتقدم القاضي ابن السليم فاستحلف أعمام الخليفة وأبناء عمومته ثم الوزراء فرجال القصر فالزعماء القرشيين فوجوه أهل العاصمة ، وتم ذلك بمساعدة ابن أبي عامر وبقية الجماعة ولم يكن ذلك بالأمر اليسير لوجود المعارضين ، غير أن ابن أبي عامر تمكن بطلاقة لسانه وقوة اقناعه من الوصول الى ما يشتهي ، فلم يبق على الرفض سوى اثنين أو ثلاثة ، وأثنى الجميع على هذه الخطة وامتدحوا قدرة صاحب دار الضرب في تلك الفرصة (١٣) .

* * *

كان كل شيء قد تم حتى هذه اللحظة وفق هوى المصحفي ورعظه ، ولم يبد في سماء المستقبل ما يعكرها فان في ظهور الشعب بمظهر الهادي الراضى بما تم دليلا على قبوله فكرة الوصاية التي كانت تفرعه ويكرهها ولا يهضمها ، لكن مظهره هذا لم يكن سوى خديعة اذ كان يخفي الحقيقة في سره خفاء النار تحت الرماد اذ راح يلعن في الخفاء أولئك الجشعين أصحاب القوة الذين استهلوا عهدهم بقتل المغيرة البانس ، كما راح الخصيان يعملان من جانبيهما على اثارة روح التذمر بين أهل العاصمة ، فلم تنقض غير فترة وجيزة حتى سرت هذه الروح بين الجميع وحتى أوشكت أن تضرم الثورة ، ولم يفت ذلك ابن أبي عامر لذلك بادر بالإشارة على المصحفي أن يهرب الأهلين بمظاهرة توظف فيهم ما كانت تنطوى عليه صدورهم من الحب لحكامهم وذلك بأن يظهر ليم الخليفة الصغير وأن يسقط عنهم بعض الخراج ، فاستصوب الوزير رأيه ، وعزم على أن يركب الخليفة في الناس فركب يوم السبت ٧ أكتوبر (= ٨ صفر) .

وجاء المصحفي في ذلك اليوم ، ولم يكن ينعت حتى هذه اللحظة الا بالوزير ، فلقب نفسه بالحاجب ، ورفع ابن أبي عامر - كما شاءت صبيح (١٤) - الى مرتبة الوزير ، فشارك المصحفي بذلك في ادارة دفة شئون الدولة ، وخرج هشام الثاني (بن الحكم) ممتطيا صهوة جواده ، واخترق شوارع العاصمة محاطا بثلة كبيرة من الجند وفي صحبته ابن أبي عامر ، ثم أذيع في نفس الوقت منشور سقطت بمقتضاه ضريبة الزيتون وكانت من الضرائب الممقوتة كما كانت عبثا فادحا لا سيما على كاهل الطبقات الدنيا ، وقد أدت هذه الأعمال - لاسيما الأخيرة منها - الى النتيجة المأمولة فنسب أنصار ابن أبي عامر اليه ابطال هذه الضريبة لما شاهده من حرصه على ذلك فتظاهرت العامة بالمظاهرات وأعلنته الصديق الحقيقي للفقراء (١٥) .

لكن على الرغم من ذلك فقد استمر الخصيان في بث الدسائس ، كما حمل جواسيس المصحفي اليه أن بعضا من الأشخاص المشكوك فيهم يفومون بدور الوسيط بين الخصيين وأصدقائهما في الخارج وانهم يدخلون ويخرجون عبر « باب الحديد » فأمر الحاجب بسده والا يكون دخول القصر الا عن الطريق المعروف « بباب السدرة » ، وزاد المصحفي على ذلك بأن طلب الى ابن أبي عامر أن يبذل قصارى جهده ويعمل غاية ما في وسعه حتى يقضى من حول فائق وجوذ من الخدم المسلحين من غير الخصيان والعييد .

وأخذ ابن أبي عامر على عاتقه القيام بذلك العمل الذي نجح فيه غاية النجاح اذ لم يقصر في وصل البعض بالمال يفدقه عليهم ، وبذل المواعيد لغيرهم حتى نجح في حمل خمسمائة منهم على التخلي عن خدمة الخصيين والانضمام اليه فعظم بأسه وضخم نفوذه حتى فاق ما كان لمنافسيه وذلك أيضا بفضل استطاعته الاعتماد على معونة قوات بني برزال الافريقية ، ولم يخف ذلك على جوذر فخاف مغبة الأمر فقدم استغفاه من بيزرته سائلا السماح له بمغادرة القصر الخليفى ، ولم يكن ذلك كله منه الا مناورة فقد ظن أنهم لن يستطيعوا الاستغناء عن خدماته ، واعتقد أنهم سوف يرفضون طلبه هذا ومن ثم تتاح له الفرصة لأن يملى على خصومه الشروط التي يريد لها لقاء استمراره في الخدمة ، لكن تبدد أمله هباء فقد قبل استغفأؤه ، فاشتد حنق أنصاره غضبا له واندفعوا يسبون المصحفي وابن أبي عامر ويتوعدونهما ، وكان أحد زعمائهم واسمه : « الفتى الصغير الدرى » قد عرف على الأخص بدلاقة لسانه ، لذلك أوعز المصحفي الى ابن أبي عامر بالبحث عن أية طريقة للتخلص منه ، ولم يكن ذلك صعبا أو مستحيلا ، ذلك أن الدرى كان صاحب الأمر في « سياسة » التي ضج أهلها بالشكوى منه لبطشه واستبداده بهم ، كما تدمروا من جنس عماله ، فاعتنم ابن أبي عامر هذه الفرصة ودس الى أهل « سياسة » من أفههم انهم سف يجدون في الحكومة انصافا لهم واستماعا لشكواهم ان هم رفعوها اليها ، فلم يترددوا عن الاقدام على ذلك ، وفعلا الذي أوحى به اليهم واذ ذاك صدر أمر خليفى للدرى بالتوجه الى دار الوزارة لمواجهة مواليه فلبى الأمر لكنسه ما كاد يصل الى هناك حتى هاله ما أبصر من العسكر الكثير ، وتبين الشر في وجوه القوم فأراد الرجوع سائلا فمنعه ابن أبي عامر وأمسكه من رقبته ، وجرت مشادة بينهما جذب فيها الدرى ابن أبي عامر من لحيته فدعى ابن أبي عامر الحند لتجدته ولكنهم لم يتحركوا احتراماً منهم للدرى .

أما بنو برزال الذين لم يكن عندهم مثل هذا التوقير له فقد هطموا
مسرعين للنداء وأمسكوا بالدرى وضربوه ضربا موجعا ، وأطارت ضربة
سيف رأسه فبادروا بحمله الى مخدعه حتى يطلع الصباح .

على أن الوزيرين توجسا شرا جسيما من جانب الصقالبة (١٦)
وأدركا أنهما غير قادرين على دفعه ، ومن ثم شرعا فى الحال فى تدبير
خطة حاسمة اذ بعثا الى فائق وأصدقائه أمرا خليفيا بمغادرة القصر ،
على أن يستدعيا بعد ذلك للتحقيق فى شأن خيانتهم ، وحكم عليهم
بدييات ضخمة جدا .

كان فائق معدودا أخطر الجميع وكان لا يزال شديد البأس ، لكنه
لم يلبث أن مات بعد قليل من نفيه الى احدى جزر البليار .

أما الخصيان الذين كانوا دونه خطرا فقد ظلوا فى وظائفهم ، وتقلد
أمر القصر والخدم واحد منهم اسمه « سكر » .

وعلى الرغم من أن الدافع على هذه الاجراءات كان الصالح الشخصى
الا أنه رفع ابن أبى عامر والمصحفى فى أعين العامة وقربهما منها وذلك
لشدة كراهية أهل قرطبة للصقالبة (١٧) الذين كانوا قد أسرفوا فى ايداء
الناس بصورة تمتى لهم الناس فيها الهلاك (١٨) .

زد على ذلك أن الحكومة - من ناحية أخرى - أثارت هممة قويه
بتقاعدها تجاه نصارى الشمال الذين رأيناهم يعاودون العداة وقت أن كان
الحكم الثانى (المستنصر) نهب المرض ، وبلغت الجرأة بهم أن طرقت
حملاتهم أبواب قرطبة ، ولم يكن المصحفى يعوزه المال ولا الرجال ، لكن
كانت تنقصه الدراية بشؤونه فسكت عن الدفاع عن البلد سكوتا أزعج
السلطانة صبغا لما جره ذلك من تقدم المسيحيين وغضب الأندلسيين ،
ففرغت الى ابن أبى عامر وأسرت اليه بمخاوفها ، وكان هو قد أسخطه منذ
وقت بعيد تهاون رفيقه وعجزه عن تصريف الأمور ، لكن ابن أبى عامر
طمأن خاطر السلطانة مؤكدا لها أنه واثق من ضرب العدو لو كان فى يده
المال وقيادة الجيش (١٩) .

ولما فرغ من حديثه هذا صارح رفيقه بأن الأمر سيفلت من يده عما
قريب من جراء تهاونه وتقاعده ، وأن الواجب ومصلحته الذاتية يحتمان عليه
القيام بعمل حاسم فى الحال ، فلما تبين المصحفى مكانة الصديق فى كلامه
جمع كبار الرجال وأشار بانفاذ جيش لمحاربة النصارى فاستصوب معظمهم

الأمر وعارضه نفر قليل ، لكن الذي شغلهم جميعا على وجه الخصوص هو موضوع قيادة الجيش ، فقال ابن أبي عامر :

« أبادر اليه على أن أختار من يخرج معي من الرجال ، وأتجهز لغزوة بمائة ألف دينار ، »

فاستكثر أحدهم ذلك القدر من المال فرد عليه ابن أبي عامر قائلا :
« خذ ضعفها وامض وليحسن غناؤك »

فأفحمه كلامه فوجم ولاذ بالصمت ، ثم اتفقت الكلمة على تسليم الى ابن أبي عامر وتجهيزه بما يحتاج اليه من المال .
واذ ذاك أخذ في اختيار من يصحبه من خيرة قوات الدولة ، ونهض بحملته في شهر فبراير ٩٧٧ م [= ٣ من رجب سنة ٣٦٦ هـ] وعبر الحدود وحاصر قلعة « لوس بانبيوس » (٢٠) المعروفة بحصن الحمامة وهي إحدى القلاع التي أعاد ترميمها راميرو الثاني بعد انتصاره العظيم في شلمنقة . ونجحت الحملة ودانت الناحية لابن أبي عامر فأصاب منها غنيمة ضخمة ثم انكفا عائدا الى قرطبة في منتصف ابريل [رمضان] ومعه أسرى كثيرون .

على الرغم من تفاحة هذه الغزوة الا أنها أدت بطبيعة الحال الى موجة من الفرح الشامل اجتاحت العاصمة التي كانت ترقب الأمور دون أن تميل الى هذا وذاك ، وحق لها أن تفرح فقد أصبح الجيش الاسلامي لأول مرة مهاجما ولقن العدو درسا قاسيا حتى لايعاود التفكير في ازعاج بال القرطبيين وهو أمر لم يكن بالتافه الضئيل في أعينهم ، ولم يكونوا يطلبون اذ ذاك فوق الذي أدركوه .

لكنهم اذا كانوا قد بالغوا في تقدير النجاح الذي أتيح لهم فانه من المستحيل تجاهل الأهمية الكبرى التي تمخضت عنها هذه الحملة بالنسبة الى ابن أبي عامر نفسه الذي أسرف في بذل ما عنده من المال بقصد المدد .

لقد بسط ابن أبي عامر يده طوال فترة الحملة فوسعت مائدته كل وافد عليه رغبة منه في استجلاب محبة الجيش (٢١) الذي ربما لم يكن واثقا تمام الثقة من ذلك القاضي يتولى قيادته الحربية ، ولكن نجحت خطته كل النجاح واطمأن الضباط والعسكر الى بشاشة ذلك الوزير وكرمه والى مهارة طبائخيه ، ومن ثم استطاع فيما بعد الاعتماد على اخلاصهم لقاء ابقائه على مكافأتهم لخدماتهم ، فكانوا له الجسد وكانوا له الروح (٢٢) .

الفصل الثامن

أصل المصحفي • سوء سياسته خوفاً من غالب صاحب
الثغر الأعلى • ابن أبي عامر يلس بين الرجلين ويحظى
بالتقدير عند كل منهما • انتصار ابن أبي عامر حربياً واثراً •
الخليفة يخلع المصحفي ويحل ابن أبي عامر مكانه • المصحفي
يسعى لمصاحبة غالب فيفسد ابن أبي عامر عليه سعيه ، ويتزوج
من أسماء بنت غالب التي يلقب بنى الوزارتين • تدهور
نفوذ المصحفي والقبض عليه وعل أهله • محاكمته ومصادرة
أمواله والتطاول عليه •

تضارب نفوذ المصحفي وابن أبي عامر

كان نجم المصحفي يتضائل كلما ازداد نجم ابن أبي عامر في التألق والسطوع ، ذلك أن المصحفي كان قليل الكفاءة ، وضيق المنبت ، وكان أبوه بربريا من اقليم بلنسية اختير لتأديب الحكم فرعى له الحكم ذلك فأدنى اليه ابنه منذ الصغر وحباه بعطفه وتقديره وزاد في تقديره في عينيه ما لديه من المواهب ، فقد كان أديبا وشاعرا حسن الخط (١) .

استكثبه الحكم أولا ثم جعله مديرا للشرطة فحاكما لجزيرة ميبورقة ثم استتوره (٢) لكنه لم يوفق أبدا في تكوين أصدقاء له اذ كان مجبوعا على تجبير المحدث النعمة ، كما أن غطرسته غير المحتملة جرحت كبرياء الأشراف الذين كانوا يحتقرونه .

والظاهر أنه لما تقلد الوزارة أراد تدارك هذه الهفوة لكنه سرعان ما عاد إليها والى ما كان عليه من تجبير (٣) ، كما أن عدله بين الناس كان موضع ريبة وهو عيب شائع لم يسلم منه غير قلة من الموظفين ، وربما كان القوم يتجاوزون عن اختلاساته الضخمة لو تقاسمها مع سواء بيد أنه احتجج كل شيء لنفسه : الأمر الذي لم يفره له أحد قط (٤) ، وأخذ عليه الناس استعماله أثاربه في ادارة دفة الأمور ووضع المناصب الهامة في يد أبنائه وإخوته (٥) . وقصارى القول انه كانت تعوزة صفات الرجل السياسي ، كما كانت تبهم عليه المسالك اذا خرجت الأمور التي يعالجها عن الاسلوب المألوف فلا يعرف اذ ذاك ما يبرم منها وما ينقض ، فكان هناك رجال يفكرون له وينفذون الخطط ، ومن ثم كان من الطبيعي أن يتوجه بالسؤال الى ابن أبي عامر .

لكن هل كان ابن أبي عامر يرضى أن يظل قائما طول المدى بدور الاخلاص والمشورة الذي يبتغيه المصحفي ؟

لقد شك أهل البصيرة في ذلك ، وأحسوا احساسا صادقا أن قد دنت
اللحظة التي يوشك فيها ابن أبي عامر أن يتقلد الوزارة حين عزم على إسقاط
المصحفي ، نشط لذلك مستعينا بالكتمان وإن لم يتبدل ظاهر مسلكه
إزاء صاحبه وزميله بل استمر على اظهار نفس الاحترام الذي كان
يظهره له فيما مضى ، ولكن أبطن مخالفته في كل شيء ، ولم يكن يدع
فرصة تمر دون أن يوجه نظر صبح عدم صلاحية المصحفي وبيان
أخطائه (٦) ٠٠ كل ذلك والمصحفي لا يشك فيه ولا يرى فيه ما يثير
مخاوفه بل يحسبه أوقى الأصدقاء له .

أما قاذف الرعب في قلبه فهو غالب صاحب الثغر الأدنى الذي كان
تفوقه عظيما جدا على الجند (٧) ، والواقع أنه كان يحقد على المصحفي
ويزدرجه ولم يحاول أن يخفي ازدرائه إياه ، زد على ذلك أن أكاليل
الفخر كانت تجلجل هامته لما خاضه من الممارك الجمة ، فلا عجب أن غاظه
أن يتولى الوزارة تكرة لم يسبق له أبدا أن جرد الحسام ، ومن ثم ذهب
للقول بأن هذه المرتبة إنما هي له (وليست للمصحفي) وأنه أحق
بها منه .

أما من الناحية النظرية فقد كان غالب خاضعا للمصحفي واستطاع
بخطته الماكرة أن يفهم الحكومة عدم تمكنها من الاعتماد عليه ، ذلك أنه
لم يستعمل الشدة في محاربة النصارى منذ موت الحكم مما يخالف تمام
المخالفة ما عرف عنه من العنف والحمية ، ومع أنه لم يجاهر بالثورة
ولم يطلب من النصارى مساعدتهم إياه إلا أن سلوكه فتح مجالاً للظن
بأن هذه الأمور واقعة عما قريب ، وفي هذه الحال يكون سقوط الوزير
أمرا لا مفر منه ، إذ كيف يكون في قدرة المصحفي مقاومة أحسن قائد في
الدولة وأمهر قوادها الذين قد ينضم اليهم أهل قشستالة
وليون ، ومن ثم فإن أعداء المصحفي الكثيرين كانوا لا يحجمون عن اغتنام
أول مصيبة تصيبه لخلعه من وظيفته وتجريده من ثروته بل والفتك به
أيضا .

لم يكن المصحفي من الغباء بالدرجة التي تعنيه عن رؤية الخطر
الذي يهدد ، وفي وسط هذا الغم سأل وزراء المشورة لاسيما ابن أبي عامر
فكان الجواب أن لابد له من أن يخطب ود غالب بأى ثمن فأقر هذا الجواب ،
وكان ابن أبي عامر الوسيط في ذلك فقال له ان الحملة الخارجة للفتح
تقدم الفرصة لمفاوضة حاكم الثغر الأدنى على شروط المودعة التي ينشدها
المصحفي .

كانت هذه هي أقوال ابن أبي عامر .

لكنه كان يسعى لأمر جله هدفه الأكبر غير مبال بالخطة التي ينتهجها لتحقيق أطماعه ، فهو لم يعمل على تهدئة ما بين الخصمين بل كان يفكر فيما يزيد الجفوة بينهما شدة والهوة اتساعا ، وراح يتصرف بما تمليه عليه ظروف لحظته ثقة منه بوقوف المصحفي الى جانبه وتأييده لمصالحه ، فكان يشنى - أمام صبح - الثناء الجميل على غالب ومواهبه العالية ، ومضى يكرر في كل لحظة أن المرء لا يستطيع أن ينسى أعمال هذا القائد وانه يجب السعي لضمه الى جانبها بتلقيبه بلقب يفوق كل الألقاب التي نالها .

وأنت حيل ابن أبي عامر أكلها فرقى غالب - بفضل نفوذ صبح - ولقب بنى الوزارتين (٨) ، وألقيت اليه قيادة جيش الحدود ، ولم يعارض المصحفي هذه الفكرة وسرعان ما بادر الى تحقيقها تصديقا منه لقول ابن أبي عامر انها أول خطوة في سبيل الوفاق بينهما .

وفي الثالث والعشرين من مايو (أول شعبان ٣٦٦ هـ) - أعنى بعد شهر واحد فقط من العودة الى قرطبة قام ابن أبي عامر - وقد وكل اليه تدبير جيش الحضرة - بحملته الثانية ، والتقى بغالب في مجريط وأقام على خدمته مظهرا له الاكرام والامتنان لأوامره ، واستماله اليه بما حدثه به من اعتباره المصحفي غير أهل أبدا لما فى يده ، وسرعان ما قام تحالف قوى بين القائدين اتفقا فيه على اسقاط المصحفي ، ثم عبرا الحدود وتم الاستيلاء على حصن « موله » (٩) فأصابا كثيرا من السبى والغنيمة ، وانتهت الحملة ، وأخذ كل واحد يستعد لمفارقة صاحبه ، وحينئذ قال غالب لصديقه الجديد :

« سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذكر جليل حتى ليشغل الناس السرور عن الخوض فيما تحدثه من قصة ، فايالك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتقلدها أنت منه » (١٠) .

فوعده ابن أبي عامر باتباع هذه الوصية ثم انطلق فى طريقه ميمما وجهه شطر قرطبة ، أما غالب فقد عاد الى مقر ولايته .

والواقع أن فخر هذه الحملة يعود الى غالب فهو الذى دبرها ورسم جميع خططها ، وما كان ابن أبي عامر غير تابع له فى تنفيذها حربيا ، كما كان حريصا على ألا يعارض أبدا قائدا مدربا كهذا القائد الذى تمرس بشئون الحرب ورضع أفوايقها .

ولما كان غالب في الوقت ذاته يرمى الى تضخيم شأن حليفه الصغير
لانه كان ينظر الى الامور من ناحية اخرى فقد يادر بالكتابة الى الخليفة
منبثا اياه بما جاء به ابن آبي عاسر من الاعاجيب ونسب اليه وحده الفضل
فيما حازه العسكر من انتصارات باهرة ، وان الواجب يقضى أن يكافأ
مكافأة قيمة .

جاء هذا الخطاب الذي تسلمه البلاط قبل عودة ابن آبي عامر بخير
النتائج ، مما ترتب عليه أن وكلت اليه شئون العاصمة بدلا من المصحفي ،
اذ كيف يتأتى لأحد ما أن يرفض مثل هذا الطلب لقائد رد المغير
مرة ثانية .

ولم يقتصر الأمر على أن يكون غالب وحده مصدر الثناء على
ابن آبي عامر بل امتدح أبطال هذه الحرب جميعهم كفاءة العامري
ومواهبه .

أضف الى هذا أنه لم يكن في استطاعة المصحفي أن يرقى الى ما رقى
اليه لولا نفوذ أبيه ، واذا خلينا جانبا سلوكه الشخصي فان المصحفي
برهن على عدم أهليته لما نيظ به (١١) ، والواقع أنه كان شديد الجشع
الى درجة أن الرشوة التافهة كانت كافية لدفعه الى اغماض عينيه عن
كل شيء وعن أفظع الجرائم ، ولقد صدق الناس فيما قالوه من انه لم يعد
للشرطة وجود في قرطبة فاندفع للصوص - سواء أكانوا من علية الناس
أم سفلتهم - الى السلب ، وأصبح الناس يسهرون لياليهم مخافة أن
يصابوا وهم في دورهم بمن يقتحمها عليهم قاتلا أو سارقا ، وقصارى
القول أن سكان أى مدينة من مدن الحدود كانوا أكثر أمنا واطمئنانا على
نفسهم من سكان البلد الذى يقيم فيه الخليفة .

عاد ابن آبي عامر يحمل أمر التولية ويرفل في رداء الشرف الذى
خلع عليه ، وقصد توا الى مقر الرياسة فوجد محمد بن المصحفي جالسا
تحوطه مظاهر الأبهة الجديرة بمن هو فى مكانته ، فأطلعه على أمر
الخليفة وأخبره أن فى استطاعته الانصراف ، فانصرف حزينا وأطاعه
مهموما .

لم يكد ابن آبي عامر يستقر فى عمله الجديد حتى اتخذ جميع
الاجراءات العظيمة لاقرار الأمن فى العاصمة ونشر الطمأنينة ، فافهم
الشرطة أنه سوف يضرب بيد من حديد لا تعرف الرحمة كل من تحدثه
نفسه بالشر ، لا ينظر فى توقيع العقوبة الى مكانته ، وهدم بأقصى ضروب
الشددة والعنف ان مدوا أيديهم للرشوة ، فلما أذركوا مكانة الصدق فى
قوله وأيقنوا صلابة عوده وتأكد لديهم أنه متعقبهم بعينه النفاذة اهنموا

بأداء واجباتهم ، وسرعان ما تبينت العاصمة أثر ذلك بعد فترة وجيزة ، فقلت السرفات قلة واضحة ، وندر الاغتيال ندرة بالغة واستقر النظام واستتب الأمن بعد غياب ، وأمن الناس على نفوسهم فناموا هادئين وعين الشرطة لاننام عن رعايتهم ، وضرب ابن أبي عامر لهم مثلاً حياً في أنه كان جادا كل الجد حين قال انه لن يرفق بأحد ما ، فقد ارتكب ابنه جرماً ووقع فى أيدي الشرطة فأمر أبوه بجلده ، وما لبث هذا الشاب أن مات بعد قليل من توقيع الجدل عليه .

وانحسرت الغشاوة عن عيني المصحفي ، ذلك أن خلق ابنه الذي تم في غيبته وبغير مشورته لم يترك له مجالاً للشك في رياء ابن أبي عامر .
لكن ما الذي يستطيع أن يفعله لمحاربتة ؟

لقد أصبح خصمه أشد قوة منه وأعظم شكية اذ كان يستطيع الاعتماد على السلطانة التي يقال انه كان عشيقها ، كما كان يستطيع الاعتماد على العائلات الكبيرة التي ترتبط بالأمويين برباط الولاء ، وهي الأسر التي ورث فيها الأبناء عن الآباء وظائف البلاط ، والتي تؤثر أن ترى على رأس الدولة رجلاً من بيت عريق النسب (١٢) ، يستطيع الاعتماد على الجيش الذي أخذ ميله اليه يزداد شيئاً فشيئاً ، كما يستطيع الثقة بسكان العاصمة الذين شكروا يده عليهم في إعادة الأمن الى نصابه .
فهل يستطيع المصحفي مقاومة ذلك كله ؟ كلا !!

والسبب في ذلك أنه لم يكن يعتمد الا على أفراد قلائل ربطوا أنفسهم بمصيره وربط هو نفسه بهم ، ومع هذا فهو لا يستطيع الاعتماد كثيراً على تأييدهم له ، وهكذا كان الصراع بين طرفين غير متكافئين ، أعنى بهما العبقرية والذكاء الضحل ، ولقد عرف المصحفي ذلك ، وعرف أن لم يعد له غير سبيل واحد للأمان هو التودد الى غالب مهما كلفه ذلك الأمر من ثمن .

كاتب [المصحفي غالباً] وأسرف في بذل العهود الزاهية له وهي عهود تشتاقها النفس ، وأراد تدعيم تحالفهما فخطب ابنته أسماء لابنه عثمان ، وجازت الحبله على القائد وتناسى حقه على الوزير وقبل عروضة ووافق على الزواج المقترح ، وبادر المصحفي الى اتمام عقد الزواج ، فلما علم ابن أبي عامر بكل هذه المكائيد التي تفسد عليه جميع مشاريعه بادر الى العمل بكل ما وسعه الجهد لاجباط خطط زميله وافساد مشاريعه ، فحث ذوي النفوذ من رجال البلاط على تأييده فأجابوه وكتبوا الى غالب لافساد ما أراده المصحفي ، كما كتب ابن أبي عامر الى غالب يقول له

ان المصحفي ينصب الشراك لضربه ، ويحیی في نفسه جميع الأحقاد المترسبة في صدره ضد هذا الوزير ، ورجاه أن يبقى على الوفاء على عهوده التي قطعها على نفسه في الحملة الأخيرة •

أما عن الزواج المقترح فقد قال انه ان يرد لا ينته رجلا شريفا فها يجوز أن يزفها الى رجل محدث نعمة ، لكن اليه هو ذاته ، يقصد بذلك ابن أبي عامر نفسه •

آمن غالب بأنه كان مخدوما في المصحفي فأفهمه أن يعتبر الزواج الذي يتباحثون فيه غير ذی موضوع ، وما وافى شهر أغسطس أو سبتمبر ٩٧٧ م (= محرم ٣٦٧ هـ) حتى عقد عقد جديد زفت به أسماء الى ابن أبي عامر •

* * *

ما وافى يوم ٨ سبتمبر حتى نهض ابن أبي عامر بحملة جديدة زحف بها الى طليطلة وضم قواته الى قوات حميه الجديد ، وافتتحا حصنين من حصون النصارى وبعض ضواحي شلمنقة ، ثم عاد فلقب بنى الوزارتين ، ورفع راتبه الى ثمانين دينارا فى الشهر ، ولم يكن الحاجب يتناول أكثر من هذا المرتب •

وفى الموعد المضروب لعقد الزواج قام الخليفة - أو بمعنى أدق أمه التي لم يظهر عليها شيء من الغيرة رغم ما كان يتقوله القوم من أنها عشيقة المنصور ، وأرسل الخليفة الى غالب يستدعيه للحضور الى قرطبة مع ابنته أسماء ، فلما قدم أكرمت وفادته وأضاف الى ألقابه لقب « ذى الوزارتين » وهو نفس لقب الحاجب (١٣) • الذى كان حتى هذه اللحظة للمصحفي وحده ، فكان جمع غالب لهذين اللقبين جاعلا إياه أكبر رجال الدولة ، وغدت له الصدارة فى الاحتفالات ، فكان يجلس والى يمينه المصحفي ، وابن أبي عامر الى يساره (١٤) •

وافق زواج ابن أبي عامر من أسماء بنت غالب عيد رأس السنة الميلادية الذى كان المسلمون يشاركون فيه أيضا ، وتحمل الخليفة نفقات العرس لها ، وكانت الموائد بالغة الأبهة ، ولم يسبق للقرطبيين أن رأوا مثل هذا الموكب الفخم الذى أحاط بالعروس أسماء حين غادرت القصر الخليفة ميممة قصر زوجها •

وأيا كان الدافع له على هذا الزواج فقد كان زواجا موفقا ، اذ كانت أسماء فتاة مهذبة بارعة الجلال استولت على فؤاد زوجها الذى كان يؤثرها على نساته الأخريات •

أدرك المصحفي - منذ أن رد غالب طلبه - أنه مشرف على الضياع ووجد نفسه منبوذاً قد انفض عنه جميع صنائعه والتفوا حول خصمه يحرقون البخور بين يديه وهم الذين كانوا يرون الشرف كل الشرف في مصاحبته إذا مشى إلى القصر ، أما اليوم فإنه يغدو إليه حين يغدو إليه وحيث لا رفيق له ، وتلاشت سبطوته ، وأصبحت الأمور - جليلها وصغيرها - تدبر من غير علمه ، وهكذا رأى هذا الشيخ التعس اقتراب العاصفة فانتظرها في صبر وإن كان كارها لها ، ثم وقعت النكبة المروعة أسرع مما كان ينتظر ففي يوم الاثنين ٢٦ مارس ٩٧٨ م [رجب ٣٦٧هـ] (١٥) صرف هو وأبنائه وأبناء أخوته عن كل ما بيدهم من الوظائف والأعمال ، وصدر الأمر بالقاء القبض عليهم والتحوط على أملاكهم حتى تثبت براءتهم من الاختلاس الذي رموا به (١٦) .

وعلى الرغم من أن هذا الحادث لم يكن مفاجأة للمصحفي إلا أنه كان ذا أثر كبير ووقع شديد على نفسه فقد تأثر كل التأثر فأرقه ضميره الذي أثقلته وضايقته المظالم التي ارتكبها خلال حياته الطويلة ، فلما أخذ في توديع أسرته قال لها : « هذا وقت اجابة الدعوة ، وأنا أرتقبه منذ أربعين سنة » ، فلما سألوه عما يعنيه من قوله العجيب هذا قال لهم :

« رفع علي أحدهم أيسام عبد الرحمن وسعى به إلى فأشرفت على أعماله ، قال أمره إلى ضربه وتغير نعمته وإطالة حبسه ، فبينما أنا قائم ذات ليلة إذ أتاني آت فقال لي : أطلق فلانا فقد أجبت دعوتك فيك ، ولهذا أمر أنت لا بد ملاقيه ، فانتبهت مدعورا وأحضرت الرجل وسألته إحلائي فامتنع علي ، فاستحلفتني على اعلامي بما خصني به من الدعاء فقال : نعم ، دعوت الله أن يميتك في أضيق السجون كما أعمرتني حقة ، فعلمت أنه قد وجبت دعوتك ، وندمت حيث لا ينفع الندم ، وأطلقت الرجل ولم أزل أرتقب ذلك » (١٧) .

سبق المتهمون إلى سجن الزهراء وبها سجن الحكومة ، وكان القائد هشام المصحفي ابن أخى الوزير قد أذى ابن أبي عامر لما ناله من الفخر بانتصاراته في الحملة الأخيرة ، لذلك كان هشام أول ضحية لغضب هذا الرجل القوى ، فما كاد يبلغ المطبق حتى قتل (١٨) .

ووقف المصحفي أمام مجلس الدولة فحاكموه محاكمة طال أمدها ولم تعوزهم الأدلة على ادانته ورميه بالاختلاس أيام وزارته ، وقضوا بمصادرة أملاكه ، وبيع قصره الفخم بضاحية الرصافة (١٩) بالمزاد ، وانتهالت الاتهامات بعضها على بعض عليه واستمع إليها الوزراء الذين أرتبوا: !!-ترب إلى ابن أبي عامر ، ورمى المصحفي بكل جريرة ، فاستصفوا

كل ما ملكته يمينه ، ومع ذلك لم يسلم من التشديد عليه والمضايقة
يلقاهما من جانب كبار رجال المحاكمة الذين كانوا يظنون أن لزال
عنده شيء (٢٠) .

ولما وقف آخر مرة أمام قضااته كان تقدم السن وطول الحبس
وشدة الغم قد تعاونت كلها في الحط من قواه حتى كاد أن يعجز عن قطع
المسافة من الزهراء الى حيث كان قضاته ، كل ذلك وحارسه لا يدف عن
الشدّة عليه وحثه على الاسراع حتى لا يطول انتظار المجلس له ، واذ ذاك
قال له الشيخ العجوز : « رفقا بى يا بنى فستدرك ما تحبه وتشتهيه ،
وياليت أن الموت يباع فأغنى سوته حتى يرده من قد أطال عليه حومه » ،
ثم أنشد (٢١) :

لا تأمنن من الزمان تقلباً ان الزمان بأهله يتقلب
ولقد رأيت والليوث تخافنى وأخافنى من بعد ذاك الشعب
حسب الكريم مذلة وهنالة الا يزال الى ثميم يطلب (٢٢)

فلما دخل على قضاته انتحى زاوية من المجلس دون أن يحيى أحداً
منهم ، فصاح به الوزير محمد بن حفص بن جابر الذى كان يتودد الى
ابن أبى عامر وهنزلف اليه : « بشس الأدب لأدبك ، أما خييت !! » فلم يقل
المصحفى شيئاً ولازم الصمت .

فعاد ابن حفص يلومه ويعنفه فقال له المصحفى : « يا هذا جهلت
المبرة فاستجهلت صانعها ، وكفرت اليد فقصدت الأذى ولم ترهب
مقدمها ، ولو أتيت نكرا لكان قيرك أدرى .. لقد نسيت الأيادى الجميلة
والمبرات الجليلة » .

فبهت ابن حفص لهذه العبارة لكنه سرعان ما تمالك نفسه وقال :

« هذا هو البهت بعينه ، وأى أياديك الغر مننت بها ؟ » .

ثم أخذ يعدد له أموراً أنكرها عليه فلما فرغ من كلامه رد عليه
المصحفى قائلاً : « هَذَا ما لا يعرف ، وألحق الذى لا يرد ولا يصرف رضى
القطع عن يمينك ، وتبليغى لك الى منك » .

فأقسم محمد بن حفص على بطلان هذه التهمة ، فانفجر الشيخ
غاضباً وقال : « أنشد الله من له علم بما أذكر الا اعترف به فلا ينكره » .
فقال الوزير ابن عياش : « قد كان بعض ما ذكرته يا أبا الحسن ،
وغيرك أولى بك وأنت قيما أنت فيه من محنتك وطلبك » .

فقال المصحفي : « أخرجني الرجل فتكلمت ، وأجوجني الى ما به
أعلمت » .

وكان هناك وزير آخر هو ابن جهور حاضرا المجلس يستمع للنقاش
في تفزز لم يخفه ، وعلى الرغم من كراهيته للمصحفي وسعيه في اهلاكه
إلا انه عرف أنه ينبغي على المرء أن يرضى حرمة خصمه لاسيما اذا استدل ،
وكان ابن جهور من أسرة قديمة بارزة كأسرة الحاكم نفسه فتكلم وقال
لابن جابر في صوت صاحب السلطة الذي ينطقه طول ممارسته إياها :
« أو ما علمت يا ابن جابر أن منكوب السلطان لا يسلم على أوليائه لأنه
ان فعل ألزمهم الرد ، فان فعلوا أحاق بهم من سخط السلطان ما يخشى
ويخاف ، وان تركوا الرد أسخطوا الله وتركوا ما أمر به الله تعالى (٢٣)
فصار الامسآك أحسن ، ومثل هذا لا يخفى على أبي الحسن » ، فخجسل
محمد بن حفص بن جابر من هذا الدرس القاسى واعتصم بالصمت ،
بينما ارتسمت فرحة باهتة في عيني الشيخ التعس .

وتابع القوم محاكمتهم إياه وراحوا يكيلون له كل جديد من التهم
ليسلبوه كل ما لديه فصباح بهم : « والله قد استنفدت ما عندي من الطارف
والتلبد ، ولا مطمع لى فى درهم ، ولو قطعت أربا أربا » .

فتركوه وأمروا بصرفه الى محبسه (٢٤) .

أخذ المصحفي منذ هذا الوقت يتنقل بين الحرية والأسر ، لكنه كان
تعيسا فى كلا الحالين ، وبدى ابن أبى عامر وكأنه يستأنس بازعاجه
ويرتاح الى مضايقته ، وانه لمن الصعب على انسان أن يفسر الكراهية
الشديدة التى أبداهها تجاه هذا الرجل العادى الذى لم يعد له شىء من
الحول ولا القوة ، وانما كل ما يمكن به تبرير هذا المسلك أنه لم يسامحه
على الجريمة التى اضطره الى ارتكابها وهى قتله المغيرة .

ومهما يكن الأمر فقد كان يستصحبه معه أنى ذهب دون أن يعطيه
ضرورياته القصوى .

وقد قص أحد كتابه أنه رأى المصحفي أثناء احدى الحملات راقدا
بالليل قرب فسطاط سسيده وابنه عثمان الى جانبه يسقيه خليطا من
الدقيق والماء العكر (٢٥) ، وهو كل ما تمكن عثمان من الحصول عليه .
لقد أمضى الأسى المصحفي وأضعفه اليأس فنفس عن ألمه وشحونه
بقصائد رقيقة رائعة النسج ، بديعة الديباج ، ومع أنه قال ذات يوم
لحارسه انه يتشهى الموت الا أنه كان شديد التعلق بالحياة .

وكما كانت تنقصه راحة العقل والشجاعة أيام حكمه فقد كانت تعوزه كذلك الكرامة أيام محنته ، فقد كان يسعى لاستعطاف (٢٦) « الثعلب » سعياً نزل به الى أحقر الأساليب ، وحدث ذات مرة أن توسل الى ابن أبي عامر أن يكل اليه تاديب أولاده ، ولم يكن المنصور ليتصور أن المرء قد تهون عليه كرامته فيتدنى الى هذا الدرك ، وظن أن المصحفي يريد الاحتيال عليه وقال : « ان هذا الرجل يريد أن يحط من قدرى عند الناس لأنهم طالما رأوني بدهليزه خادما ومسلما ، فكيف يروونه الآن بدهليزي معلما » (٢٧) .

ظل المصحفي خمس سنوات يحيا حياة محزنة قاسية ، فلما ظهر تشبثه بالعيش رغم تقدم العمر ورأوا ما ألم به من النكبات الكثيرة ، وعرفوا فيه كراهيته للموت أوردوه هم حياض الردى فقتلوه خنقا أو سما اذ لم يتفق الكتاب العرب على الصورة التي مات بها (٢٨) ، فلما علم ابن أبي عامر بهلاك خصمه العجوز عهد الى اثنين من عماله بدفنه ، كان أحدهما كاتبه (٢٩) محمد بن اسماعيل الذي قص لنا الحادث كما شاهدناه .
فقال :

« نظرت اليه ولا أثر فيه ، وليس عليه شيء يواريه غير كساء خلق لبعض البوابين ستره به ، فدعي له محمد بن مسلمة بغاسل فغسله - والله - على فرد باب اقتلع من ناحية الدار ، وأنا أعتبر من تصرف الأقدار ، وخرجنا بنعشه الى قبره وما معنا الا امام المسجد المستدعي للصلاة ، وما تجاسر أحد على النظر اليه ، وان لي في خبره لسانا ما سمع بمثله طالب وعظ ، ولا وقع في مسمع ولا تصور لحظ ، وقفت للمصحفي في طريقه أيام تهيئه وأمره ، أروم أن أناوله قصة كانت به مختصة فوالله ما تمكنت من الدنو منه بحيلة لكنافة موكبه ، وكثرة من حف به ، وأخذ الناس السكك وأقواء الطرق عليه ينظرون اليه ويسلمون عليه ، حتى ناولت قصتي بعض كتابه الذين نصبهم على جناحي موكبة لأخذ القصص » وانصرفت ونفسي من الشرق بحاله والغصص » (٣٠) .

الفصل التاسع

ظهور ابن أبي عامر واستبداده بالأمر • الصقالبة يدبرون ما يشيننه ويقدم في السلطنة صبح • جوذر الحصى يتآمر علي قتل هشام بن الحكم لكنه يفشل • تحديد إقامة الشاعر الرمادى المتآمر • الغيرة من ابن أبي عامر • حركة مناهضة الفلسفة وكتبها • محاولة واد ملكات هشام • انشاء مدينة الزاهرة شرقى قرطبة • منع هشام من تصريف أمور الدولة • ابن أبي عامر ينظم الجيش • تفكيره فى التخلص من غالب • بلجين الفاطمى • الاكثار من البربر فى الجيش الأندلسى • استخدام النصارى فيه • مصرع غالب • الزحف على ليون • تلقيب ابن أبي عامر بالنصور • فتكه بجعفر أمير زاب •

ابن أبي عامر صاحب الأمر في الحكومة

رفع ابن أبي عامر الى مرتبة الحجابة (١) يوم عزل المصحفي والقبيضي عليه ، ومنذ ذلك اليوم أخذ هو وحموه (٢) يتقاسمان السلطة العليا فيما بينهما ، وبلغ هو من القوة درجة خيل للناس معها أن ليس هناك أحد يقادر على مقاومته ولكنه قووم اذ كانت لا تزال في الوجود تلك الجماعة التي كانت تود أن تسنوق الخلافة الى رجل آخر غير هشام بن الحكم الثاني ، وكان جوذر هو روح تلك الجماعة ومخربها ، وذاعت أشعار الهجاء التي كان الناس يتناشدونها في شوارع قرطبة تحت سمع الشرطة ، ولم يكن ابن أبي عامر ليتسامح أبدا في أتفه كلمة تشير الى أي اتصال قد يكون بينه وبين السلطانة حتى لقد أعدم مغنية دفعها سيدها - ترغيبا للوزير في شرائها - الى انشاد أغنية تتغنى فيها بصبح (٣) .

على ان الناس كانوا ينشدون في ذلك الوقت نفسه في شوارع البلد أمثال هذا الشعر :

اقترب الوعد وكان الهلاك وكل ما تخذره قد أتاك
خليفة يلعب في مكتب وأمه (٤)

ولو اقتصر الأمر على النيل من البلاط لما كان الخطر جسيما ، لكن جوذر جرؤ على الذهاب الى أبعد من ذلك حين اتفق مع القاضي عبد الملك بن المنذر على تدبير مؤامرة ترمي الى قتل الخليفة الشاب واحلال طفل صغير مكانه من أحفاد عبد الرحمن الناصر يعرف بعبد الرحمن بن عبيد الله ، وساهم في هذه المؤامرة نفر من القضاة والفقهاء والادباء من بينهم الشاعر الأندلسي الأملئ الرمادي (٥) الذي كان يحقد على ابن أبي عامر حقدا مريرا لصداقة خالصة بينه وبين المصحفي ، كما كان أحد الرجال القلائل الذين ظلوا على الولاء له حتى بعد أن قلب له الدهر ظهر المجن ، فكان صدره مضطرب بالرغبة الملحة في الثأر له ، ومن ثم أرسل هنجوه في ابن أبي عامر شعرا لاذعا قاذعا (٦) .

اعتمد المتآمرون في نجاح مشروعهم على مشاركة الوزير زياد بن أفلح لهم وهو الذي كان يشغل اذ ذاك ولاية الشرطة بالعاصمة ، فاتفقوا معه على الساعة واليوم اللذين ينفذون فيهما خطتهم ، ووكلوا أمر قتل الخليفة (الصغير هشام بن الحكم) الى جوذر الذي وان لم يعد من رجال البلاط الا أن مكانته السابقة كانت تبيح له الدخول على الخليفة ، واتفق شركاء الجريمة على استخلاف عبد الرحمن (بن عبيد الله بن الناصر لدين الله) .
حالما يفرغون من الفتك بالخليفة هشام .

فلما وافى اليوم المضروب لهذا الجرم غادر زياد بن أفلح القصر الخلفي عائدا الى مسكنه الواقع في أقصى المدينة مستصجبا معه جميع رجاله ، وطلب جوذر الأذن بالثول بين يدي الخليفة فناله ، فلما كان في حضرته استل خنجره وهم بطعنه لولا أن تداركه أحد الحرس واسمه (أحمد بن محمد) بن عروس وكان بالبهو اذ رمى بنفسه على القاتل وحال بينه وبين اتمام فعلته ، ونشب بينهما عراك تمزقت خلاله ثياب جوذر ، فاستعان ابن عروس بالحرس فهبوا مهطعين وأمسكوا بالخصي ، فلما سمع ابن أفلح بفشل المؤامرة بادر بالقدوم الى القصر فلامه ابن عروس على تناقله وصارحه بوثوقه من أن له يدا في الجريمة التي كان يراد ارتكابها ، لكنه أخذ يبرئ ساحته محتجا باخلاصه للسلطان ، وأراد دفع الشكوك التي حامت حوله فألقى القبض في ساعته على المشتبه فيهم (٧) ، وفيهم جوذر نفسه وزج بهم في سجن الزهراء .

واقْتيد المتآمرون الى المحاكمة ولم يلبث أن صدر الحكم بادانة كبيرهم ، لكن القضاة لم يبينوا على وجه التحديد نوع القصاص الذي ينبغي توقيعه ، بل اکتفوا بالاشارة الى الآية القرآنية الكريمة (٨) (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض) ، وتفسير القصاص في هذه الآية واضح جدا .

وتركت المحكمة للخليفة اختيار العقوبة التي يريد انزالها بهم . واذ ذاك قام زياد ابن أفلح - وكان أحد القضاة - فبذل قصارى جهده . لاستعادة ثقة ابن أبي عامر به ، فكان أول من طلب توقيع أشد القصاص قسوة على الجناة وظفر رأيه بالتأييد ، فصلب عبد الملك بن منذر ، وقتل عبد الرحمن الذي أرادوا سوق العرش اليه (٩) .

أما جوذر فاننا نجعل ما قرروه بشأنه وان كانت كل الظواهر تحمل على الظن بأنه قتل مصلوبا ، أما الرمادي فكان مصيره أهون قليلا وان لم

يحسد عليه ، اذ كان ابن أبي عامر يرغب في نفيه لكنه استجاب لالتماسات
أصدقاء الشاعر فأذن له بالاقامة في قرطبة اقامة مقيدة قاسية ، ونودي في
البلد بالعقاب الشديد ينزل بكل من يحاول التحدث معه ، وبذلك حكم على
هذا الشاعر بالصمت الدائم المطبق ، وأصبح منذ ذلك الحين - على حد
تعبير أحد الكتاب العرب - كالميت وسط الناس الذين تزدهم بهم شوارع
قرطبة العاصمة (١٠) .

برهنت هذه المؤامرة للوزير ابن أبي عامر على أن أشد الناس مودة
وحنفا عليه انما يوجدون على وجه الخصوص بين صفوف أولئك الذين
درسوا الى جانبه الآداب وعلم الكلام والفقه فهل كان ذلك نتيجة
غيرتهم منه ؟ .

الرد على هذا بالايجاب من ناحية ، اذ ليس ثم من ينكر أن ابن أبي
عامر كان وياهم منذ قليل على قدم المساواة ورفيقهم في الدرس ، ثم سمى
به جده سموا عظيما لم يطقه الفقهاء ورجال الدين لما اضطرم في صدورهم
من الحسد له والحقده عليه ، ولم يقتصر الامر على ذلك بل لقد كرهوا منه
أيضا ما رمى به لديهم على وجه الخصوص من نزعات دينية معينة ، ذلك
أن الرجال المتخرجين في مدرسة معلمي قرطبة كانوا شديدي التعلق بالاسلام
اللهم الا اذا استثنينا بعض المفكرين الجريئين والشعراء المقلقين ، فكانت
النتيجة أن عد ابن أبي عامر - أن ظلما أو حقيقة - مسلما مغموز الايمان ،
وان لم يوجد الجريء على مواجهته بالتعنيف على اعتناقه الأفكار الحرة
واعتداده التام بممارستها ، وتهامس الناس فيما بين بعضهم والبعض الآخر
بكلفه بالفلسفة وأخذة نفسه - سرا - بدراسة هذا الفن والانكباب عليه ،
مما كان في ذلك الحين تهمة شنيعة .

ولم يخف الأمر على ابن أبي عامر .

وسواء أكان فيلسوفا أم لم يكن فالواقع الذي لا مراء فيه أنه كان
قبل كل شيء رجلا سياسة لذلك أراد أن يجرد أعداءه من ذلك السلاح
الرهيب الذي يشهرونه في وجهه للنيل منه ، فصمم أن يفهمهم أنه المسلم
الكامل ، وذلك بأصدار قرار اصلاحى خطير اذ بعث في طلب العلماء والوجهاء
أمثال العسيلي (١١) وابن ذكوان (١٢) والزبيدي (١٣) وأدخلهم مكتبة
الحكم الثاني الضخمة وأفضى اليهم بعزمه على طرح الكتب التي تعالج
الفلسفة والتنجيم وغيرهما من العلوم التي نهى عنها الشرع ، وعهد اليهم
بالقيام بتطهيرها بأنفسهم ، وسرعان ما أقبلوا في حماسة وجد على عملهم

حتى اذا فرغوا منه قام الوزير فرمى بالكتب الدنسة فى النار ، كما أحرق بعض كتبه الخاصة ليفهمهم شدة تعصبه للملة (١٤) .

لم يكن هناك من هو أعلم من المنصور ابن أبى عامر بما انطوى عليه هذا العمل من همجية ، لكن مهما يكن الأمر فقد نجح فى استمالة العلماء والعامّة الى جانبه فعدوه منذ ذلك الحين عدو الفلاسفة (١٥) وعضد الدين ، كما أنه راح ييسر رعايته على الفقهاء ويكلؤهم بعطفه ويغمرهم بصلاته (١٦) ، ويصغي الأصفاء التام الى عظاتهم وان طالبت ، ويوليهم صبرا جبيلا أصبح به مضرب المثل وقدوة للغير (١٧) . زد على هذا أنه نسخ القرآن بيده واستصحب معه هذه النسخة كلما خرج من سفر (١٨) .

ولما ذاع خبر استقامته دينيا : الأمر الذى لم يجرؤ أحد ما على نقضه لقيامه على أساس متين وجه همه الى الخليفة الذى أدرك أنه سوف يكون مبعث خوف له كلما تقدمت به الأيام وبلغ مبلغ الرجال .

كان الخليفة هشام (بن الحكم) - كما شهد مؤدبه الزبيدي قد أظهر فى طفولته من آيات الذكاء ما جعل الآمال منوطة به ، فكان يعنى فى سر عجيب كل ما يلقيه عليه أستاذه ، كما وهبه الله دقة فى الحكم على الأمور قل أن تتوفر (١٩) لغلام فى مثل عمره ، ولكنه اذ تبوأ العرش وهو حدث فقد عكفت أمه والمنصور على التناوب على اخماد ملكاته ، ولا نستطيع الجزم بأنهما أذاقاه لذة الحرّيم منذ وقت مبكر ، لأنه على الرغم من أنه مات بلا ولد مما يرجح هذه المسألة الى حد ما الا أنه ليس بين أيدينا دليل ينهض على حقيقة ذلك الوضع . غير أن الثابت المؤكّد عندنا هو أنهما بذلا كل جهدهما لآخاماد ذكائه بارهاقه بالتكاليف الدينية وأدخلا فى روعه أن انصرافه للنعناية بمهام الحكم يصرفه عن القيام بفرائض العبادة ويحول بينه وبين ما فيه نجاته ، ونجحا الى حد ما فى خطتهما هذه فانصرف الخليفة الغلام هشام الى أعمال البر يوليها اهتمامه ، وأخذ نفسه بمداومة النظر فى التلاوة والعكوف على الصلاة والصيام (٢٠) ، غير ان التفاتاته الذهنية كانت مبعث خوف لابن أبى عامر الذى خشى ظهور أحد ما - أن آجلا أو عاجلا - سيسيطر على روح السلطان الشاب ويصره حقيقة موقفه ، ورأى أن الخطر سيظل قائما طالما بقيت أمور الدولة تعالج فى القصر الخليفى نظرا لتردد كثير من القادة والموظفين عليه . ومن ثم فلا يبعد أن تنهيا فرصة اتصال الخليفة بواحد من هؤلاء يكون طموحا وماهرا فيعمل على اسقاط الوزير فيتّم ذلك فى طرفة عين ، فكان لا بد من درء هذا الخطر ، لذلك صمم المنصور أن تعالج شئون الدولة خارج القصر ، ففكر (٢١) أن ينشئ فى شرقى قرطبة وعلى ضفاف الوادى الكبير مدينة جديدة وبنى بها قصرا رائعا

لنفسه ودورا لغيره من كبار الموظفين ، ولم ينقض عامان حتى كمل البناء وتم انشاء المدينة التي سميت بالزاهرة (٢٢) ، وما لبث الوزير أن نقل إليها [سنة ٣٧٠ هـ] . (٢٣) دواوين الحكومة ، وسرعان ما ضمت الزاهرة بين أكنافها جمهورا لجبا من السكان ، كما أن الطبقات العليا في المجتمع غادرت قرطبة والزهراء لتكون على مقربة من المكان الذي تصدر عنه جميع ما يجديهم وينفعهم ، كما ازدحمت المدينة الجديدة بالتجار ، وما مضى غير قليل من الزمن حتى اتصلت أرباض الزاهرة بأرباض قرطبة . (٢٤) .

منذ ذلك الحين أصبح من اليسير مراقبة الخليفة والحيلولة بينه وبين المشاركة في أعمال الدولة ، ومع ذلك فلم يدع المنصور فرصة تمر دون أن يبذل جهده لعزل هشام عزلة تامة ، فلم يقنع بالحرس يحوطه أو العيون تراقبه بل سور القصر وخندقه واشتد في إيذاء من تحدثه نفسه بالاقتراب منه فأصبح هشام بن صبيح في الواقع أسيرا إذ لم يكن يؤذن له بمغادرة قصر ، ولم يكن يفوه بكلمة أو يأتي بحركة الا ويعلم بها الوزير في لحظته ، ولم يكن الخليفة يدري عن أمور الدولة سوى ما يرغب الوزير في إيقافه عليه ، ولما كانت الحال تتطلب شيئا من الحيطة فقد اشاع ابن أبي عامر أن السلطان الشاب اسلم اليه مقاليد الأمور ليخلى بين نفسه وبين التفرغ لواجباته الدينية حتى اذا أدرك الوزير نجاحه فيما عمل لم يعد يشغل نفسه به بل لقد منع التفوه باسمه (٢٥) .

أراد ابن أبي عامر ان يضيف الى كل هذه الأمور امرا جديدا لا يقل أهمية عما سبق ألا وهو عزمه على إعادة تنظيم الجيش .

كان الدافع له في هذا التنظيم عاملان : أحدهما قومي والآخر شخصي . بحث . إذ أراد أن يجعل اسبانيا في مقدمة الدول الأوربية الهامة ، كما رمى الى التخلص من غالب وهو قسيمه في الحكم ، ولما كان الجيش في وضعه الراهن يتألف جله من عرب اسبانيا فانه لم يكن يصلح لواحد من الهدفين اللذين يرمى الى تحقيقهما .

كان التنظيم الحربى (٢٦) من غير شك عملا شاقا لأن زعماء الجند كانوا يجمعون معظم القوة في أيديهم ، ولم يكن رهن أمر الحاكم سوى شردمة قليلة من العسكر ، غير أنه كان في استطاعة السلطان دعوة جماعات من الجند تضاف الى قوات الحدود التي كانت أحسن العسكر ، الا أن العادة جرت على ألا تستدعى هذه القوات الأخرى الا عند الضرورة القصوى لأنهم

لم يكونوا يؤلفون جزءا من الجيش الدائم (٢٧) الذى لم يكن قط كبير العدد فكان لا يتجاوز خمسة آلاف جندى رغم أن الفرسان كانوا اذ ذاك الجانب الهام من الجيش وعليهم يتوقف مصير المعارك .

ويستصغر ابن حوقل الرحالة شأن فرسان الأندلس ويشير الى أن عجزهم عن استعمال السروج جعلهم يتركون أرجلهم تتدلى فى استرخاء ، ثم يعود ابن حوقل فينسب الفضل فى معظم انتصارات الجيش الأندلسى الى حيله أكثر منها الى أقدامه ، غير أنه ينبغى أن نتذكر أن الشبهة تحوم حول شهادة هذا الرحالة اذ ربما كان الدافع له على التهوين من شأن هذا الجيش هو رغبته فى اغراء مولاة الخليفة الفاطمى بالاقدم على فتح شبه جزيرة اسبانيا ، الا أنه لا جدال فى أن مزاعمه كانت تنطوى على شيء من الصحة ، ولا ريب أن عرب الأندلس أخذوا يفقدون بالتدريج روحهم الحربية بسبب ما كانوا يتقبلون فيه من البلهنية وما توفر لهم من طيب المناخ . لذلك لم يكن لابن أبى عامر أن يطمع فى الحصول على فتوحات باهرة بمثل هذا الجيش .

زد على لك عدم ثقته فى امكانية الاعتماد عليه فى محاربة غالب الذى لم يكن نم مفر من وقوع القتال بينهما ، واذا كان غالب قد أسدى اليه كل النفع باسقاطه المصحفى الا أنه أصبح عديم الجدوى له بل غدى يراه عقبة فى طريقه ، ذلك لأن غالبا لم يكن يستصوب أعمال الوزير فكان شديد المعارضة له لا سيما فى موضوع عزل الخليفة ، فقد أحفظه وأحزنه - وهو مولى لعبد الرحمن الناصر والملكى المتحمس - أن يرى حفيد مولاة الصغير محاطا كالأسير وكالمجرم ، لذلك اعتزم ابن أبى عامر التخلص من حميه كراهية منه لمعارضته اياه لكن كيف يتسنى له أن يبلغ غايته هذه ؟

لم يكن غالب كالمصحفى رجلا يسهل التغلب عليه وازاحته بمكيدة تدبر له فى البلاط ، بل كان قائدا بارزا فلو جاهر غالب برغبته فى تخلص الخليفة من طغيان وزيره لانضم اليه أغلب الجيش الذى كان رجاله يعبدونه ، وهذا أمر لم يكن مجهولا عند ابن أبى عامر الذى رأى أن وصوله الى هدفه يحتم عليه ايجاد قوات أخرى مرتبطة به وحده دون سواه ، وبعبارة أخرى كان فى حاجة الى جند أجنبى ، وأدرك ان هذا الجند تمده به المغرب واسبانيا النصرانية .

لم يكن ابن أبى عامر مهتما حتى هذه اللحظة بالمغرب لما تحقق لديه - منذ اقامته به كقاضى قضاته - ان ضم بلاد بعيدة وفقيرة كهذه البلاد انما

يُثقل كاهل اسبانيا أكثر مما ينبغي ، فنهج نهج المصحف من قبل حين اكتفى باقامة حامية في سبتة وتموينها . أما بقية الاقليم فقد وكل أمر ادارته الى أمراء من أهله باذلا جهده على الدوام لايجاد روابط مختلفة (٢٨) ، ولا شك أن هذه السياسة التي سلكها ابن أبي عامر كانت من وجهة النظر الأندلسية سياسة طيبة حازمة ، لكنها كانت خطرا على المغرب ، فقد قام بلجين (٢٩) - عامل الخليفة الفاطمي على افريقية - بغزو هذه البلاد في ٢٦مارس ٧٩ م (= ٢٤ شعبان ٣٦٨ هـ) حينما رآها مهجورة من قواتها الأصلية ، وتوالت انتصارات بلجين بعضها في أثر بعض وساق أمامه أولئك الأمراء الذين اعترفوا بسلطان الخليفة الاموي عليهم ففروا الى ما وراء سبتة للبحث عن ملجأ لهم ، غير أن انتصارات بلجين هذه لم تعرقل مرامي ابن أبي عامر بل أجدت عليه اذ ضاقت الحال بأولئك البربر المتكدسين في سبتة ولم يعرفوا ما يعملون للجيش بعد أن سلبهم المغير بلجين جل ما يملكون ، فكان هذا فرصة طيبة للوزير الأسباني للحصول مرة واحدة على عدد وفير من الفرسان البارعين فلم يتوان عن اغتنامها ، وكتب الى البربر يؤكد لهم توفيره الحياة الرغيدة لهم ويمنيهم بالرواتب الكبيرة اذا أحبوا المجيء الى اسبانيا فاستجابوا زرافات لسعوته ، وقام أحد أمراء زاب - واسمه جعفر (٣٠) - [بن علي ويعرف بابن الأندلسي] - الذي طارت شهرته منذ زمن بعيد لجرأته واجتذبتة وعود الوزير الخلابه فقدم الى الأندلس في ستمائة فارس ، ونهج غيره من البربر نهجه ، وعدل ابن أبي عامر في كرمه نحوهم رغم ما هم عليه من ضعف اللسان العربي ، حتى لقد كان يبههم عليهم الاقصاد عما يريدون قوله بغير لسانهم (٣١) .

وعرف ابن أبي عامر في هؤلاء البربر الشراهة والطمع فلم يتركهم بلا عطاء ولو لم يلحوا عليه بالسؤال ، وذلك لتقديره العظيم لمعرفهم الذي أولوه اياه . كما دفع عنهم الاستخفاف والازدراء بهم ، ونهى عن السخرية بمحاولتهم الكلام بالعربية لانهم كانوا يتكلمون في العادة لغتهم الأصلية التي لا يفهم العرب منها كلمة واحدة (٣٢) ، وحدث في ذات يوم وهو يستعرضهم أن اقترب منه ضابط بربري يسمى « وانز مار » وراح يحدثه في عربية ركيكة قائلا : « مالك ، ولك . . . اسكن فاني في الفحص » - فقال : « ما ذاك يا وانزمار ؟ » فقال ما معناه : « اخرجتني عنها والله نعمتك . أعطيتني من الضياع ما انصب على منها من الأطعمة ما ملأ بيوتى وأخرجني عنها ، وأنا بربري مجوع حديث عهد بالبؤس ، أنراني أبعد القمح عنى ؟ ، ليس ذلك من رأيي » .

فتلطف به ابن أبي عامر وقال له : « لله درك من فد عيسى ، لعلك في شكر النعمة أبلغ عندنا وآخذ لقلوبنا من كلام كل أسدق متزيد ، وبلغ متقن » .

ثم التفت الى الأندلسيين المحيطين به وقد شرقوا من الضحك من لهجة البربري وقال لهم : « كذا فلتشكر الأيادي وتستندم النعم ، لا ما أنتم عليه من الجحود الملازم والتشكى المبرح » وسرعان ما أمر لوانزمار بسكن فخم (٣٣) .

★ ★ ★

كذلك أمدته أسبانيا النصرانية بالجند الرائع ، ولما كان الليونيون والقشتاليون والنفاريون قد جبلوا على الطمع وضعف الوطنية فسرعان ما تهافتوا على ما عرضهُ العربي عليهم من الرواتب الضخمة حتى اذا ما أصبحوا مرؤوسيه وانخرطوا تحت رايته تفانوا في خدمته وزاد تعلقهم به ما أحاطهم به من الرفق واللين ، وما حباهم به من الكرم والانصاف الذي تجلى في حسن معاملته لهم ، وهو ما حرّموا منه في وطنهم .

لم تكن عناية ابن أبي عامر بالجند لتقف عند حد ، فقد جعل الأحد يوم راحة لكل جيشه على اختلاف دياناتهم ، كما كان يقف على الدوام الى جانب المسيحي في خصامه مع المسلم (٣٤) ، فلا عجب اذا كان تعلق النصراني به لا يقل عن تعلق البربر به ، واذا كان هؤلاء وهؤلاء - كما يقال - من خاصة ملكه فقد أنكروا جميعا من أجله وطنهم ونسوه وان لم تعد الأندلس لهم وطنا جديدا ، اذ كانوا يجدون مشقة بالغة في فهم لغتها ، بل كان موطنهم تلك المعسكرات ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يأخذون رواتبهم من خزينة الدولة الا أنهم لم يكونوا يعملون في خدمتها بل لحساب ابن أبي عامر الذي يتعلق به مستقبلهم وعليه اعتمادهم ، لذلك كانوا رهن اشارته ضد من يريد .

* * *

وفي الوقت الذي رجحت فيه كفة الأجانب في الجيش بدل الوزير الماهر نظام العسكر الأسباني الذي كانت قواته موجهة من قبل ضد الحكومة ، ذلك أن القبائل كانت تؤلف - منذ زمن بعيد - كتائب وجماعات وفرقا ، فأبطل ابن أبي عامر تلك العادة ووزع العرب على الكتائب المختلفة دون نظر الى القبيلة التي ينتسب اليها الفرد منهم (٣٥) ، ولو حدث مثل هذا العمل قبل ذلك بقرن من الزمان حين كان العرب يعتدون بالروح القبلية لأدى الامر الى انقلاب جذري في قانون التجنيد ، لأنه كان يجرّد الاشراف من بقايا قوتهم الأخيرة مما كان يؤدي بلا شك الى استياء شامل ، ولربما

أشعل فتنة عامة • أما الآن فقد أصبح الزمن غير الزمن ولم يعد تنفيذ ذلك الأمر بالعسير إذ لم تبق سوى ذكرى غابرة لفكرة التقسيم القديم الى قبائل ، وجهل كثير من العرب الى أى القبائل ينتسبون ، وعمت بلبلة أياست النسابة من الرأى الصحيح •

حقيقة أن الخليفة الحكم الثانى (المستنصر) الذى كان يعيش الماضى الذى يعرفه تمام المعرفة قد أمر باحياء فكرة الأنساب التى ترجع الى عصر آخر وسأل النسابة اختبارها ، كما اشتهدى أن ينسب كل عربى الى قبيلته (٣٦) غير أن جهوده كانت عكس السياسة الصحيحة فاصطلمت إذ ذاك بروح العصر وفشلت لأن الميل كان متجها - الا فى النادر - الى التوحيد العام ومزج الأجناس بعضها ببعض ، وكان ابن أبى عامر فى قضائه على نظام التقسيم القبلى القديم متما لما عمله عبد الرحمن الثالث ، ذلك العمل الذى يتفق والنسور الوطنى •

كان ابن أبى عامر يستعد للحرب فى الوقت الذى يظهر فيه المودة لحميه [غالب] الذى لم يكن بالرجل الساذج ولا الذى ينقصه فهم مرامى صهره بما أدخله من التغييرات الجسمية على الجيش فصمم على مناضلته ، وفى ذات يوم وجدا معا على برج أحد الحصون بالحدود فانهاى غالب على المنصور تقريبا ولم يقصر الآخر فى الرد عليه ، واشتد الجدل بينهما حتى تحول الى عنف فصاح غالب وهو فى سورة غضبه به « يا كلب أنت الذى أفسدت الدولة وخربت القلاع وتحكمت فى الدولة » ثم استل سيفه من غمده ورماه به وهو مزبد غضبا ، فسعى بعض الضباط فى أبعاده فلم تتم الضربة وأصيب ابن أبى عامر بجرح من حميه فاشتد خوفه فقفز من أعلى البرج غير انه تعلق أثناء سقوطه بنتوء بارز كان فيه الإبقاء على حياته •

لم يعد ثم مندوحة عن الحرب بعد هذا الحادث ولم يتأخر اعلانها حين جعل غالب من نفسه المدافع عن حقوق الخليفة فانخرط تحت لوائه جماعة من الجند ، كما مد له الليونيون يد المساعدة وجرت معارك كثيرة مات فيها جماعة من أبرز رجال البلاط •

فلما كانت آخر وقعة بينهما - وقد أوشكت على الانتهاء وأوشك جيش ابن أبى عامر على الفرار إذ بغالب الواقف أمام فرسانه يصطدم رأسه بقربوس سرجه ويجرح جرحا مميتا ويسقط لساعته من على جواده ، واذ ذاك لاذ جنده وحلفاؤه النصارى بالهرب إذ لم يجدوه بينهم ولم يعرفوا

مكانه ، مما أتاح لابن أبي عامر نصرا مؤزرا ، ثم وجدت جثة غالب بين القتلى وذلك (٣٧) سنة ٩٨١ م (المحرم ٣٧١ هـ) .

لم يقنع ابن أبي عامر بهذا الفوز العظيم الذى ناله بل أراد معاودة الكرة لمعاقبة الليونيين بسبب مساعدتهم خصمه ووقوفهم الى جانبه ، كما أراد أيضا أن يبين لمواطنيه أنه اذا كان قد أحدث جيشا عظيما فبخما فانه لم يوجد له لمصالحه الخاصة وحدها بل ولخير البلد أيضا ، فخرج غازيا لمملكة ليون وأذاقها مر النكال وجعل مقدمة جيشه بقيادة أمير يجرى فى عروقه الدم الملكى ويسمى بعبد الله ويلقب بالبطرشك (٣٨) فاستولى على سمورة فى يوليو ٩٨١ م (٣٧١ هـ) ونهبها .

ولما عجز المسلمون عن ارغام الحصن على التسليم أسرفوا فى الانتقام فجعلوا كل ما حول البلد طعمة للنار والدماء وقتلوا بحد السيف أربعة آلاف مسيحي وأسروا مثلهم ، حتى لقد بلغ بهم الأمر أن خربوا فى منطقة واحدة ألفا من القرى والدساكر الآهلة بالسكان وهدموا الأديرة والكنائس ، وحينذاك قام راميرو الثالث - ولم يكن جاوز العشرين من عمره - فحالف غرسية فرناند قومس قشتالة ، كما حالف ملك نفاة (٣٩) ، وسار ثلاثتهم ضد ابن أبي عامر واحتدم القتال عند روطة (٤٠) فى الجنوب الغربى من شنت منكس غير أنهم هزموا أمامه واستولى المسلمون على حصن شنت منكس العظيم وأسروا قلعة اذ أعملوا القتل فى غالبية السكان والجنس (٤١) .

وعلى الرغم من ان الشتاء كان قد دنى الا أن ابن أبي عامر أمر بمواصلته الزحف على ليون فهب راميرو لصدده ودفعه وكان الحظ أكبر بسالته فنجح فى دفع المسلمين وأجبرهم على التراجع الى معسكرهم حيث كان المنصور على عريش مرتفع يشاهد المعركة ويصدر أوامره ، فلما رأى فراد رجاله احتدم غيظا وتفجر مرجل غضبه ونزل عن كرسيه ثم خلع خوذته الذهبية وافترش الأرض ، فأدرك جنده مرماه اذ كانت تلك عادة قائدهم كلما أراد اظهار سخطه حين لا يحسنون النزال ، كما أن رؤيتهم رأسه وهى عارية كان له أبلغ الأثر فى نفوسهم فخرجوا لتراجعهم ، ورأوا تلاقى لك مهما كلفهم فشدوا على العدو شدة عنيفة حتى ولى الادبار هربا منهم فتبعوه بسيوفهم حتى بلغوا أبواب ليون وكادوا أن يحتلوها لولا أن باغثتهم عاصفة هوجاء صحبها الغمام والبرد فأرغمتهم على التخلي عن المعركة (٤٢) .

عاد ابن أبي عامر الى قرطبة لحلول فصل الشتاء فلقب بالمنصور وهو لقب لم يكن الا للخلفاء وهو ما سنطلقه عليه من الآن فصاعدا ، ثم أراد أن يحظى بكل مراسم الشرف الخاصة بالسلطان فطلب أن يلثم يده كل شخص يأتي الى حضرته : وزيرا كان أو أميرا ، فأجيب الى ذلك ، بل لقد ذهب الناس الى أبعد من ذلك فكانوا يقبلون أيدي أطفاله الذين مازالوا بعد في المهمل (٤٣) .

وخيل للناس أنه بلغ من القوة مالا مزيد عليه ، فقد أصبح بلا منافس، لكنه لم يقنع بذلك كله بل كان يرى ان هناك رجلا آخر يمكن أن يكون خطرا عليه في قادم الأيام ان لم يكنه حتى الآن ، ونعني به القائد (٤٤) جعفر أمير زاب الذي أدى له الخدمات الجلبي أيام محاربتة لغالب ، غير أن شرف مولده وشهرته الحربية أثارا غيرة المنصور وأشرف البلاط فصمم ابن أبي عامر أن يقوم بعمل يلقي على شمس مجد جعفر كلفة لا تمحي ، اذ أصدر تعاليمه السرية الى التجيبي أبي الأحوص معن وعبد الرحمن بن مطرف بالخلاص منه ، ثم دعى جعفر الى مأدبة أدبها له فلباها ، وكانت وليمة فخمة زاد في بهجتها النبيذ الرائع الذي راح يديره الساقى بلا حساب لجعفر، وكان الوزير المنصور يقول للساقى : «أسقها أعز الناس علي» ، فاحتار الساقى من المقصود من هؤلاء السادة بكلام مولاه المنصور فصاح به : « ناولها الوزير جعفر أبا أحمد ، عليك لعنة الله ، فاستخف هذا الاطراء جعفرا ووقف رافعا الكأس وشربها حتى الثمالة ، ونسى آداب اللياقة فرقص وسرت النشوة في الندامى الآخرين فتمثلوا به .

وطالت الوليمة حتى أذن الليل بالرحيل ، حتى اذا هموا بالانصراف كان السكر قد بلغ بجعفر مداه حتى لم يعد يعي شيئا ، فلما مضى قاصدا داره في صحبة قليل من الخدم اذا بنفر من العسكر التجيبيين يهاجمونه في الطريق ويقتلونه وهو لا يملك الدفاع عن نفسه ، وكان ذلك يوم ٢٢ يناير سنة ٩٨٣ م [= ٣ شعبان سنة ٣٧٢ هـ] ، وأرسلوا رأسه ويمناه الى المنصور الذي ادعى جهله بقاتليه ، وان تظاهر بالحزن العميق لصرعه (٤٥) .

الفصل العاشر

النزاع بين راميرو وابن عمه برميديو • الاستعانة
بالمسلمين • ليون ولاية اسلامية • المنصور يستعد لمهاجمة
فرنسا • استضافة ابن الخطاب له ولعسكره • سقوط
برشلونة في يد المسلمين • تغلب المنصور على الكونت
بوريل • التفاته شطر المغرب • ابن كنون وتقربه الى
الفاطميين ، ثم ارساله عسقلجة لمحاربة المنصور في المغرب •
مقتل ابن كنون وغضب الناس من اجله • اتهام عسقلجة
بالتآمر وقتله • المنصور يحاول تهدئة الثوار ضده بزيادة
التوسعة في المسجد • تجدد الحرب ضد ليون • انتصار
الجيش الاسلامي واستسلام سمورة • المنصور يشك في رجاله
وولده عبد الله • عبد الرحمن التجيبي يثير الابن علي ابيه
ويتحالفان ضده • كيف تغلب المنصور على خصومه • عبد الله
بن المنصور ينضم الى غرسية • استسلام غرسية وتسليم
المنصور لولده عبد الله • خروج المنصور لمهاجمة برميديو •
نهاية ابن البطرشك •

الأمور تنازم في وجه المنصور

سواء عرف الناس حقيقة مصرع جعفر أو جهلوا فان انتصارات المنصور الجديدة سرعان ما أنستهم هذه الجريمة . فقد استغل المنصور لصالحه مشاكل ليون الداخلية اذ هلك راميرو الثالث لفشله في حملة ٩٨١ م ، ولم يعد كبار رجال مملكته يرغبون في أمير لازمه سوء الطالع (١) ، كما جرحهم في كبريائهم بتمسكه بالسلطة المطلقة ، فشبت ثورة في جليقية وصمم أشرفها على أن يسوقوا العرش الى ابن عم راميرو وهو برميدو وتوجوه في الخامس عشر من أكتوبر ٩٨٢ م (ربيع الثاني ٣٧٢ هـ) في كنيسة شنت ياقب ، وسرعان ما نهض راميرو لمحاربتة وجرت بينهما معركة في Portella de arenas الواقعة على حدود ليون وجليقية ، لكنها لم تكن معركة حاسمة على الرغم من عنفها (٢) ، وأخيرا بدأ الحظ يواتي شيئا فشيئا جيوش برميدو الثاني الذي اغتصب من يد خصمه في مارس ٩٨٤ م مدينة ليون (٣) ، فخاف الأخير أن تدور الدائرة عليه فحاول أن يجد ملجأ في أرباض أشتورقة ، ثم اضطر أن يسأل المنصور مساعدته لقاء اعترافه بسيادته عليه (٤) ، غير أنه مات بعد قليل في ٢٦ يونيو ٩٨٣ (٥) ، فحاولت أمه أن تحل مكانه معتمدة على عون المسلمين (٦) ، لكنها سرعان ما أبصرت انهيار آمالها ، ذلك أن برميدو أدرك أنه سوف يلاقى صعوبة كبرى في التفاهم مع الأشراف الذين يرفضون الاعتراف به ولم يجد مندوحة له من أن يفعل ما فعله راميرو فاستنجد بالمنصور الذي وضع تحت امرته جيشا اسلاميا ضخما استطاع بمعونته اخضاع جميع مملكة ليون لسلطانه ، لكنه لم يعد منذ ذلك الحين الا قائدا للمنصور ، كما رابط في بلدته رهط كبير من القوات الاسلامية لمراقبة الأمور ومساعدته (٧) .

حين رأى المنصور أن ليون غدت ولاية تدفع الجزية له عزم على توجيه جنده لمحاربة قطلونيا التي كان الخلفاء يراعونها حتى ذلك الوقت خوف قيام الفرنسيين بمحاربتهم ان هم هاجموا نظرا لانها كانت تابعة لفرنسا ، غير أن المنصور لم يبالي بهذا الأمر لمعرفته بأن فرنسا كانت اذ ذاك نهب الفوضى الاقطاعية ، وأن الأمراء القطلونيين لا يتوقعون أي

مساعدة تأتيهم من جانبها (٨) ، وحشد المنصور حشداً كثيفاً من الجنود غادر بهم قرطبة في الخامس (٩) من مايو ١٩٨٥ ومعه قرابة أربعين من خاصته من الشعراء الذين يرفدهم ويصلهم للتغني بانتصاراته (١٠) ، وتمر في طريقه بالبيرة وبياسة ولورقة حتى بلغ مرسية فاتتضاه ابن الخطاب الذي لم يكن من عمال الحكومة بل صاحب أملاك شاسعة تدر عليه دخلاً كبيراً ، ولما كان من الموالى الأمويين فالأرجح أنه قوطى الأصل ، وربما كان أصله يرجع الى « تدمير » الذي عقد مع المسلمين وقت الفتح معاهدة في صالحه مؤداها أن يحكم هو وابنه أثنانا جيلد Athana Gild شيه مستقلين على ولاية مرسية (١١) .

ومهما يكن الأمر فقد كان ابن الخطاب رجلاً ميسوط الكف وافر الثراء ، فلم يكتف باستضافة المنصور وحاشيته على نفقته الخاصة ثلاثة عشر يوماً (١٢) بل استضاف كذلك جميع الجنود من الوزير الى النسطرى ، واهتم بنفسه بمائدة المنصور ولم يحدث قط أن قدم في مرة طعاماً قدمه من قبل ، أو آنية سبق أن وقعت عليها العين ، حتى لقد أدى به الاسراف ذات يوم لأن يهيبه المضيفه حماماً من ماء الورد ، ومع أن المنصور ألف حياة الرفاهية الا أنه ذهل لما أظهره ابن الخطاب فلم يقصر في الثناء عليه ، وأظهر شكره اياه فأمر باستقاط جزء من الخراج عليه ، وألزم الولاية القوامين على ادارة الاقليم برعايته والا يقصروا قط في تلبيسه وغبائه (١٣) .

غادر المنصور مرسية الى قطالونيا حيث نازل الكونت بوريل (١٤) فلما كان الأربعاء أول يوليو (= ١٠ صفر) وصل الى برشلونة وهاجمها ، وفي يوم الاثنين التالي (= ١٥ صفر سنة ٣٧٥ هـ) وقعت المدينة في يده (١٥) فحكم السيف في رقاب الكثيرين من جندها وأهلها وأسر من بقى حياً ، وخرّب البلد وأضرم فيه النيران (١٦) .

ما كاد المنصور يؤوب من هذه الحملة التي هي الثالثة والعشرون في عداد حملاته (١٧) حتى وجه همه شطر المغرب ، وما كان يعيى من الحرب أبداً بل كان دائم التطلع الى فتوح جديدة .

لقد بقى المغرب سنوات عدة في يد بلجيين عامل الخليفة الفاطمى على أفريقية ، أما في المدة الأخيرة من حكم هذا الأمير وبعده موته (١٨) في مايو ٩٨٤ م فان الشيعة الأموية أخذت في التحرك ، كما قامت عدة بلدان مثل فاس وسجلماسة وطرحت عن نفسها نير الفاطميين ، وحينذاك قام أمير مغربى كاد المرء أن ينسأه وأعاد التمثيل على المسرح ذلك هو ابن كنون الادريسي (١٩) الذى انضم - كما قلنا - فى أيام الحكم الثانى الى صف مغالب ثم استنزل الى قرطبة وبقى بها حتى بعث به المصحفى الى تونس بعد

أن عاهده الا يرجع الى المغرب أبدا ، غير أن ابن كنون لم يكن يهتم قط بالوفاء بعهده فقد قصد بلاط الخليفة الفاطمي (٢٠) وأخذ يلاحقه عشر سنوات كي يساعده على رده الى ما كان عليه ، فلما نجح في الحصول على المال والرجال عاد الى موطنه الأصلي واشترى بالمال سواعد الكثيرين من زعماء البربر له وأوشك أن تكون له السيادة : الأمر الذي كان المنصور يهمل للحيلولة بينه وبينه ، فاتخذ لهذا الحادث تجهيزاته الضرورية فأرسل الى بلاد المغرب عددا كثيرا من الجند بقيادة ابن عمه (٢١) عمرو بن عبد الله بن عسقلجة) ، ولم تطل الحرب اذ كان ابن كنون ضعيفا الى درجة لا تمكنه من مقاومة خصمه فما لبث أن استسلم له بعد أن أمنه عسقلجة على حياته وأذن له في الإقامة بقرطبة كسابق عهده .

لم يكن أدنى شك في أن قطع العهد لرجل شديد الجشع موغل في الخيانة كهذا الرجل انما هو أمر ينطوى على عدم التبصر ، وقد يتساءل المرء عما اذا كانت لعسقلجة الصلاحية في قطعه له ، ويتركنا المؤرخون العرب في ظلام في هذه الناحية ، الا أن سيرة المنصور تحملنا على الظن بأن عسقلجة قد تجاوز حدود سلطته ، لأن الوزير أعلن أن ليس لعهد قيمة ، ولما حمل ابن كنون الى الأندلس ضرب عنقه ليلا في الطريق بين الجزيرة الخضراء وقرطبة وذلك في شهر سبتمبر أو أكتوبر ٩٨٥ (= جمادى الأولى ٣٧٥ هـ) .

ومع أن ابن كنون كان طاغية مستبدا يشعر باللذة العارمة حين يطرح من لديه في الحبس من ذروة صخرة النسر الا أن طريقة قتله أثارت عطف الجميع عليه ، فقد كان شريفا من نسل النبي [عليه الصلاة والسلام] ، ومن ثم كان التجاسر على حياة مثله خطيئة شنعاء في أعين هذه الجماعات حتى ان الجند الغلاظ الذين قتلوه امتثالاً للأمر الصادر اليهم ساورتهم الريبة واشتد بهم الخوف حين هبت فجأة عاصفة طرحتهم أرضا فاعتبروها نذيرا وعقابا أنزلته السماء بهم ، وانقسم الناس طائفتين : واحدة عدت عمل المنصور هذا كفرا وأخرى اعتبرته خيانة ، اذ كان عليه الوفاء بالعهد الذي قطعه قائده كما لو كان هو نفسه الذي قطعه ، وتجاهر الناس بهذه التهم رغم شدة المنصور عليهم ، وظهر الاستياء بصورة جلية حتى لم يعد في قدرة المنصور التغاضي عن هذه الروح السائدة وبدأ يخشى العاقبة كل الخشية ، ويستطيع المرء أن يتصور مبلغ الغضب الذي وصل اليه حين علم بأن عسقلجة هو أكثر القوم سخطا عليه ، وأنه تجاسر أمام جنده فصرخ بما انطوى عليه عمل ابن عمه من الغدر ، لذلك كان لا بد له من أن يدفع ثمن هذا التهور غاليا ، فبادر المنصور الى مطالبته بالعودة الى اسبانيا لساعته

واتهمه بالغدر والخيانة العظمى وأدانه وقتله (٢٢) في أكتوبر
أو نوفمبر ٩٨٥ م (= جمادى الثانية سنة ٣٧٥ هـ) .

وتعالت الصيحات اذ ذاك من جديد ٠٠٠ وأشفق الناس من نكد
طالع ذلك الشريف وعلى مصير عسقلجة أيضا ، ورأى القوم أن المنصور
لا يحجم عن البرهنة من جديد على استعماله العنف مستهينا بكل
العلاقات ووشائج الدم والقربى وذلك بقتله ابن عمه .

أما عشيرة ابن كنون المفجوعة في آمالها التي عقدتها على هذا الأمير
وقد أوشك أن يصبح حاكم المغرب كله فقد عملت أقصى وسعها لاثارة
الفتنة ، فلما اتصل بالمنصور خبر المكيدة التي يدبرونها له أمر بنفيهم
جميعا فأخرجوا من اسبانيا والمغرب معا ، غير أن أحدهم - وهو ابراهيم
بن ادريس - أصمى قلب الوزير قبل رحيله بسهم أراشه من قصيدة طويلة
له لهج بها الناس وراحوا ينشدونها وفيها يقول :

فيما أرى عجب لمن يتعجب	جلت مصيبتنا وضاق المذهب
انى أكذب مقلتى فيما أرى	حتى أقول : غلظت فيما أحسب
أ يكون حيا من أمية واحد	ويسوم ضخم الملك هذا الأحذب (٢٣)؟
تمشى عساكرهم حوالى هودج	أعواده : فيهن قرد أشهب
أبنى أمية أين أقمار الدجى	منكم ، وما لوجوها متغيب
أبنى أمية أين أقمار الدجى	منكم ، وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكمو عن غابها	فلذاك حاز الملك هذا الثعلب (٢٤).

وسواء أكان ثعلبا أم لم يكن ، اذ لا يزال هذا النعت الذى نعته به
المصحفى عالقا به - فقد ايقن المنصور ضرورة القيام بعمل شئ يسترجع
به ما كان له من المكانة عند الناس ، فعزم على زيادة سعة المسجد الذى
أصبح يضيق بسكان العاصمة وبالجنود الكثيفين القادمين من افريقية ،
فبدأ بنزع ملكية أصحاب البيوت القائمة على الأرض التى يراد البناء
عليها ، وكان هذا العمل من جانبه يتطلب كثيرا من اللباقة والحكمة واللين
حتى لا يؤدي الأمر الى مقتته وكرهيته ، ولم يكن المنصور بالذى يشق له
غبار فى هذه النواحي فراح يتقدم الى أصحاب الدور واحدا بعد الآخر، وكان
مثولهم بين يديه شرفا عظيما لهم ثم يقول للواحد منهم : « ان هذه الدار
التى لك يا هذا أريدها لجماعة المسلمين من مالهم وفيئهم لازيدها فى جامعهم
وموضع صلاتهم ، فشطط واطلب ما شئت ، فاذا ذكر محدثه الثمن الذى

يراه قال له : « هذا كثير » ثم لا يكتفى بأن ينقد البائع ثمن داره بل يعمد أيضا الى شراء مسكن آخر له .

وحدث أن ظلت امرأة أمدا طويلا ترفض التخلي عن بيتها لوجود نخلة في حديقته كانت شديدة التعلق بها ، فلما رضخت أخيرا اشترطت عليه أن يشتري لها سكنا سواه ذا نخلة في ساحته ، وكان هذا الطلب من الصعوبة بمكان ، غير أنه لما سمع بما طلبت قال : « تباع لها دارا بنخلة ولو ذهب فيها بيت المال » . ثم عثروا لها بعد طول بحث على بيت يطابق ما اشتتهه فاشتروه بعد أن أغلى أصحابه في الثمن .

آتى السخاء أكله ، ومهما كانت نقمة القوم على الوزير الا أنه لا يمكن انكار مقدرته على الأعمال الخيرة العظيمة ، كما أنه من ناحية أخرى أرغم المتدينين على الاعتراف بأن الزيادة في المسجد عمل يستحق من أجله المثوبة .

أضف الى هذا أنه حين بدأت أعمال البناء شاهد الناس جماعات من الاسرى النصارى المقيدى الاقدام وهم يعملون في تسوية الأرض ومن ثم قيل ان معجد الاسلام لم يتلأأ هذا التلألؤ من قبل ، ولم يصل الكفرة الى هذا الحد من المهانة والذل .

كذلك شوهد المنصور نفسه - ذلك السيد القوى وأعظم قادة هذا العصر - يحمل المكتل والمنشار كأى عامل بسيط ، كل ذلك تقريبا منه للخالق ، ٠٠٠ فما أحرى أن تتلاشى جميع الأثام أمام هذا المنظر (٢٥) .

* * *

فى الوقت الذى كان العمل جاريا ابانه فى توسيع المسجد تجددت الحرب ضد ليون ، ذلك أن القوات الاسلامية المرابطة فى هذه المملكة أساءت السير اساءتها فى بلد مغلوب على أمره ، وكلما تشكى برميدو الثانى الى المنصور لم يتلق منه الا جوابا صيغ فى صلف وازدراء ، فلما عيل صبره نهج نهجا صارما لطرده المسلمين (٢٦) مما دفع المنصور الى ضرورة اشعاره مرة أخرى بتفوق جيوشه عليه وان كان هو فى سريرته راضيا كل الرضى عن هذه الحرب الجديدة ، راميا من ورائها الى صرف أهل العاصمة لمعاودة الحديث عن وقائعه وانتصاراته وفتوحاته بدلا من البحث عن أمور لا تعنيهم أبدا ، وقام هو بتقديم مادة الحديث اليهم .

ولما استولى على مدينة قلمرية فى يونيو ٩٨٧ م (= صفر ٣٧٧ هـ) سواها بالأرض حتى لقد ظلت مهجورة (٢٧) سبع سنوات ، فلما كان

العالم التالي عبر نهر دويرة وانساب الجيش الاسلامي في مملكة ليون. انسياب السيل الجارف ، مخربا كل ما يضادفه في طريقه غير مستبق على المدن أو القلاع أو الأديرة والكنائس أو القرى والمزارع (٢٨) ، فرد عليه برميده بأن هاجم مدينة سمورة (٢٩) ، ولا شك أنه كان مدفوعا في ذلك بالثقة من مهاجمته هذه المدينة أولا ، غير أن المنصور أسقطها من حسابه ، وسار رأسا الى ليون التي كادت أن تسقط في يده مرة قبل الآن لولا مناعة حصنها وضخامة أبراجها ولولا أيضا أبوابها الأربعة الرخامية وأسوارها الرومانية التي ينيف عرضها على عشرين قدما ، فكانت لكل هذه الأسباب بالغة الحصانة والقوة ، فعزت محاولات العدو الذي نجح أخيرا في فتح ثغرة على مقربة من الباب الغربي في الوقت الذي كان فيه قائد الحامية - واسمه القومس الجليقي - طريح الفراش لعدة شديدة ألت به ، ثم مالبت الحظر أن بلغ أقصى مداه ، واذ ذاك لم يعبأ القومس بمرضه بل تسربل في لحظته بلباسه الحربي وأمر أن يحمل في محفة الى الثغرة فألهب مرآه. وكلامه حماسة جنده الخامدة فوقفوا صامدين أمام العدو ثلاثة أيام ، لكن تمكن المسلمون في اليوم الرابع من اقتحام المدينة من بابها القبلي وجرت مذبحة مروعة حتى لقد قتل هذا القومس في محفته وكان الواجب احترام بطولته ، وانساب المنتصرون بعد القتل مخربين كل ما في طريقهم فلم يدعوا حجرا على حجر ، ودكوا ما صادفهم من الأبواب والبروج والأسوار والقلعة والبيوت دكا شديدا ، ولم يبقوا الا على برج واحد قائم بجانب الباب الشمالي يكاد ارتفاعه يساوى ارتفاع الأبراج الأخرى ، اذ أمر المنصور بتركه كما هو راميا من وراء ذلك أن يكون شاهدا للأجيال القادمة على بأس البلد الذي محاه من على سطح الأرض (٣٠) .

وارتد المسلمون بعد ذلك الى سمورة فحاصروها بعد أن أحرقوا ما صادفهم في طريقهم من ديري بييرا سلونسا وسهاجون الفخهين (٣١) .

أما برميده فكان دون قائده شجاعة اذ تسلل خفية ولاذ بأذيال الهرب، فلما عرف ذلك أهل البلد أسلموا القصر الى المنصور الذي أباح سمورة للسلب والنهب ، وحينذاك اعترف أغلب الكونتات بسلطته عليهم ، أما برميده فلم يعد له غير تلك التواحي المجاورة للبحر (٣٢) .

ومضى المنصور بن أبي عامر بعد ذلك عائدا الى الزاهرة بعد تلك الحملة العظيمة ، لكنه كان قلق الخاطر مشغول البال بأمور بالغة الخطورة ، فقد اكتشف أن كبار رجاله يتآمرون عليه ، وفيهم ابنه الشاب عبد الله البالغ من العمر الثانية والعشرين .

لم يكن عبد الله محبوبا من أبيه رغم شجاعته وفروسيته الرائعة ، وذلك لشك يخامر آياه في صحة نسبته اليه وان جهل الابن ذلك الأمر ، ولكنه كان يرى آياه يوثر على الدوام أخاه عبد الملك الذى يصغره بست سنوات ويقدمه عليه مع اعتقاده بأنه يفوقه ذكاء وشجاعة ، لذلك كان يحس بكراهية عنيفة حادة حتى قبل وصوله الى سرقسطة مقر عبد الرحمن بن مطرف التجيبى عامل السلطان على الثغر الأعلى ، وجر عليه هذا المجلس النكبة اذ كان مضيفه شيخ أسرة بارزة توارث رجالها ولاية الملك فى هذه الناحية مدى قرن كامل من الزمان .

ولما كان المعروف عن المنصور أنه يميل دائما الى اضعاف شكيمة أشد رجال الدولة بأسا (٣٣) فقد كان من الطبيعى أن يخشى عبد الرحمن (بن مطرف التجيبى) وهو آخر الأشراف الباقين على قيد الحياة من أن يكون بد قليل ضحية لطمع هذا الوزير ، ومن ثم راح يتدبر الأمر قبل وقوعه ، ولم يكن تريثه فى عدم التمرد الا انتظارا لفرصة مواتية ، وها قد لاحت له الآن هذه الفرصة اذ وجد فى عبد الله الشاب اليد الصالحة لتنفيذ خطته، فراح يصرم سخطه على أبيه ويذكى فيه شيئا فشيئا فكرة التمرد ويحثه على الثورة عليه ، واتفق الاثنان : التجيبى وعبد الله على امتشاق السيف حالما تسنح الظروف وأن يتقاسما اسبانيا فيما بينهما اذا كتب لهما النصر فى هذا الصراع فيكون لعبد الله (٣٤) وسط الأندلس ولعبد الرحمن الشمال . وساهم فى هذه المؤامرة كثير من أصحاب المراتب العليا فى الجيش والحكومة على السواء ، وكان من بينهم أمير يجرى فى عروقه الدم الملكى هو عبد الله البطرشك الذى كان وقتئذ عاملا على طليطلة .

كانت هذه المؤامرة بالغة الخطورة واتسعت حتى لم يعد فى الامكان أن يطول سترها عن عين الحاجب الحذرة ، وترامت الى سمعه فى بادى الأمر أخبار غامضة أخذت تتضح شيئا فشيئا ، وسرعان ما اتخذ التدابير الناجعة لاحتياط خطط أعدائه فاستدعى ابنه اليه وأظهر له ثقته به خديعة منه ومغالطة ، وحباه بحنانه ورضائه عليه ، واستقدم عبد الله البطرشك وصرفه عن عمل طليطلة دون أن يعدم ذريعة أشبه بالحق يتذرع بها لتبرير مسلكه ، واصطنع البشاشة معه فجازت الحيلة على الأمير الذى لم يساوره أدنى شك من ناحيته عنده ، الا أن المنصور سرعان ما جرده من لقبه كوزير وحرّم عليه مغادرة بيته .

* * *

لما أمن الوزير جانب اثنين من كبار المتآمرين بفضل حذره الشديده أعد حملة لمحاربة القشتاليين بعد أن أنفذ لولاية الحدود أمره بالحضور اليه ومرافقته ، فامتثل عبد الرحمن بن مطرف للأمر وفعل بقية الأمراء فعلة

ثم أغرى المنصور من عنده من جند سرقسطة للشيكوى من عبد الرحمن ففعلوا واتهموه يأخذ أرزاقهم وحبسها على نفسه ، فعزله المنصور من منصبه يوم ٨ يونيو ٩٨٩ م (= سلخ صفر ٣٧٩ هـ) ولما كان عازفا عن مجافاة كل عشيرة هاشم فقد قلده يحيى بن [عبد الرحمن بن مطرف] المعروف بسماجة ولاية الثغر الأعلى ، ولم تنقض غير أيام قلائل حتى ألقى القبض على عبد الرحمن ذاته دون أن يفهمه أنه على علم بالمؤامرة ، بل كان كل ما زعمه هو أنه يريد أن يحقق في الطريقة التي سلكها في التصرف في رواتب الجند التي عهد إليه بدفعها لهم .

ما لبث عبد الله [بن المنصور بن أبي عامر] أن اشترك في الجيش نفاذا للأمر الصادر إليه ، وحاول المنصور استعادة محبته بما جباه به من ضروب العطف ، غير أن جميع محاولاته في هذا الصدد ذهبت أدراج الرياح ، فقد صمم عبد الله تصميمًا باتا على قطع كل ما بينه وبين أبيه ، فعمد في أثناء حصار شنت اشتيين دى جرمان إلى ترك المعسكر سرا غير مستصحب معه سوى ستة من غلمانه ، والتجأ إلى غرسية الذي آمنه وآمنه ، وبقي رغم تهديدات المنصور أيام مقيما على عهده له أكثر من عام توالى عليه خلاله المحن بعضها في أثر بعض وحاقت به الهزائم في كل المعارك التي خاضها ، حتى إذا كان أغسطس ٩٨٩ سلبه المنصور مدينة وخشمة وأقام بها حامية إسلامية كما استولى على « القبة » (٣٥) ، ثم جد نفسه في النهاية مضطرا لطلب الصلح وتسليم عبد الله إلى أبيه .

وجاءت كوكبة من الفرسان من قشتالة قادت الثائر إلى معسكر والده وقد امتطى بغلا فارها جليل الحلية أهدها إليه القومس ، ولما كان واثقا من عفو أبيه عنه فقد كان خالي البال ، هادئ النفس ، وبينما هو في الطريق إذا به يصادف كتيبة مسلمة بقيادة سعد الخادم الذي قبل يده وطمان خاطره ملقيا إليه أن أباه يعتبر ما فعله ضربا من الطيش يغتفر لمن كان في مثل سنه ، وكانت هذه هي لهجة الحديث وقت وجود القشتاليين معه ، فلما انصرفوا إلى معسكرهم عند شواطئ نهر دويرة تراجع سعد إلى الورا وأشار إلى من معه من الجند بالترجل والاستعداد لقتله ، فلما سمع العامري الشجاع هذه الكلمات غير المتوقعة لم تظر نفسه شعاعا ، بل وثب في خفة إلى جوار بغله واحتفظ بمعاله الصلبة ولاقى الموت ثابت الجنان ، وكان ذلك يوم ٩ سبتمبر ٩٩٠ م [= ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ] .

وكان شريكه عبد الرحمن قد أعلم قبله إذ أدين بخيانتة أمانة منصبه ، فضربت عنقه بالزاهرة ، وأما عبد الله البطرشك فقد نجح في الإفلات والاختفاء عند برميديو (٣٦) .

لم يقنع المنصور بأفساده هذه المؤامرة فحقد على قومس قشتالة ما فعله من مد يد المساعدة الى ولده عبد الله ، ودرج خطة للتأثر منه ، فحرك نائبة شانجة بن القومس ليتمرده بدوره على أبيه، ولما كان شانجة هذا معتمدا على تأييد أغلب رجال الدولة له فقد أعلن الحرب في سنة ٩٩٤ م (٣٧) ، واذ ذاك قام المنصور فأعانه واستولى على حصنى شانت اشتين وقلونية ، لكنه سرعان ما ارتاح لانتهاء هذه الحزب ، ذلك لأن بطانته التي ألقت التفكير على نمطه - أو التي كانت تتظاهر بهذا - عيل صبرها مثله من الحرب ، فكانت لا تجد أحسن من القول بأن كل الظواهر تشير الى قرب خضوع غرسية له حتى لقد حدث أن وفد عليه ذات يوم الشاعر صاعد ممسكا بأيل وآخذا زمامه بيده ، وأنشده قصيدة متوسطة البيان قال فيها :

مولاي مؤنس غربتي ، متخطفى من ظفر ايامي ، منع معقلى
عبد نشبت بضبعه وغرسته في نعمة ، أهدى اليك بأيل
سسميته غرسية وبعثته في حبله ، لبتاح فيه تفاؤلى
فلئن قبلت فتلك أسمى نعمة أسدى بها ذو منحة وتطول
وشامت الصدفة العجيبة تحقيق ذلك اذ أصيب غرسية بسنان رمح
وأسر في الطريق ما بين القصر ولانجة على شواطئ دويرة في نفس اليوم
الذى أحضر فيه الشاعر الوعل الى مولاه أعنى يوم الاثنين ٢٥ مايو سنة
٩٥٥ م ، ولم تنقض خمسة أيام على هذا الحادث حتى مات القومس متأثرا
بجراحه . ومنذ ذلك الوقت خلا الجو لشانجة فلم ينافس منافس ، لكنه
كان مضطرا لدفع جزية سنوية الى المسلمين (٣٨) .

في خريف هذا العام نفسه خرج المنصور قاصدا محاربة برميدو انتقاما منه لا يوائه متأمرا آخر (٣٩) ، فأصبح ذلك الملك في حال يرثى لها اذ فقد كل شيء ولم يعد له من السلطة غير اسمها ، فقد انتهب الأشراف كل ما له من أرض وخدم وقطعان ، وتقاسموها فيما بينهم ، ثم سخروا منه حين قام مطالبا باستردادها ، حتى ان الملك الصغار الذين أقامهم حراسا على القلاع المتناثرة هناك تمردوا عليه وكانوا يشيعون بين آونة وأخرى نبأ موته (٤٠) ، الأمر الذى لم يكن ذا أهمية سواء أكان حقا أم باطلا لكنه كان ذا أهمية للمنصور مشجعا له اذ ما الذى يستطيع عمله ضد هذا القائد القوى .

لا شيء مطلقا .

الا أنه سرعان ما انتبه الى غفلته بعد سقوط استرقعة (٤١) التي اتخذها عاصمة له بعد خراب ليون والتي لم يلبث أن غادرها حين اقترب العدو منها ، ثم أثار الحكمة والعقل فطلب الصلح فأجيب اليه على أن يسلمه عبد الله البطرشك وان يدفع جزية سنوية (٤٢) .

* * *

الظاهر أنه بعد أن أسلم كونتات كاريون عاصمتهم الى جوميز اخذوا ينكرون على المنصور سلطته فكر راجعا أخذوا معه الأمير عبد الله البطرشك البائس الذي قبض عليه في نوفمبر (٤٣) (= شوال ٣٨٥ هـ) . ولما كان المنصور يعلم من قبل بجرمه فقد اشتغل في معاقبته فقيده بالسلاسل وأردفه على بعير (٤٤) وأمر أن يطاف به في شوارع العاصمة والمنادى يصيح أمامه (٤٥) : « هذا هو عبد الله بن عبد العزيز الذي أثار العدو على مصالح المسلمين » . فما كادت هذه الكلمات تطرق سمعه حتى أحس الخزي والعار وقال : « كذبت وأيم الله . . انما قل انه رجل طمع في الولاية ولم يكفر » .

ومع ذلك فقد كانت تعوزه الشجاعة الأدبية اذ نسي أنه ينبغي على مثله أن يتسلح بالشجاعة قبل الاقدام على المؤامرة ، فلما طرحوه في السجن خاف أن يأخذوه بعد قلبل الى المشنقة فأبدى ضعة حطت من شأنه الرقيق ، وكانت عكس الصرامة التي أظهرها زميله (عبد الله) بن المنصور اذا اعترف في الأشعار التي بعث بها الى الوزير بأنه كان العوبة سخرت فيما حدث ، كما حاول أن يذهب غضب ابن أبي عامر فتزلف اليه وأطال ، فسماه بأكرم الرجال حتى لقه قال (٤٦) :

يا من برحماء استعنت وحق لي منه الغيات : علاك ، استرعنى دمي

ونفعته هذه المذلة (٤٧) فأبقى المنصور على حياته لاستصغاره قتل مثل هذا الشخص ، لكنه خلاه رهين الحبس الذي بقى فيه لم يبارحه الا حين مات المنصور ، فاسترد حريته يومئذ فقط (٤٨) .

الفصل الخامس عشر

المنصور يعمل على جعل نفسه الحاكم الأعلى ولكن فكرة
«الشرعية» تعترضه • صبح تقف في طريقه • زيرى بن عطية
عامل الخليفة بالمغرب يرفع علم الثورة ضد المنصور • أطماع
زيرى • صبح تبعث بالمال الى زيرى سرا • المنصور يدبر الحطة
لضرب نفوذ صبح • نجاحه في استصدار مرسوم بتفويضه
تصريف الأمور • اعتراف صبح بضياع نفوذها • حملة المنصور
على شنت ياقب ثم على البرتغال • القبض على خطاب جاسوس
وكشف مؤامرة القوامس الليونيين • المنصور يعاود مهاجمة
زيرى ونهايته •

الفصل العادى عشر

المنصور فى ذروة قوته

لما كان المنصور قد ولى الحكم منذ عشرين سنة فقد تطلع لان يجعل الحكومة فى بيته وأن يدعم حكمه بالطريق الشرعى على أن يظل من حوله جاهلين هدفه الذى كان يسعى اليه ، ولذلك اصطنع التانى والحكمة وسار فى خطوات حذرة وان شابهها شئ من التوانى فى عيون البعض ، ففى عام ٩٩١ م تنازل عن لقب الحاجب لابنه عبد الملك وكان عمره اذ ذاك لا يتجاوز ثمانية عشر ربيعا واكتفى هو بلقب المنصور(١)، فلما كان العام التالى أمر أن تختتم رسائل الديوان بخاتمه الخاص بدلا من خاتم الخليفة ، كما لقبه بالمؤيد كنية الخليفة (٢) أيضا . وفى سنة ٩٩٦ م أمر ألا ينعت سواه بالسيد وسمى فى الوقت ذاته بالملك الكريم (٣) .

بهذا كله أصبح ملكا وان لم يصبح خليفة ، فما الذى كان يحول بينه - يا ترى وبين أن يصير هو الخليفة ؟

. الثابت الذى لا مراء فيه هو أن هشاما لم يكن مصدر خوفه ، فعلى الرغم من أنه كان لا يزال فى ريق الشباب لكنه لم يبد أية بارقة من النشاط أو يظهر أى ميل للتحرر من النير الذى كان يرسف فيه ، أضف الى ذلك أن المنصور لم يعد يخشى أحدا من أقارب الخليفة الأمراء بعد أن دبر التخلص من أشدهم خطرا عليه ونفى الذين دونهم خطرا ، وجعل الباقين فى حال أشبه ما تكون بالترتبة (٤) .

أفهل يظن أحد بعد هذا كله أن تلقى خططه معارضة من الجيش . . . كلا فقد كان أغلب الجيش مؤلفا من البربر ونصارى الشمال والصقالبة والجنود الذين أسروا فى طفولتهم (٥) . ومجمل القول ان هذا الجيش كان يتألف من مخاطرين من أجناس شتى وكلهم له تبع وهم طوع اشارته أنى وجههم ، فمن ذا الذى كان المنصور اذن يخشاه ؟

لقد كان يخشى الشعب .

لكن هذا الشعب كان لا يعرف هشاما بن الحكم بل لم يكن هناك غير قلة من الناس في العاصمة نفسها هي التي رآته ، لأنه كان في المرات النادرة التي كان يغادر فيها سجنه الذهبي الى قصوره الريفية كان يخرج محاطا بنساء قصره ، وكان هو مثلهن تماما مغطى ببرنس كبير حتى ليعجز المرء عن تمييزه من بينهن، وكانت الشوارع التي يمر فيها غاصة بالجند تنفيذا لأمر الوزير ٠٠٠٠ ومع ذلك فقد كان هشام محبوبا من شعبه (٦) .

أليس هو ابن الحكم المستنصر الخليفة الطيب التقى ؟

ثم أليس هو حفيد البطل عبد الرحمن الناصر ؟

ثم أليس هو بعد ذلك كله الحاكم الشرعي ؟

لقد كانت فكرة الشرعية متأصلة في كل النفوس ، حية في قلوب العامة أكثر مما هي في نفوس الأشراف الذين يرجع أغلبهم الى أصل عربي والذين لا يستبعد أن يتخلوا عنها اذا كان في تغيير الأسرة فائدة تعود عليهم أو اذا كانت الضرورة تفرض هذا التغيير، بيد أن تفكير الأمة التي كانت ترجع الى أصل اسباني كان يناقض تفكير هؤلاء ، إذ كان شعورها الديني وتعلقها بالأسرة الحاكمة يؤلفان جزءا من كيانها ، وعلى الرغم من أن المنصور قد كسى الوطن بالفخار والرفاهية اللتين لم يكن يحلم بهما قط الا أن الشعب لم يكن ليغفر له بأى حال من الأحوال أنه جعل الخليفة أسيرا للدولة ، ولم تكن الأمة جمعا لتتوانى عن الثورة على الوزير لو أنه حاول الجلوس على العرش ، ولم يغب ذلك كله عن فطنة المنصور ، غير أنه أخذ يمني نفسه بتحول الرأي العام شيئا فشيئا ، ويطمح أن ينسى الشعب الخليفة نسيانا تاما ولا يفكر الا فيه هو وحده ، وحينذاك يتسنى له تغيير الأسرة الحاكمة دون حدوث أى اضطراب .

لذلك كان من الخير لابن أبي عامر أن يؤجل مشروعه الضخم ادراكا منه أن قوته معلقة بخيط واه ، فعلى الرغم من جميع ما أحرزه من الفتوحات والأمجاد الا أنه كانت هناك امرأة كادت أن تنجح في الاطاحة به واسقاطه ٠٠٠٠

تلك المرأة هي صبيح .

لقد أحبته ٠٠٠ لكن زمن العواطف العارمة كان قد انطوى من حياتهما معا ، فتخاصما ونضب الحب في قلوبهما وحلت مكانه الكراهية يضمورها

كل منهما للآخر ، ولم تكن صبيح بالمرأة المترددة التي تقف في منتصف الطريق اذا سلكت الطريق ، فقد كانت عنيفة في كرها وحقدتها عنفها في عشقتها وحبها ، فصممت على أن تسقط المنصور وتوسلت لتحقيق ذلك باثارة كل من في البلاط والحريم من الرجال والنساء ، وتحدثت الى ولدها هشام ذاكرة له أن الشرف يقتضيه أن يظهر بمظهر الرجال ، وأنه آن الأوان لتحطيم القيد الذي حاول الوزير الطاغية تقييده به .

وتمت على يدها المعجزة اذ نجحت في أن تبت القوة والنشاط في رجل كان من أكثر الرجال خمودا لكن ما لبث المستور أن انكشف للمنصور وسقط القناع عن المخفي فكان اذا لاقاه لاقاه متجهما ، بل لقد أسرف فلم يكن يتوانى عن تقييده ولومه ، فرغب الوزير في تجنب العاصفة وعمد الى ابعاد كثير من الأشخاص الخطرين في الحريم ، لكنه كان عاجزا عن اخراج من هي روح المؤامرة ، بل ان تدييره هذا أدى الى زيادة حنقها عليه ، ولم يكن التعب ليجد سبيله الى تلك المرأة النفازية بل أظهرت أنها ذات ارادة حديدية كتلك التي لعشيقها القديم ، فأخذ جواسيسها يذيعون - أنى حلوا - أن الخليفة يرى أنه قد آن الأوان ليتحرر ويحكم بنفسه ، وانه يعتمد على وفاء سعبه الكريم في تاييده للتخلص من سجنانه ، بل لقد عبر رسل السلطانة المضييق [واجتازوا العدو ، وبلغوا افريقية] وفي اللحظة التي تجمع فيها العامة المشاغبون بقرطبة رفع زيوري بن عطية - عامل الخليفة على بلاد المغرب - علم الثورة وأعلن أنه لم يعد في طوقه احتمال الألم الذي يشعر به تجاه أسرة الحاكم الشرعي على يد وزير طاغية .

كان زيوري الشخص الوحيد الذي مازال المنصور يخشاه وظل يخافه طول حياته ، اذ كان من عاداته الاستخفاف بأعدائه تخويفا لهم ، ولما كان هذا الزعيم نصف بربري فقد ظل محتفظا في صحرائه الافريقية بصفات جنس انقرض ، وأعنى بهذه الصفات البطش والعزم والصلف ، ومع ذلك فقد تحمل المنصور نفوذ هذا الرجل الشديد الصولة ، وحدث أن استضافه منذ عدة سنين وأكرم وفادته تقديرا لمكانته ولقبه بالوزير ووصله بالمال الوفير الذي يناسب هذا اللقب ، ودون جميع أتباعه في ديوان الجند ، غير ان زيوري لم يشأ الرحيل حتى يعوضه النفقات وهداياهم اليه ، ولم يكن لما أحاطه به المنصور من أثر في نفسه اذ ما كاد يعود الى الأرض الافريقية حتى رفع يده الى رأسه وصاح (V) : « الآن علمت أنك لي » ، ثم ناداه أحد رجاله بالوزير فنهاه عن هذا النداء وقال له : « ويحك ٠٠٠ وزير ؟ ٠٠٠٠ والله أمير ابن أمير ، واعجبني من ابن أبي عامر ومخرقته ، لأن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، ولو كان بالاندلس رجس ما تركه على حاله . »

وعلم المنصور بهذه الكلمات التي كانت كافية لاطاحة رأس أى شخص آخر لكنه تظاهر بعلم الاهتمام بها ، وما لبث أن عين بنفسه زيرى عاملا للخليفة على جميع بلاد المغرب ، وذلك بالرغم من خوفه منه وكراهيته له ، ولكنه كان يعتقد فيه الوفاء والصراحة . غير أن هذا الحادث أظهر له فساد حكمه اذ لم تكن صراحة زيرى ولا جفاف طبعه سوى قناع يخفى تحته كثيرا . من الطمع والحقد ، لذلك سهل على صبح اغراؤه بالمال ليقوم بدور البطولة الذى رسمته له ، ولعله كان يريد اطلاق سراح مولاه من أسر المنصور ليكون فى أسرته هو .

لم تكن صبح بالتى تجهل وجوب البدء بتقديم المال اليه ، ودلها دهاؤها . الاثوى على الوسيلة التى تعتمد اليها فى الحصول على المال ومدحها فيها . به ، ولما كانت تعرف أن بخزينة القصر ما يقرب من ستة ملايين دينار فقد أخذت منها ثمانين ألفا وضعتها فى مائة كوز وغطتها بالشهد والمرى وبعض السوائل المنزلية وألصقت على كل جرة ورقة باسم ما فيها ، ثم عهدت الى جماعة من الصقالبة بحملها الى مكان سمته لهم خارج المدينة ، ونجحت حيلتها . فلم يخامر الوزير شك ما ، فترك الصقالبة يمرون بأحمالهم ، وبينما كان المال فى طريقه الى المغرب اذا بالمنصور يعلم بالخبر بطريقة ما فاشتد اضطرابه شدة ما كان لها أن تكون لو كان يعلم أن صبحا اختلست مال مولاه السلطان هشام ، لكن الأمور جميعها كانت تحمله على أن تدبرها . المال كان يعلم من الخليفة مما يجعل ما جرى خطيرا خطورة تحتم عليه القيام بعمل شئ مضاد ، وسرعان ما عقد اجتماعا دعى اليه الوزراء وكبار العلماء وسواهم من أصحاب الكلمة من رجال البلاط ووجهاء البلد ، وأفضى اليهم أن نساء الحرهم سولت لهن أنفسهن الاستيلاء على أموال بيت المال دون الخليفة نظرا لانصرافه التام الى واجباته الدينية ، وطلب اليهم أن يخولوه السلطة فى نقل الأموال الى مكان مأمون فأجيب الى ما طلب وان لم يؤد ذلك الى نتيجة حاسمة ، اذ جاء عماله الى القصر لنقل الخزينة فحالت صبح بينهم وبين ما يريدون زاعمة أن الخليفة يمنعهم من ذلك .

وأوقع فى يد المنصور ماذا يفعل !!

أهلجؤ الى القوة ؟ .. لو أنه فعل ذلك لكان هذا عملا موجها ضد الخليفة ذاته .

وإذا حاول المنصور الذهاب الى هذا الحد فسوف تعصاه العاصمة فى طرفة عين : تلك العاصمة التى تتطلع الى الثورة ولا تنظر الا اشارة من الخليفة .

على أنه مهما كانت خطورة الموقف إلا أنه لم يصل إلى حد اليأس طالما لم ينزل زيروى بجيوشه في أسبانيا ، وطالما لم يظهر الخليفة بمظهر الرجل القادر على تصريف الأمور بنفسه .

وهكذا لم يفقد المنصور شجاعته مادام زيروى في إفريقية وما دام الخليفة روحا بلا معنى ، لذلك خاطر المنصور بالمهم في سبيل الأهم فغافل صبحا واحتال على مقابلة الخليفة وتحدث إليه ، وما لبث ابن أبى عامر بعد هذا اللقاء أن استعاد قوته كملك بفضل هذا النفوذ الذى تمليه الشخصيات القوية على الشخصيات الضعيفة ، فقد اعترف الخليفة ببعجزه عن الحكم بنفسه ، وفوض للمنصور السلطة فى نقل الخزينة .

لكن ذلك لم يكف المنصور بل راح يبحث الخليفة على اصدار مرسوم كتابى بذلك ، وبهذا تقطع جبهة قول كل خطيب فوعده الخليفة بكل ما أراد ، واذ ذاك دفع إليه ابن أبى عامر مرسوما يقضى بأن يترك له هشام تدير جميع الشئون كما كان الأمر فى الماضى ، فوقعه الخليفة فى حضرة الكثيرين من رجال الدولة البارزين الذين صادقوا على خاتمه وكانوا شهودا على ما فعل ، وكان ذلك فى فبراير أو مارس سنة ٩٧٧ م ، سعى المنصور اذ كيف يتأتى لشخص ما أن يدعى انقاذ أسير يعزف عن الحرية ؟

أمن المنصور منذ ذلك الوقت اندلاع الثورة فى العاصمة . . .
اذ كيف يتأتى لشخص ما أن يدعى انقاذ أسير يعزف عن الحرية ؟

ومع ذلك فقد أدرك الوزير أنه يجب عليه ارضاء الجمهور الذى كانت صيحاته تتعالى بلا انقطاع ملحة فى رؤية سلطانه ، فرأى المنصور أن يحقق للعامّة طلبها فأركب هشاما جوادا شق به شوارع العاصمة والصلولجان فى يده وقلنسوة الخلفاء الطويلة على رأسه ، وسار معه المنصور وجميع رجال البلاط ، واكتظت الطرق بالجموع الكثيفة ولم يختل النظام أبدا ولم تطرق الأذان قط صيحة شغب (٨) .

واعترفت صبح بهزيمتها ، وأصبحت حزينة مغلوبة على أمرها محطمة النفس ، فراحت تنشد فى العبادة سلو الماضى والعوض عن آمالها الضائعة (٩) .

بقى هناك زيروى الذى تضاهل خطره منذ أن فقد نصرته الخليفة له والأموال التى كانت تمده صبح بها، ولم يعد المنصور يرى سبيلا للتفاهم

معه بل عدده خارجا على الدولة الشرعية وعهد الى عبده الطليق واضح بالخروج لمحاربتة على رأس جيش عظيم وضعه تحت امرته (١٠) .

ربما يستبعد البعض قيام المنصور بحرب أخرى قبل أن يفرغ من حرب المغرب ، لكن جرت الأمور على غير ما يتصور أحد ، اذا غتتم برميده فرصة انشغال الوزير بثورة زيرى فقطع الجزية ، لذلك دبر المنصور مع اتباعه الكونتات الليونيين حملة عظيمة ضده ، ولعل اصراره على خروجها اليه - رغم الظروف المحيطة به - يرجع الى رغبته فى أن يدرك زيرى وبرميده وجميع أعدائه الظاهرين والخفيين أن فى قدرته النهوض بحربين فى وقت واحد واذا كان هذا هو مقصده فانه لم يكن مبالغا فى ثقته بقواته اذ قدر لهذه الحملة التى كان مقدا عليها - وأعنى بها حملة شنته ياقب دى كومبستل - أن لا تدانيتها فى شهرتها حملة مما قام به خلال عصر فتوحه الطويل .

ونحن اذا استتينا المدينة الخالدة روما فليس فى أوروبا قاطبة مكان يبرز فى قدسيته شنت ياقب بغاليسية ، ومع ذلك فليست هذه الشهرة بالقديمة اذ أنها لا ترجع الى أبعد من عصر شارلمان ، اذ يقال انه فى أثناء هذه الفترة أن أفضى كثير من الجماعات المتدينة الى تيودومير اسقف ايريه (المعروفة اليوم باسم el Padrom) أنهم رأوا فى غبش الظلام أضواء تخطف الأبصار تلتهم فى غيضة، كما ترمى الى سمعهم موسيقا شجية ليست من أهل الدنيا ، وسرعان ما عدھا الأسقف معجزة ، وتأهب ليتأكد بنفسه عما حدث به ، فعكف على الصوم والصلاة ثلاثة أيام سويا مضى بعدها الى الأجمة فاذا به أمام قبر من الرخام فأوحى اليه كما قال ان يعلن أنه لا بد وان يكون للحوارى يعقوب بن زبدى الذى كان تزعم الأسطورة أنه بشر بالانجيل فى اسبانيا ، ومضى فأضاف الى ذلك أنه لما أمر هيرودوس بضرب عنق هذا الحوارى فى بيت المقدس حمل تلاميذه جثمانه الى غاليسية ودفنوه بها ، ولو قدر لهذه الرواية أن تكون فى غير هذا الوقت لكانت موضع جدل وحجاج وانكار ، أما والعصر عصر ايمان ساذج فلم يكن أحد يتشكك فيما يقول القسيس حتى ولو كان ما يقول مناقضا للواقع والعقل ، ثم ما لبث البابا ليو الثالث (١١) أن أعلن على رؤوس الاشهاد أن القبر المذكور هو قبر القديس يوحنا ، فكان هذا البيان خاتمة كل بيان ، وآمن الناس بما زعمه تيودومير ، وراح أهل غاليسيا يتباهون بأن عظام أحد الحواريين موجودة تحت ثرى أرضهم حتى ان ألفونسو الثانى أراد أن تكون اقامة أسقف ايريه منذ ذلك الوقت فى تلك البقعة التى اكتشف فيها القبر ، وشيدت على الضريح كنيسة ثم جاء بعد ذلك ألفونسو

الثالث (١٢) فبنى أخرى تتيه على سابقتها في روعتها وحسنها ، واكتسبت شهرة فائقة بفضل ما قيل عن المعجزات الجمة التي جرت بين جدرانها ، وما أوشك القرن العاشر على الأفول حتى أصبح ضريح القديس يوحنا كومبستل مزارا ذائع الشهرة يحج اليه الناس من جميع الجهات وشتى النواحي ، ويقصده القوم من فرنسا وإيطاليا وألمانيا بل وأقصى ربوع الشرق (١٣) .

وذاع في كل بقاع الأندلس أيضا أمر يوحنا الرسول وخبر كنيسته الفخمة التي يقول فيها أحد المؤلفين العرب « انها كانت عندهم بمنزلة الكعبة في الاسلام ، يحجون اليها من اقصى بلاد روما وما وراعاها (١٤) » ، غير أن الأندلسيين لم يعرفوا هذا الاسم الا سماعا ، اذ لو أراد أحدهم رؤيته لأسره الغاليسيون ، ومن ثم لم يفكر أبدا أى عربى أن يقود جيشا يقتحم به هذا البلد النائي ، الصعب المرتقى .

ولما لم يكن ذلك الخاطر قد مر قط ببال أحد ما فقد صمم المنصور على اقتحامه ، وأراد أن يظهر للملأ أن المستحيل على غيره ليس بالمستحيل عليه هو ، وطمع في تخريب أعظم المذابح قداسة عند أعداء الاسلام الا وهو مذبح الحواري الذي يزعم أهل ليون أنه طالما حارب في صفوفهم .

وفي يوم السبت ٣ يوليو ٩٩٧ م (= ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ هـ) غادر المنصور قرطبة على رأس فرسانه فحمل أولا على قورية ، ثم على بازة (١٥) حيث انضم اليه عدد كبير من القوامس المعتريين بسيادته عليهم ، ثم حمل على برتقال حيث كان ينتظره أسطوله الذي أبحر من باب قصر أبى دانس المعروف اليوم فى البرتغالية باسم : Alcacero de sol حاملا على ظهره المشاة الذين تخلصوا من مشقة السير الطويل ، وكان الأسطول مجهزا بالسلاح والذخيرة ، ثم ضمت السفن بعضها الى بعض فتكون منها جسر عبر عليه الجيش نهر دويرة .

ولما كان الاقليم الواقع بين هذا النهر وبين نهر منهو فى أيدي كونتاب محالفين للمسلمين (١٦) فقد عبره المسلمون دون أن تقابلهم أية عقبة سوى الأراضى الصعبة العبور ، من ذلك أنه كان يوجد جبل شاهق الارتفاع صعب المرتقى غير أن المنصور عبد فيه طريقا بأيدي القعلة بالحديد (١٧) .

بعد أن اجتاز القوم وادى منيه وجدوا أنفسهم فى أرض العدو ومن ثم كان عليهم أن يكونوا يقظين كل اليقظة ، الا أن أكثرية الليونيين الموجودين

فى الجيش لم تكن مطمئنة تماما ، فقد تيقظت ضمائرهم فجأة بعد طول
سكون ، فتذكروا أنهم ذاهبون لاقتراف جريمة شنعاء وكادوا أن يغبطوا
الحملة لولا أن سمع المنصور بما دبروه فعالج الموقف قبل أن يفلت الزمام ،
ويضيع الوقت ، واليك ما قيل فى هذا الصدد :

كانت ليلة شديدة البرد عاصفة الريح غزيرة المطر ، فدعا المنصور أحد
فرسانه وقال له : « انهض الآن الى قبح طليارش (١٨) وأقم فيه ، فأول عابر
يمر بك سقه الى » ، فمضى الفارس فى لحظة لطيته حتى بلغ الفج وقضى الليل
بطوله منتظرا لعنا ما هو فيه دون أن يرى أى شىء فيه حياة ، وأوشك
الفجر أن يشرق حين لاح له من جانب المعسكر شيخ هرم يمتطى حمارا ،
ويظهر على الرجل أنه خطاب اذ كان يحمل آلة الحطب ، فاستوقفه الفارس
وسأله عن وجهته فأجابه الآخر : « وراء الحطب » - فلم يدر الجندى
ما يفعل به فقال فى نفسه : « هذا شيخ مسكين نهض الى الجبل يروم حطبنا
فما عسى أن يريد المنصور منه ؟ » .

ثم تركه يمضى لحال سبيله ، لكنه ما لبث أن تراجع عن رأيه متذكرا
أن أوامر المنصور صريحة باتة ، وأن فى عدم اطاعتها خطرا عليه ، ومن ثم
أعمل الجندى مهمازه فى دابته حتى أدرك الخطاب الكهل وقال له : « ارجع
الى مولانا المنصور » فسأله الرجل : « وما عسى أن يريد المنصور من شيخ
مثلى ؟ ... سألتك بالله أن تتركنى لطلب رزقى » فقال الفارس :
« لا أفعل » وهكذا اضطر الرجل لاطاعته وعاد الى المعسكر .

لم يبد على الوزير الذى لم تغمض له عين أى مظهر من مظاهر الدهشة
ان يسوق اليه الفارس كهلا كهذا الكهل ، بل قال لمن حوله من خدمه
الصقالبة : « فتشوه » فامتثل الصقالبة لأمره فلم يجدوا معه ما يريب فقال
لهم المنصور : « فتشوا برذعة حماره » وفى هذه المرة لم تذهب شكوكه عبثا
اذ وجدوا فى السرج رسالة كتبها بعض الجليقيين الذين فى الجيش
الاسلامى الى مواطنيهم يدلونهم على ناحية ضعيفة من المعسكر ، ويذكرون
لهم أن النجاح حليفهم ان هاجموا منها ، فلما وقف المنصور على ما فى
الرسالة وعرف منها اسماء الخونة أمر فأطيحت رقابهم فى الحال ومعهم
الخطاب الوسيط بينهم وبين اخوانهم فى الخارج (١٩) . وكان لهذه الخطة
الحكيمة أثرها الناجع فقد جزع الليونيون الآخرون من بطش القائد فلم
يمودوا يفكرون فى مثل هذا الأمر والاتصال بالعدو .

وتابع الجيش زحفه منسوبا انسياب السيل الجارف فخرّب فى
طريقه دبرى القديسين « كوزمو » و « داميان » واستولى على حصن

شنت بلاية ، ولما كان عدد كبير من سكان البلد قد فروا الى أكبر الجزيرتين ملتجئين اليها أو على الأصح الى إحدى الصخرتين المنخفضتين الموجودتين في خليج « فيجو » فقد تعقبهم المسلمون بعد أن خاضوا مخاضة اكتشافها فعبروها الى هذه الجزيرة وأخذوا ممن بها كل ما حملوه معهم ثم عبروا الى « أيلة » سالبين مخربين ايريه (البديرون) نفسها التي كانت محجا شهيرا لوجود الحواري حنا دى كومبستل بها . ثم وصلوا الى هذه المدينة الأخيرة في شهر أغسطس فوجدوها خالية من السكان الذين آثروا الهرب حين سمعوا بقدوم العدو ، فلم يجد المسلمون غير ناسك عجوز كان فقيحا بجوار قبر الحواري فسأله المنصور : « ما ذا تعمل هنا » فقال الشيخ : « أوتس يعقوب » فقال له المنصور : « أقم على ايناسك » ، وكف عنه كل أذى .

واقام المنصور حامية على القبر حتى لا تمتد اليه أيدي جنده وهم في سكرة جنونهم .

أما بقية البلد فقد دكها عن آخرها ، وحطم أسوارها وبيوتها بل وكناستها التي يقول بصددها أحد المؤلفين العرب ان النزول على شنت ياقب كان يوم الأربعاء فغودرت هشيما كان لم تغن بالأمس .

ومضت القوات الخفيفة فخربت ما جاورها وسارت قد ما حتى بلغت شانت مانكش القرية من كورون .

بعد أن أمضى المنصور أسبوعا في شنت ياقب أمر الجند بالرجوع الى ليجو (٢٠) ، فلما بلغها أذن لخلفائه القوامس بالرجوع بعد أن وصلهم بالهدايا الجميلة لا سيما الأنواب الغالية ، ثم فصل خبر حملته في كتاب يعث به الى البلاط ، وهو قصة حفظ لنا المؤرخون العرب مادتها بل وربما نص الفاظها (٢١) ، ثم دخل قرطبة وفي صحبته جماعة من أسرى النصرى حاملين على أكتافهم أبواب مدينة شنت ياقب ونواقيس كنيستها .

فأما الأبواب فقد وضعت في الجامع الذي لم يكن قد فرغ من انشائه حتى ذلك الوقت (٢٢) ، وأما النواقيس فقد علقت في سقف البناء مستعملة كمصابيح (٢٣) .

اذن فمن ذا الذي كان يجول بخاطره يومذاك أنه سيأتي يوم يقوم فيه ملك مسيحي يرد هذه النواقيس الى غاليسية عبي أكتاف الأسرى المسلمين ؟

★ ★ ★

• أما في المغرب فكان حظ جيوش المنصور أقل سعدا .

حقيقة أن واضحا أصاب بعض النجاح في مبدأ الأمر حيث استولى على أصيلة ونكور ، ونجح في مباغثة معسكر زيرو ليلا ، وقتل كثير من رجاله ، لكن لم يلبث التوفيق أن جافاه فحقت به الهزيمة حتى اضطر للفرار إلى طنجة حيث وجه رسالة للوزير يطلب منه إنجاده بالامدادات . حال استلامه الكتاب ، فلم يكد المنصور يتسلم كتاب قائده حتى أنفذ عددا كبيرا من الجند إلى الجزيرة الخضراء ، وأسرع في العمل على إبحارهم ورافقهم بنفسه إلى هذا الميناء ، وعهد إلى ابنه عبد الملك المظفر بقيادة الحملة فعبر المضيق على رأس جيش فخم أرسى به في سبتة ، وكان لخبر وصوله تأثير عظيم إذ بادر أغلب البربر الموالين له بالانضمام إلى لواء عبد الملك الذي سار بجميع من معه بعد انضمام واضح بجنده إليه ، وسرعان ما التحموا بجيش زيرو الذي كان يزحف لمحاربتهم ، وجرت بين الجانبين وقعة في شهر أكتوبر سنة ٩٨٨ م ، استمرت من شروق الشمس إلى مغيبها ، وحمى وطيس القتال ، وبينما جند المظفر على وشك الهزيمة إذا بزيرو يطعن في ثلاثة أماكن بيد عبد كان زيرو قد قتل أخاه من قبل ، ثم فر القاتل إلى المظفر مقضيا إليه بما كان منه من قتله زيرو ، فشك الأمير بادئ ذي بدء في كلام الرجل الهارب إليه ، إذ كانت راية زيرو لا تزال منصوبة ترفرف ، فلما تأكد عنده صدق مقاله كر على العدو كرة شديدة وظهر عليه .

منذ ذلك الوقت تلاشى سلطان زيرو ودخلت أملاكه جميعها في حوزة الأندلسيين ، وما لبث جراحاته التي أصابه بها العبد أن نقلت فمات (٢٤) .

وكان ذلك سنة ١٠٠١ م (= ٣٩٢ هـ) .

الفصل الثالث عشر

- حملته على قشتالة • مرضه • وصاته الى ولده
- عبد الملك • موته • مجمل القول فيه • قوة جيشه وهيبته
- الأندلس • عطفه على الآداب والعلوم •
- الأندلس • عطفه على الآداب والعلوم • صاعد الأندلسي
- البغدادى • أخلاق المنصور •

الفصل الثاني عشر

خاتمة المنصور

فى ربيع ١٠٠٢ م قام المنصور - وقد اقتربت نهايته - بأخر حملة لله ، وكان يتمنى على الله دائما أن يلقى ربه ومينته فى ساحة الوغى ، وكان شديد الايمان باجابة دعائه هذا ، حتى لقد كان يستصحب معه على الدوام كفته الذى خاطنه له بناته ، ولم يدفع فى هذا القماش غير المال المحمول اليه من ضيعته المحيطة ببيته الموروث فى « طرش » ليكون منزها عن كل حرام ، وأمر الا يدفع فيه شىء من مال متحصل عليه من غير هذا الوجه ، وكلما دنى من الشيوخة ازداد تعبدا ، ولما كان القرآن الكريم يشير الى أن الله عاصم من النار وجوه الذين عفروا أقدامهم بتراب الجهاد فقد جرت عادة المنصور - كلما بلغ محلة من المحلات - أن يبادر الى جمع ما يكون قد علق بثيابه من التراب ويحتفظ به فى صرة أعدها لهذا الغرض وحده . ولما حضرته المنية أمر أن يجعلوا هذا التراب معه فى لحده عسى أن تكون المشقة التى تكبدها فى جهاده شفيعا له عند رب العرش (١) .

ولقد تكلفت بالنصر حملته الأخيرة التى شنها على قشتالة شأنها فى ذلك شأن جميع حملاته السالفة ، وتوغل حتى بلغ Canales (٢) ، ودك دير القديس أملين حامى قشتالة ، كما خرب قبل ذلك بخمس سنوات كنيسة حامى غاليسية .

وفى أثناء عودته اشتد به المرض ، ولما كان سىء الظن بأطبائه الذين لم يتفقوا على تشخيص كنه علته أو كيف يكون برؤه منها فقد أصر على رفض كل ما أشاروا به عليه من علاج ، يقينا منه بأنه غير ناج من الموت ، وقعد به الداء حتى أعجزه عن امتطاء جواده فحمل فى محفة وقاسى الآلام الشداد حتى كان يقول : « ان زمامى يشتمل على عشرين ألف مرتزق ما أصبح فيهم أحد أسوأ حالة منى » .

وظل ابن أبي عامر محمولا على ظهور الرجال أربعة عشر يوما حتى أدرك مدينة سالم ، لا يشغل باله سوى خاطر واحد هو أن سلطته كانت مضطربة على الدوام غير ثابتة الدعائم وتقابل بالمعارضة ، وعلى الرغم من انتصاراته الجمة وشهرته المدوية الا أنه كان يخشى حدوث ثورة بعد موته تطوح بكل ما لأسرته من البأس ، واستبد به هذا الخاطر فعكر عليه صفو أيامه الأخيرة فدعى الى سريره ابنه البكر عبد الملك وألقى اليه بتعاليمه ووصاياهم .

لقد أوصاه أن يكل قيادة الجيش الى أخيه عبد الرحمن أما هو فيمضى الى قرطبة ليأخذ أزمة الأمور في يديه ، وأن يبادر الى قمع كل محاولة يراد بها إثارة الفتنة ، فوعده عبد الملك باتباع نصائحه والعمل بإرشاداته ، غير أن اضطراب المنصور كان قد بلغ درجة وصل الأمر معها أنه كلما هم ولده بالعودة - حين يحسب أن أباه قد فرغ من حديثه - أرجعه المنصور اليه خوفا من أن يكون قد نسى شيئا ، ولم يكن يعلم في كل مرة نصيحة يضيفها الى ما سبق أن أوصاه به ، وحدث أن بكى الشاب فنهزه أبوه وأنبه على جزعه الذي عدته فاتحة خور ، ولما انصرف الابن عبد الملك استجمع المنصور قواه بعض الشيء ودعى اليه قواده الذين كادوا أن ينكروه لشدة هزاله واصفرار وجهه حتى لاح كأنه الشبح ، وكاد أن يفقد القدرة على الكلام فودعهم بحديث لا يبين أكثره ، وعمد الى الإشارة بفسر بها ما عجز لسانه عن الافصاح به ، ثم لم يلبث أن لفظ نفسه الأخير في مساء الاثنين العاشر من أغسطس (٣) = ٢٧ رمضان ٣٩٢ هـ) ، ودفن في مدينة سالم وقد نقش على قبره هذان البيتان :

آثاره تنبئك عن أخباره حتى كأنك بالعيون تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبدا، ولا يحمي الثغور سواه (٤) .

أما الكلمة التي أودعها راهب مسيحي في حواريته فلم تكن أقل بيانا عن هذين البيتين اذ يقول فيها « في سنة ١٠٠٢ م ، مات المنصور وذهب الى الجحيم (٥) » .

ولا شك أن هذه الكلمات البسيطة التي أملتها على الراهب كراهيته لعدو موسى في الثرى هي أفصح في تقدير مكانته من المرائي الطنانة التي قيلت فيه .

والواقع أنه لم يكن لنصارى الجزيرة خصم كهذا الخصم ، فقد شن المنصور عليهم أكثر من خمسين حملة (اذ كان من عادته أن يغزو غزوتين كل سنة ، أحدهما في الربيع والأخرى في الخريف) ، وقد خرج منها

كلها ظافرا ، واذ أسقطنا من حسابنا ما هدمه من البلدان التي كان من بينها ثلاث عواصم هي ليون وبانبلونة وبرشلونة (٦) فقد خرب كذلك هيكلى حامى غاليسية وقديس قشستالة ، ويقول أحد المؤرخين (٧) النصرارى : « فى هذا الوقت البعيد اندثرت العبادة الربانية من اسبانيا وتضاءل كليا مجد خدام المسيح ، ونهبت أموال الكنيسة المتجمعة خلال عدة قرون » .

ولقد أصبحت قلوب النصرارى ترجف لذكر اسمه ، وطالما أتقذه هذا الذعر الذى بثه فيهم من أخطار دفعته اليها جرأته حتى لم يكونوا يجرؤون على الانتفاع بالظروف التى يتهيا لهم فيها أن يكون تحت أيديهم وفى متناولهم ، فقد حدث ذلك مرة أن سلك شعبا ضيقا بين جبلين شاهقين ودخل فى أرض العدو ومضى جنده ينهبون ويخربون ذات اليمين وذات الشمال ولم يجسر المسيحيون على النهوض اليهم لمقاومتهم ، فلما قفل المنصور راجعا رأى أعداءه قد استولوا على ذلك الممر وعدم المسلمون الوسيلة لدفعهم ، وأدرك ابن أبى عامر حرج موقفه فدبر خطة حازمة وظل يبحث حتى هداه البحث للعثور على ناحية ملائمة ابتنى بها عدة دور ومنازل ، ثم أمر بضرب رؤس جماعة من الأسرى وتكديس جثثهم لتكون متاريس ، ولما أخذ فرسانه يذرعون البلد ولم يجدوا طعاما أمر بجمع آلات الحرث وطلب اليهم فلاحه الأرض ، فاشتد جزع أعدائه من تلك الاجراءات العظيمة التى أدركوا منها أن المسلمين عاقدون العزم على ألا يبرحوا بلدهم هذا ، فترددوا عليه يسألونه الصلح وأن يخرج غائما بما أصاب ، فرفض المنصور هذا العرض قائلا : « ان أصحابى أبوا أن يخرجوا ، وقالوا انا لا نكاد نصل الى بلادنا الا وقد حان وقت الغزوة الأخرى ، فلننعمد هاهنا حيث نحن الى ان يحين وقت الغزو ، فاذا غزونا عدنا الى بلادنا » .

وبد عدة مفاوضات أذعن النصرارى ورضوا أن يذهب المنصور بغنائمه ، ودفعهم ذعرهم منه الى أن تكفلوا له بمدى بدواب الحمل لنقل ما غنمه ، وبالميرة حتى يبلغ الأطراف الاسلامية ، وتمهدوا أن ينحوا الجيف التى تسد عليه الطريق (٨) .

وحدث فى مرة من مرات العودة من احدى الحملات أن نسي حامل الراية رايته وتركها مركوزة على قنة جبل مشرف على احدى المدن المسيحية فظلت الراية مكانها أياما لم يجرؤ النصرارى على التقدم نحوها ليروا هل رحل المسلمون أم لا زالوا مقيمين (٩) .

ويقال أيضا ان رسولا من قبل المنصور وصل الى بلاط غرسية ملك تافارة فبولغ فى الحفاوة به ، ثم وجد فى احدى الكنائس عجوزا مسلمة ذكرت

له أنها أسرت في صباحها ولا زالت رهن الأسر في تلك الكنيسة ، وتوسلت إليه أن يروى للمنصور خبرها فوعدها الرسول الذي قص على الوزير خبر سفارته ، فلما فرغ من تقريره سأله المنصور عما اذا كان قد أبصر في نفارة أمرا استنكره فأففى إليه بخبر الأسيرة المسلمة ، فصاح به المنصور « ويحك . . . كان عليك ان تبندرنى بهذا الخبر » ، وجهاز فى لحظته حملة تقدمت الى حدود نفارة ، فاشتد جزع غرسية وأنفذ اليه فى ساعته رسالة يستفسره فيها عما اقترف من الذنب لأنه لم يكن يرى أنه جاء بشيء يهيج حفيظته ، واذا قال الوزير للرسول الذين حملوا اليه هذا الخبر : « كان قد عاقدنى ألا يبقى بأرضه أسيرا : ذكرنا كان أو أنتى ، وقد بلغنى بعد مقام فلانة بتلك الكنيسة ، والله لا أنتهى عن أرضه حتى أمسحها » .

فلما وقف غرسية على جواب المنصور بادر فأرسل اليه المرأة التى طلبها وكذلك أخرتين هداه اليهما البحث ، وأقسم فى الوقت ذاته أنه لم ير أبدا هؤلاء النسوة ، ولم يبلغه خبرهن من قبل ، وأعلمه أنه أمر بهدم الكنيسة التى أشار اليها المنصور (١٠) .

★ ★ ★

ور مبعث خوف لأعدائه كما كان معبود جنده الذين يعدونه أبا يسهر على اجابة طلباتهم ويعنى بهم على الدوام ، الا أنه كان مع ذلك على جانب شديد من الصرامة البالغة فى كل ما يتعلق بالنظام الحربى ، ذات يوم وهو يستعرض الجند سيفا يلعب بأقصى الساحة فى : . . . وسرعان ما استقدم اليه صاحبه وسأله وهو يضطرم غيظا « ما حملك على أن تشهر سيفك فى مكان لا يشهر فيه الا عن اذن ؟ » ، فأجابه الجندى مضطريا « انى أشرت به على صاحبى مغمدا فدلقت من غمده » فقال له المنصور : « ان مثل هذا لا يسوغ بالدعوى ثم التفت الى حاشيته وقال : « ليتقدم أحدكم فيضرب عنق هذا الجندى بسيفه ، وليطف برأسه ، وينادى عليه بذنبه » .

على هذه الصورة استطاع المنصور أن يوجد بين الجند نوعا من الخوف الملائم ، فكانوا اذا مر بهم مستعرضا اياهم حلق الصمت على رؤوسهم حتى ليقول أحد المؤلفين المسلمين « ان الخيل لتمثل أطراق فرسانها فلا تكثر الصهيل والححمة (١١) » .

ولقد بلغت اسبانيا زمن المنصور من القوة درجة لم تنهيا لها أبدا من قبل حتى ولا زمن عبد الرحمن الناصر ، ويرجع الفضل فى ذلك الى الجيش الذى أنشأه المنصور ودربه على الطاعة والإيمان والالتزام ، ولم

تقتصر خدمة المنصور على هذه الناحية فحسب بل لقد كان يعمل على نشر الحضارة وأدى لها خدمات جمة .

فلقد أحب المنصور النهضة الفكرية وشجعها ، وعلى الرغم من أن هناك بعض ظروف سياسية خاصة أجبرته على التشدد مع الفلاسفة إلا أنه كان لا يتوانى عن حمايتهم مادام ذلك لا يحرك غضب الفقهاء ، من ذلك مثلا ما حدث من القبض على ابن الشبانسى (١٢) والزج به فى السجن بتهمة الزندقة التى شهد عليه بها الكثيرون ، ورأى الفقهاء الحكم عليه بالموت ، وبينما هم على وشك قتله اذا بفقير محترم هو ابن مكوى (١٣) (وكان كبير مفتيى قرطبة) يصل بأقصى سرعة وكان قد رفض المشاركة فى محاكمته ، وكان الفضل لطيبة قلبه أكثر مما لمنطقه فى تخليص ابن الشبانسى من الموت رغم المعارضة الشديدة التى أبداهها القاضى (١٤) الذى كان يرأس المحاكمة ، ورأى المنصور اذ ذاك الفرصة لصب غضبه على ابن السريع ووضع حد لتزمت المتدينين البالغ ، فقال ان الواجب يقتضيه تدعيم الدين ، وسيجد كل صادق الايمان عون ، أما القاضى ابن السريع فقد بذل غاية جهده ضد ابن الشبانسى فأخفق ، ولذا يجب اهدار دمه حتى لا يفترى على غيره (١٥) . غير أن هذا القول منه لم يكن سوى مجرد تهديد فقد زج بالقاضى بضعة أيام فى الحبس ثم أطلق سراحه بعد أن أدرك وجوب الحد من قسوته ومغالاته على أولئك المفكرين المنكودين المتحررين من الآراء الموروثة .

ووجد رجال الأدب من المنصور أجمل العطف فكان فى بطانته جماعة من الشعراء الذين كان يجرى عليهم الرواتب الكبيرة وكثيرا ما رافقوه فى حملاته ومن بينهم « صاعد البغدادى » (١٦) الذى كان أشد الشعراء ظهورا وأكثرهم تسلية وان لم يكن أبدعهم قريحة فى الشعر ، ولا يمكن للمرء أن ينكر أنه على الرغم من كراهية الأندلسيين للطائرين عليهم إلا أنهم لم يستطيعوا أن ينكروا عليه براعة الناظم وخيال القصاص وبداهة المرتجل ، وان كان فى الوقت ذاته قليل الاحترام للحقيقة ، وكان أجسر محتال يمكن للمرء أن يتخيله .

كان صاعد اذا شرع فى الكلام استرسل واستحال ايقافه ، واذا ذاك يفرق سامعيه فى سيل من الأعاجيب وكلما سئل عن معنى كلمة لا توجد فى اللغة عمد الى ايراد بيت ينسبه لشاعر قديم ، فكان يخيل لسامعه أنه لم يوجد قط كتاب لم ينظر صاعد فيه ، وقد أراد الأدباء كشف ستره

قأطلعوه ذات يوم - وهو فى حضرة المنصور - على كتاب أبيض الصفحات رقموا على الصفحة الأولى منه عبارة « كتاب النكت لأبى الغوث الصنعانى » ، ولم يكن هناك كتاب بهذا العنوان ، ولا كاتب يعرف بأبى الغوث الصنعانى ، لكن ما كاد صاعد يطالع العنوان حتى صاح بهم : « أرى والله قرأته بالبلد الفلانى » ثم قبله فى احترام وذكر اسم البلد الذى ادعى أنه قرأه فيه والشيوخ الذين قرأهم وقال له : « ان كنت قرأته كما تزعم فعلام يحوى ؟ » ، فأجابه « وحق أبىك ليس فيه شعر ولا خبر » ، فانفجر الجميع ضاحكين منه سخيرية به .

وحدث فى مرة أخرى أن وصلت المنصور رسالة من عامل له يدعى « برمان بن يزيد » يسأله فيها عن « القلب والتزويل » ، أى « الزراعة والتسميد » فقال لصاعد : « هل رأيت فيما وقع لك من الكتب كتاب القوالب والزوالب لبرمان بن يزيد » فأجابه صاعد : « والله ، رأيت فى بغداد فى نسخة لأبى دريد بخط كآكرع النمل ، فى جوانبها علامات الوضاع » ، فقال له المنصور : « أما تستحى أبى العلاء ؟ هذا كتاب عاملى ببلد كذا واسمه كذا ، يذكر فيه كذا ، وانما صنعت لك هذه الترجمة مولدة من هذه الألفاظ التى فى هذا الكتاب ، ونسبتها لعاملى لأخبرك » . فقال صاعد : قد يكون الأمر كما تقول ، ولكن لا يخطر ببالك انى أختلق شيئاً لم أراه ، وأقسم لك ان الكتاب والكاتب موجودان ، ولعلها المصادفة العجيبة وحدها هى التى جعلت لعاملك نفس اسم المؤلف » .

وأطلع المنصور فى مرة أخرى على المجموعة التى وضعها أبو على القالى ، فأجابه صاعد فى ساعته : « ان أراد المنصور أمليت على كتاب دولته كتاباً أرفع منه وأجل ، لا أرد فيه خبراً مما أورده أبو على » فأذن له المنصور الذى كان يتطلع الى كتاب يهدى اليه يبرز شهرة كتاب القالى الذى أهده للخليفة السابق ، لأنه كان يتطلع - حين أحضر صاعدا الى الأندلس - أن يكسف مجده شمس القالى الذى أضفى عظمة أدبية على عصرى عبد الرحمن الثالث والحكم الثانى ، فانكب صاعد فى لحظته على العمل ومضى يملئ فى جامع مدينة الزاهرة كتاب الفصوص « فلما فرغ منه أقبل أدباء عصره على تقليته فقرت نفوسهم وان دهشوا أن لم يجدوا بين دفتيه سوى مجموعة من الأكاذيب ، فجميع ما فيه من التفاسير اللغوية والأخبار والشعر والأمثال من وضع صاعد، أو هكذا قالوا فصدقهم المنصور وحنق على صاعد هذه المرة وألقى بكتابه فى النهر (١٧) وان لم يجرمه من عطفه الذى ازداد منذ أن تنبأ صاعد بأسر غرسية قومس وهى البهوءة التى كتب لها التحقيق كما رأينا من قبل ، فلم يقتصر الأمر على عطفه

عليه بل وقره توقيرا زاد عن الحد لذلك لم يكن صاعدا يدع وسيلة يظهر
بها تقديره لمعرفه عليه الا توسل بها وعمد اليها ، ولم يفك ذلك
المنصور .

وخطر لصاعد ذات مرة أن يجمع الأكياس والصرر التي كان المنصور
يبعثها اليه مملوءة بالمال وعمل منها قميصا لعبده كافور الأسود ومضى به
الى القصر ونجح في ادخال البهجة على قلب الوزير قائلا له : « يا مولانا :
لعبدك حاجة » قال : « اذكرها » قال : « وصول عبدي كافور الى هنا »
فقال « سؤال عجيب » قال « ولا أقنع بسواه الا بحضوره بين يديك »
فقال المنصور : « أدخلوه » فدخل كافور وكان عبدا فارح الطول كالنخل
اشراقا ، وقد ارتدى جلبابا مختلف الألوان يشبه ثياب الصعاليك كثير
الرقاع ، فقال الوزير وقد حضر : « انه لباذ الهيثة ، فمالك أصيته » فقال :
« هنالك الفائدة يا مولاي ، انك وهبت لي اليوم ملا جلد كافور مالا »
فابتسم المنصور راضيا وقال له « لله درك من شاكر مستنبط لغوامض
معاني السكر » ثم أمر له في لحظته بمال وافر وثياب ، وكسى كافورا
أحسن الكساء (١٨) .

ومجمل القول انه اذا كان هناك رجال مثل صاعد قد نعموا بعطف
الوزير فمرد ذلك الى تذوق المنصور للأدب : الأمر الذي كان ينقص أغلب
الأمويين ، وقد صح لديه أن واجبه يقتضيه رفق الشعراء لكن نظرته اليهم
لم تكن تعدو نظرته للأشياء الرائعة التي تفرضها عليه مكانته الرفيعة ،
وان كان هو ذاته ذا موهبة وحس مرهف يمكنانه من التمييز بين الفت
والثمين وبين الجوهر والعرض .

غير أنه لم يكن في حال تمكنه من معالجة الأدب لأنه كان رجل أعمال
فقد كان خير نصير لمصالح البلد المادية اذ شغل نفسه على الدوام باصلاح
المواصلات ، فأنشأ كثيرا من الطرق وأقام في استجة جسرا على نهر شنيل ،
وبنى آخر في قرطبة على نهر الوادي الكبير كلفه أربعين ألف دينار (١٩) .

وكان المنصور يتفحص كل أمر جل أو تفه ، وكان اذا أراد الأقدام
على أمر هام استشار في العادة أهل الحل والعقد وان كثرت مخالفته
لمشورتهم ، اذ لم يزد هؤلاء الرجال أبدا عن كونهم رجلا عادين قد استعبدتهم
العادة والعرف المألوف، فهم يعرفون ماعمله عبد الرحمن الناصر أو الحكم الثاني
في ظروف مماثلة لظروفهم ، ولا يؤمنون بقدرة امرء على سلوك سبيل غير
السبيل التي سلكها من قبلهم ، كانوا اذا رأوا المنصور قد خالف مشورتهم

الى نهجه الخاص أيقنوا بفشله ، ثم تبرهن الأحداث على خطئهم
الفادح (٢٠) .

أما فيما يتعلق بأخلاقه فالواقع أنه ارتكب أعمالا تنكرها الأخلاق ،
بل اقترف جرائم لا نمك حيالها الصمت والسكوت ، كل ذلك طمعا منه فى
تملك السلطة والاستحواذ على السلطان وجمع القوة فى يديه ، غير أن العدل
يقتضينا أن نذكر الى جانب ذلك أنه كان وفييا كريما عادلا طالما كانت أطماعه
غير خطيرة ، فان كان الأمر هكذا فالصرامة - كما قلنا - أساس شخصيته ،
وكان اذا صمم على شىء استحال صرفه عنه .

لم يكن الألم الجثمانى ليقعد المنصور عن طلبه الشىء والحاحه فيه ،
فقد حدث ذات يوم أن كان به داء فى رجله فأخذ يكويه أثناء اجتماع مجلس
المشورة ومضى يتكلم كأن ليس ثم شىء ، وما كان لأحد من الجالسين أن
يعرف ما يحدث لولا ان تصاعدت رائحة الجلد المحترق (٢١) ، وهكذا كان
كل ما فيه صورة للقوة والثبات العجيبين ، وكان ثابتا فى محبته ثبوته فى
كراهيته ، فلم ينس لأحد قط معروفا أسداه اليه ، ولم يغفر لأحد ما سيئته
ارتكبها ضده ، وقد آمن بذلك رفاقه الذين خيرهم وهم شباب ما يختارون من
الأعمال فيما لو آلت الوزارة اليه فحصل الطلاب الثلاثة الذين حملوا كلامه
على محل الجلد فسموا يومذاك ما يطمعون فيه من وظائف ، أما رابعهم الذى
سخر به فقد كفر عن حماقته بمصادرة كل ممتلكاته (٢٢) .

غير أن المنصور كان يتغلب فى بعض الأحيان على عناده اذا تبين له
خطؤه، فقد سئل ذات يوم الصفيح عن جماعة من سجنائه ، فلما سرح عينه فى
القائمة طالعه اسم أحد غلمانه وكان يضم له الحقد الدفين وقد مضت عليه
فى الحبس فترة طويلة بلا جريرة تبرر كل هذا العقاب فكتب على الهامش
(لا سبيل الى اطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية) ، ثم جاء الليل وطلب النوم
فاستعصى عليه ووخزه ضميره ، وبينما هو بين المنام واليقظة خيل اليه أنه
رأى أنيا كربه الصورة عنيف الأخذ يأمره باطلاق سراح الغلام ويتوعده
بحبسه هو ، وحاول عبثا طرد هذه الأفكار السوداء عنه ، وذلك بعث فى
طلب الورق وهو فى فراشه وكتب باطلاق سراح السجنين وكتب هذه العبارة
« هذا طليق الله على رغم أنف ابن أبى عامر (٢٣) » .

وضمه مرة أخرى مع الوزير أبى المغيرة بن حزم مجلس شراب فى
احدى حدائق الزاهرة الغناء واسمها « منية السرور » (إذ أنه رغم احترامه
للدين الا أنه كان كلفا بالنبيذ طول حياته ولم يقلع عنه الا قبل عامين من

موته (٢٤)) وكانت هذه الأمسية إحدى الأمسيات الجميلة التي لا يتسنى التمتع بها الا في تلك الأجواء الجنوبية اللطيفة ، ثم أقبلت جارية جميلة كان المصور يهواها لكنها كانت شديدة الميل لابن حزم فالتقت :

قدم الليل عند سير النهار وبدي البدر مثل نصف سوار
فكان النهار صفحة خد وكان الظلام خط عذار
وكان الكؤوس جامد ماء وكان المدام ذائب نار
نظري قد جنى على ذنوبا كيف مما جنته عيني اعتداری
يا لقومي تعجبوا من غزال جائر عن محبتي وهو جارى
ليت - لو كان لى اليه - سبيل فأقضى من حبه أوطارى

فلم يحتمل المغيرة هذه الأبيات ولم يتبصر الأمر وأجابها في الحال بشعر قال فيه :

كيف كيف الوصول للأقمار بين سمر القنا وبيض الشفار
لو علمنا بأن حبك حق لطلبنا الحياة منك بشار
وإذا ما الكرام هبوا لشيء خاطروا بالنفوس فى الأخطار

فلم يطق المنصور صبيرا بل زار غاضبا واستل سيفه وصاح بالجارية في صوت هادر : « قولى وأصدقيني القول : الى من تشيرين بهذا الحنين ؟ » فأجابته الفتاة الشجاعة : « ان كان الكذب أنجى فالصدق أحرى وأولى ، والله ما كانت الا نظرة ، ولدت فى القلب فكرة ، فتكلم الحب على لساني ، وبرح الشوق بكتمانى ، والعفو مضمون لديك عند المقدرة ، والصفح معلوم منك عند المعذرة » ثم اغرورقت عينها بالدموع وهى تتكلم ، فعفى المنصور عنها ثم التفت الى أبى المغيرة غاضبا وأسرف فى لومه وابن المغيرة صامت لا ينطق ولا يبين ، فلما فرغ ابن أبى عامر من كلامه قال له جليسه « أيدك الله ، انما كانت هفوة جررها الفكر ، وصبوة أيدها النظر ، وليس للمراء الا ما قدر له ، لاما اختاره وأمله » . فصمت المنصور برهة ثم قال : « عفوت عنكما ، هى لك يا أبا المغيرة (٢٥) » .

ولقد ذهب إثارة العدل مذهب المثل السائر ، فكان يجب تنفيذ العدالة دون رعاية لأحد ما ، ولم يدع لعطفه على بعض الناس مجالا يطغى عليه فيجعلهم بمنجاة من القانون . حدث أن وفد عليه رجل من العامة وقال له : « يا ناصر الحق ، ان لى مظلمة عند ذلك الوصيف الذى على رأسك »

وأشار الى فتى صقلبي يحمل الدرقة وكان أثرا عند المنصور ، ثم تابع كلامه فقال : « وقد دعوته الى القاضى فلم يأت » ، فقال المنصور : « أو عبد الرحمن بن قطيس بهذه المنزلة من العجز والمهانة وكنا نظنه أمضى من ذلك ؟ .. اذكر مظلمتك يا هذا » .

فروى له الرجل كيف تعاقد مع الصقلبي الذى بدى له أن ينقض ما أبرم ، فلما فرغ من كلامه قال المنصور « ما أعظم بليتنا بهذه الحانسية » ثم التفت الى الصقلبي الذى ارتعدت فرائصه خوفا وقال له : « ادفع الدرقة لغيرك وانزل صاغرا ، وساو خصمك مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك » ثم قال لعامل الشرطة : « خذه الى صاحب المظالم ليقضى فيه بما يوجبه الحق عليه » . فانتصف القاضى للرجل الذى عاد الى المنصور شاكرا له يده فقال له الوزير « قد انتصفت أنت فاذهب لسبيك ، وبقي انتصافى أنا ممن تهاون بمتزلى » .

وحدث فى مرة أخرى أن تخاصم أكبر خدمه مع تاجر مغربى فاستدعى القاضى الخادم للحضور أمامه لخلق اليمين فكبر عليه أن يقف ويقاضى ، وفى ذات يوم بينما كان المنصور فى طريقه الى المسجد وفى صحبتته رئيس خدمه هذا اذا بالتاجر المغربى يدنو منه ويقص عليه ما حدث ، فأمسك الوزير لساعته بخادمه وأمره بالشخص الى القاضى ، فلما ثبتت ادانته صرفه المنصور عما بيده (٢٦) .

وقصبارى القول أنه اذا كانت الأساليب التى اصطنعها المنصور للاستيلاء على السباطة قد تجرمة وتدبئه الا أنه يجب الاعتراف بشرف سيرته ونبل خطته حينما استتب له الأمر ، ولو كان القدر أتاح له أن يولد فى مهاد الملكية لما أسرف الناس فى لومه الى هذا الحد على ما اقترفه من الأعمال ، ولربما عدوه اذ ذاك أحد الأمراء العظام الذين يبجلهم التاريخ ويحفظ ذكراهم ، غير أنه لما كان قد اطل على الحياة فى بيت ريفى قديم فقد اضطرتة الرغبة فى تحقيق هدفه الى ساوك سبيل جم العثرات والمزالق ، وان الانسان ليستشعر الأسف على ما أخذ به نفسه من الأعمال رجاء الوصول الى مآربه دون اهتمام كبير بشرعية وسائله .

والمنصور بعد ذلك رجل فد من نواح عدة ، وانه ليستحيل علينا ان نحبه ، كما يصعب علينا أن نعجب به لعدم التزامه جادة القوانين الأخلاقية المألوفة .

الفصل الثالث عشر

النزاع بين أنصار القديم والجديد • رجال يدعون الى ما يسمى بالملة الكلية أو الجامعة • ظهور رجال يعملون على نزع السلطة من بيت المنصور • موقف أنصار بني أمية والعامية من التطور الاجتماعي • ظهور طبقة اجتماعية جديدة ثرية • المفطر وعبد الرحمن ولدا المنصور • احتيال شانجول ليكون وليا للعهد • تكاتف الجميع ضد مقتصب العرش • خلع شانجول والغاء بعض الضرائب • استخلاف محمد المهدي بالله • انقراض رجال شانجول عنه • منزلته • مقتله •

اضطراب الأوضاع

حينما عاد المظفر الى قرطبة بعد موت ابيه وجد الثورة مندلعة ، فقد ألق الناس على وجوب ظهور الخليفة وان يحكم بنفسه ، ولم ترض الجماهير بما قاله هشام الثاني لها من أنه يريد متابعة السير على ما هو عليه من الحياة الهادئة فقد صمم الشعب على مطالبه مما حمل المظفر على استعمال السلاح فى تفريق جموع الناس (١) واذ ذلك استتب النظام على الرغم من أن أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر -ويدعى هشامًا- تأمر ضد المظفر الذى علم بالأمر فى حينه فأحبط خطة المتآمر وقتله فى ديسمبر (٢) سنة ١٠٠٦ م [= شوال ٣٩٩ هـ] ، ثم سار فى حكم الدولة على غرار ابيه فانتصر على المسيحيين عدة مرات ، وأخذ البلد أيام حكمه يسير قدما فى طريق الرفاهية حتى لقد قيل « ان الأندلس بلغت فى أيامه نهاية الكمال » (٣) .

الا أنه حدث تغيير اجتماعى عظيم اذ تلاشى المجتمع العربى القديم بمحاسنه ومساوئه حين سعى عبد الرحمن الناصر والمنصور فى توحيد الأمة وأدركا هذه الغاية ، وكانت الطبقة القديمة من الأشراف العرب قد انحلت من جراء صراعها مع الملوكية ، فلما غلبت على أمرها وتحطمت وخمدت ريحها أخذت الأسماء القديمة فى الاختفاء يوما بعد يوم ، أما نبلاء البلاط الذين كانت تربطهم بالأمويين وشائج القرى والعصبية القبلية فقد كانوا أحسن حظا وكانت هناك أربع عائلات لا تزال على ثراها وتنافسها هى : بنو أبى عبيدة ، وبنو شهيد وبنو جهور وبنو فطيس (٤) .

غير أن أقوى الرجال حينذاك كانوا هم القادة البربر والصقالبة (٥) الذين مهد لهم المنصور وبوأهم هذه المكانة ، ولما كانوا أجنب قد نشأوا فى الحضيض فلم يكونوا يتمتعون بالاحترام الكبير ، وكان الناس ينظرون اليهم على أنهم متسربرون ، وضحج الأهالى بالشكوى من مظالمهم القادحة .

أما أهل الطبقة الوسطى فقد ازداد ثراؤهم من جراء التجارة والصناعة حتى لقد ظهر زمن السلطان عبد الله المضطرب جماعة من التجار والصناع أصابوا الأموال الضخمة دون أن تكون لهم رؤوس أموال غير ما استدانوه من أصدقائهم (٦) . أما الآن وقد استقرت الأمور في نصابها فلا عجب ان أصبح من اليسير الهين ازدياد الثروات ، وعلى الرغم من سلامة هذا المجتمع الا أن جرائم الدمار كانت تنخر فيه .

وإذا كان الصراع قد توقف بين العرقيات الا انه عاد الى الظهور مرة أخرى في صورة جديدة هي النزاع بين الطبقات ، فكره العامل مخدومه . واستعر الحسد في قلب رجل الطبقة الوسطى على الاشراف ، وان اتفق الجميع على لعن القيادة العامة لا سيما البربر ، كما كان في أعماق الجهل الشامل شوق مبهم للمجهول ، فأصبح الدين هدفا ينضح بالسهم وعرضة للحملات القاسية ، ولم تؤت التدابير التي اتخذها المنصور حيال الفلاسفة ما كان يرتجيه الفقهاء منها بل انعكست الآية فتضاعف عدد المفكرين الأحرار وابتدأ الشك المترسب في أعماق طبيعة الخلق العربي يظهر شيئا فشيئا في مسوح العلم ، فتزايد تلاميذ ابن مسرة أو المرسيون (٧) كما كانوا يسمون ، وعملت طوائف أخرى على نشر مبادئ شديدة الخطورة ، ويظهر أن إحدى هذه الجماعات نشأت بين الطبقة الدينية نفسها ، أو لا أقل من أن أعضائها كانوا من المعنيين بدراسة الأحاديث النبوية غير أن دراستهم اياها لا بد وأنها كانت دراسة الرجل المتدين التي اتسمت بالسطحية وطبعت بطابع الميل الى كتب الشك والأسفار التي ألفها رجال ماديون كانوا يرمون الى تقويض أركان الملة ، ومن هنا نشأت فكرتهم العجيبة في تفسير الكون اذ قالوا ان الأرض محمولة على سمكة ، والسمكة على قرن ثور ، ويحمل الثور صخرة موضوعة على كتف ملك تحته توجد العتمة ، ومن تحت العتمة ماء ليس لنهايته حد (٨) .

بهذه التفاسير الغامضة المضحكة - التي ربما لم تكن سوى رموز - جاء المتدينون بهرطقة شديدة الخطورة ، واعتقدت تلك الطائفة بعدم تناهي الكون ، وأخذت تلقن الناس أن الدين قد يفرض فيعتنق خوفا أو املاء ، لكن لا يستطيع البرهنة عليه بأدلة عقلية ، ومع ذلك فان رجال تلك الطائفة فاصبوا في الوقت ذاته العداء تعاليم الاغريق الفلسفية وهي التعاليم التي اعتمدت عليها طائفة أخرى كانت تتألف من علماء طبيعيين أدت بهم دراسة الرياضيات الى النظر في علم الفلك وطلبوا الأدلة الرياضية للبرهنة على الدين ، فلما لم تتحقق اربتهم انصرفوا عنه ورموه بالعجز . ونددوا

بالصوم والصلاة والزكاة والحج ، وعدوها حماقة ، لذلك لم يقصر العلماء في تعنيفهم تعنيفا حمل رايته المتدينون في جميع العصور ضد أولئك الذين نبذوا ظهريا العقائد الموروثة ، ورموهم بأن لا هم لهم في الحياة سوى الاثراء بغية . التمتع بجميع أنواع اللسذائد دون احترام للشرائع ولا للأخلاق .

الا أن الطوائف التي هاجمت الاسلام في صراحة لم تكن أشد الطوائف خطرا عليه بل أخطرها عليه كانت تلك الجماعات التي أظهرت رغبتها في مسالته ، ولم تكت قاصرة على المسلمين بل وجدت أيضا بين النصارى واليهود لأنها أخذت تنادى بعدم التعصب متسترة بعبارة « الملة الجامعة » ، ولم يكن يخفى على فقهاء المسلمين أن اضمحلال دين ما لا يرجع الى ما يتعرض له من الهجمات الخارجية بل الى عدم الانتصار له ، واختلاف الرجال الذين اعتنقوا هذه الملبادىء فيما بينهم على نقاط معينة ، واتسعت شقة الخلاف بينهم لكنهم اتفقوا جميعا على الازدراء الشامل للتحليل المنطقي ، فقالوا ان الدنيا تزخر بكثير من الديانات والطوائف والمدارس الفلسفية التي يناصر بعضها البعض الآخر العداء وتتضارب فيما بينها ، واليك النصارى حيث نرى الملكانيين لا يطيقون النساطرة ، كما أن النساطرة يزدرون اليعاقبة، وكل واحد منهم يرى الآخر مقضيا عليه بالهلاك، كما يوجد بين المسلمين جماعة المعتزلة الذين يعدون كل مخالف لهم في تفكيرهم كافرا، كما أن الخارجي يرى من واجبه قتل كل من ليس من جماعته .

• والسنى لا يتفق مع هذا ولا ذاك

• ويوجد نفس الأمر بين اليهود

• وليست الحال بأقل من ذلك بين الفلاسفة .

• وكان لكل فريق حججه القوية فيما يذهب اليه ، والتي يجرمها

خصمه بنفس القوة ، وكانت قوة كل منهم فى أسلوبه .

• واذن فإين نلتمس الحقيقة ؟

• ومع ذلك فان بعض هؤلاء الشاكين رضوا ببيانات خاصة ، فكان من

بينهم من آمن بوجود الله خالق كل شىء ، وبالرسالة انزلت على محمد

[عليه الصلاة والسلام] ، وكانوا يقولون : « ان بقية المذاهب الأخرى قد

تكون حقيقية أو قد لا تكون ، ونحن لا نؤيدها ولا ننكرها ، بل كل ما هنالك

أنسا نتجاهلها ، لكن وجداننا لا يسمح لنا باعتناق مبادئ لم يشبث لنا

صدقها ، وأولئك هم المعتدلون .

كذلك كان هناك غيرهم اعترفوا فقط بوجود الخالق ، وهناك غيرهم من هم أكثر منهم سيرا في هذا الطريق ممن لم يؤمنوا بشيء قط ، بل قالوا ان لم يثبت بالبرهان وجود اله أو خالق للكون ، كما أنه في الوقت ذاته لم يوجد ما يثبت أن الله غير موجود أو أن العالم وجد من الأزل . ونادى آخرون أنه من الملائم أن يحافظ الانسان - ولو ظاهريا على الأقل - على الدين الذي ولد عليه .

وذهب آخرون الى ضرورة وجود « الملة الكلية » وحدها ، وأدمجوا تحت هذا الاسم مبادئ الأخلاق التي تضمنها كل دين وبرهن عليها بالعقل (٩) .

كان للمتحدثين في شئون الدين منفعة تشاؤ منفعة المتحدثين في الأمور الحكومية ، اذ عرفوا ما يحتاجه القوم .

أما من الناحية السياسية فكان الحال على الضد من ذلك اذ لم يكن لأحد فكرته الراسخة ، وكان الناس ناقلين على الحال التي هم فيها ، وظهر أن المجتمع موشك على الثورة نظرا للتحسن الذي طرأ على مركزه ، ولم يقب ذلك عن نظر المنصور ، ففي ذات يوم بينما كان يصعد ناظريه في قصره الفخم بالزاهرة وفي الحدائق الغناء المحيطة به اذا به ينفجر باكيا ويصيح : ويل لك يا زاهرة . ليت شعري من الخائن الذي يكون خرابك على يديه عن قريب » .

فلما لاحظ الدهشة على من معه قال لهم : « والله لترون صدق ما قلت . وكأني بمحاسن الزاهرة قد محيت ، ورسومها قد غيرت ، ومبائنها قد هدمت ، ونحيت ، وبخزائنها قد نهبت ، وبساعاتها قد أضرمت بنار الفتنة » (١٠) .

لكن اذا كان مقدرًا لهد الثورة الحدوث فما الدافع عليها وما وسائلها ؟

هذا هو الشيء الذي لم يكن الناس يحسبون له حسابا ، غير أنه لا أقل من أنه كان يوجد أمر واحد يتفق الجميع عليه ألا وهو رغبة الكل في انتزاع السلطة من بيت المنصور ، على أنه يجب ألا ندهش من ذلك أبدا فالشعوب التي تدين بلولاء للسلطنة لايرضيها أن يستبد بالأمر أحد ما سوى السلطان نفسه ، كما أن جميع الوزراء الذين تولوا الملك بدلا من السلطان أصبحوا معرضين للسخط الشديد الذي لاتخمد جذوته مهما بلغ أولئك الوزراء من الكفاءة والأهلية ، ولاشك أن هذا التقدير

كاف تماما لتفسير المقت الذي أضمره الناس للعامرين اذ يجب ألا ننسى أنهم جرحوا عواطف الشعب وحاربوه في تعلقه وتمسكه بشرعية الحكم ، واذ كانوا حتى الآن قانعين بممارسة السلطة باسم الأمير الأموي الا أنهم أفصحوا عما يكتُمونه من التطلع الى العرش ، ففتح عليهم هذا الطمع باب الفتنة وأسخط الناس عليهم ، ولم يقتصر ذلك السخط على أن يكون من جانب أمراء البيت المالك وحدهم ، بل تعداهم الى الطبقة المتدينة الشديدة التمسك بالحق الشرعى ، كما تعداهم الى الأمة التى كان يعتقد - أو كان يجب أن يعتقد - أنها كانت شديدة التعلق بالأسرة المالكة . أضف الى ذلك أن أشرف البلاط كانوا يتوقون لأن يسقط العامريون عسى أن يؤدي هذا السقوط الى زيادة قوة الأشراف ، وكان رعاى العاصمة - فى الوقت ذاته - مستعدين لتأييد أية ثورة قبل حدوثها ما دامت تجيز لهم سلب الطبقات الموسرة واشباع الحقد الذى يكونه لها ، وربما كان هذا التغير الأخير هو الدافع لمبالغة الأثرياء فى التجبر ، وكانت قرطبة قد أصبحت اذ ذاك مدينة صناعية بها آلاف العمال ، وكان أفنه عصيان يؤدي الى جعلهم - فى غمضة عين - قوة بالغة الخطر ، وقد تؤدي الحال الى قيام حرب فظيعة بين الفقراء والأثرياء ، والظاهر أن الغفلة كانت سائدة فلم يتوقع أحد ما اقتراب هذا الخطر ، اذ لم تكن الطبقات الغنية ترى فى العمال غير فئة مرتزقة ، وكانت مؤمنة بعودة المياه الى مجاريها حالما يزاح عن كاهلهم عبء العامرين .

ومن ثم كان سقوط بنى عامر رغبة تكاد أن تكون عامة شاملة فى اللحظة التى مات فيها المظفر فى زهرة عمره فى سنة ١٠٠٨ م (صفر ٣٩٩ هـ) ، وخلفه أخوه (الناصر) عبد الرحمن بن أبى عامر ، وكان الناصر هذا شابا يمهته الفقهاء ويهدون مولده عارا لايمحى ، اذ كانت أمه ابنة أحد شانجين : أما قومس قشتالة أو ملك نفاة (١١) ، فكانوا لاينادونه الا بشانجول (١٢) أى « شانجة الصغير » ، فراحت هذه الكنية لقبها عليه فى التاريخ ، ثم أن سيرته كانت لا تسمح للناس أن يتناسوا أصله لانكبابه على الملذات ، اذ كان لايجزم عن شرب النبيذ جهرة ، وكان الجميع يتحدثون حانقين أسد الحنق عليه بأنه سمع المؤذن «حى على الصلاة» فقال : « لو قال حى على الكأس لكان خيرا له » (١٣) ، لذلك اتهمه القوم بأنه دس السم لأخيه المظفر ، ويقولون فى صدد هذا الموضوع أنه قطع تفاحة بسكين غمس أحد جانبيها فى السم تناول هو النصف السليم وأعطى أخاه النصف الآخر (١٤) .

ربما لم يخل الأمر من أن فى هذه الاتهامات شيئا - قل أو كثر - من الافتراء ، لكن الثابت هو أنه كانت تنقصه مواهب المنصور والمظفر

ومهارتهما ، على الرغم من أنه جرؤ على ما لم يجرؤ عليه أحدهما ، اذ تركا للخليفة الأموي لقب السلطنة لم ينازعاها اياه رغم أن زمام الأمور كان في واقع الأمر في أيديهما ، ولم يستطع أحدهما أن يقول انه الخليفة رغم تطلعهما الى هذا الأمر ؛

أما شانجول فقد أخرج الى الوجود ذلك المشروع باعتباره ولي العهد ، وفتح في هذا بعض الرجال البارزين لا سيما أبو العباس بن ذكوان القاضي ، و (أبو حفص) بن بزد الكاتب ، فلما تأكد لديه وقوفهما الى جانبه أفضى بطلبه الى هشام الثاني الذي يظهر - على الرغم من ضعفه الشديد - أنه أراد التمهّل لحظة في أمر خطير كهذا الأمر لأسيميا وأن الرأي العام مؤمن بالفكرة القائلة بأن النبي محمدا [عليه السلام] أشار الى أن الأمر لا يكون الا في معد ، وعمد الخليفة الى استشارة جماعة من الفقهاء ممن كانوا متأثرين بفكرة ابن ذكوان ، فأشاروا عليه بإجابة مطلب شانجول وأرادوا القضاء على تردده فرووا له الحديث النبوي القائل (١٥) « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » فحمل الخليفة نفسه على قبول ما طلبوه منه وبذلك لم ينقض شهر على وفاة المظفر حتى أعلن شانجول نفسه وليا للعرش بمقتضى عهد كتبه ابن برد (١٦) .

بلغ سخط القرطبيين ذروته في هذا العهد وتغنى الناس جميعهم بمثل هذا الشعر (١٧) :

ان ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عين عهد
وعاندا الحق اذ اقاما حفيد شانجبا ولي عهد
ومضى الناس يقصون في يقين جازم أن رجلا من الصالحين مر أمام
قصر الزاهرة فصاح (١٨) : « يا دار فيك من كل دار ، فجعل الله منك
في كل دار » .

ومجمل القول ان الحق على شانجول والكرامية له كانا له في كل مكان ، الا أن الثورة المسلحة لم تكن قد قامت بعد اذ ترك الشعب التهديد وأمسك عنه نظرا لمجيء الجيش ، حتى رحل ، فخدع شانجول نفسه بالهدوء الظاهري الذي ساد البلد ، وأفصح عن رغبته في شن حملة على مملكة ليون ، فلما كان يوم الجمعة ١٤ يناير ١٠٠٩ م غادر العاصمة على رأس قواته وبدى له أن يعصب رأسه بعمامة كانت في أسبانيا وقفا على القضاة والفقهاء وأمر رجاله بالاعتداء به ، فرأى أهل قرطبة في هذه النزوة انتباكا جديدا لحرمة الدين واستهانة بحماته (١٩) .

بعد أن عبر « شانجول » الحدود حاول عبثا ارغام « أدفونش » الخامس على النزول من الجبال التي كان معتصما بها ، لكن هبت العواصف

الناجية فاستحال السير ، واضطر [أبو المطرف] الى العودة ، لكنه لم يكد يصل الى طليطلة حتى ترامت اليه الأنبياء بشبوب الثورة في العاصمة .

وترأس الحركة أمير من البيت الأموي اسمه محمد وهو ابن هشام الذي قتله المظفر ، وبالتالي كان ابن حفيد عبد الرحمن الناصر ، وكان متخفيا في قرطبة كي لا يلاقى الرجل الذي قتل أباه ، وتعرف هذا الشاب في تلك الفترة بكثير من رجال الشعب حتى استطاع تكوين عصابة من أربعمائة رجل جسور وذلك بفضل ما بذله من المال الذي لم يبخل به على أحد وبفضل المساعدة التي لقيها من فقيه ورع يسمى الحسن بن يحيى ومعاونة كثير من الأمويين له ، ووصل خبر هذه المؤامرة الى سمع عامري هو ابن عسقلجة الذي وكل اليه شانجول حكومة قرطبة أثناء غيابه عنها ، وكانت الأخبار التي بلغت شانجة غامضة مبهمه ، لكنه أخذ في تفتيش عدة بيوت شك فيها فلم يعثر قط على شيء .

أما محمد بن هشام بن عبد الجبار فقد حدد يوم الثلاثاء خامس عشر فبراير (= ٢٦ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ) لتنفيذ مشروعه ، واختار ثلاثين من أشد رجاله جرأة وأمرهم باخفاء أسلحتهم تحت برانسهم والذهاب مساء الى السطح القريب من القصر الخليلي .

ثم جمع العلماء وبعض الرجال البارزين وطلب اليهم تحرير عهد بالتنازل ووقعه هشام بيده وأمضى محمد بقية الليل في القصر ، فلما كان اليوم التالي استوزر أحد أقاربه ووكل الى أموي آخر أمر حكومة العاصمة وأناط بهما أن يدونا في سجل الجند كل من يرغب في الانخراط في سلكه ، فكانت الحماسة عظيمة وشاملة الى درجة أن الجميع بادروا الى قيد أسمائهم في ديوان الجند ، وتسابقت طوائف الشعب من التجار والأغنياء والمزارعين في القرى وأئمة المساجد والزهاد والمتقشفين الى السلاح تأييدا له وكانوا متاهبين لبذل دمائهم دفاعا عن الأسرة الشرعية ضد الفاسق الذي يريد اغتصاب العرش .

وحينذاك ندب محمد بن هشام كبير وزرائه للشخص الى الزاهرة للاستيلاء عليها ، ولم يفكر العسكر القائمون في الدفاع عنها بل سرعان ما أعلنوا ولاءهم للخليفة الجديد وسألوه العفو عنهم فأجاب ملتسمهم بعد أن أغلظ في تأنيبهم لرضائهم عن مشاريع شانجول الطماعة .

بهذا انهارت في أقل من أربع وعشرين ساعة قوة العامريين ، ولم يكن أحد يتوقع هذا النجاح السريع لخصومهم ، وعم السرور قرطبة لاسيما بين طبقات المجتمع الدنيا ، ولما كان الشعب سريع الغضب سريع الرضا فقد رأى أن ذلك فاتحة خير . لكن اذا كان رجال الطبقة

الوسطى قد كرهوا ظروف هذه الثورة الواسعة الخطرة الا أنهم حرصوا على المساهمة فيها بنصيب ، وكانوا يرون أن استبداد ابن أبي عامر المستنير قد هيا للبلاد رخاء مستحبا ومجدا حريبا قد يكون أحسن من الفوضى والاستبداد العسكري الوحشي الذي كان موشكا أن يمرض عليهم .

غير أنه لم يحدث شيء من الفوضى التي تصحب في العادة كل ثورة تقوم بها العامة .

أما محمد فلم تكن لديه حينذاك السلطة الكافية لكف القوم عن السلب ، ولما كان مدركا ما هو موشك على الوقوع فقد أمر بنقل الخزائن وكل ما بالزاهرة من غال وثمان إلى قرطبة ، غير أن يد النهابين كانت أسبق منه في الامتداد إليها فحملوا كل ما في القصر حتى الأبواب والألواح الخشبية ، كما امتدت يد السلب إلى كثير من دور أتباع المنصور وأسرته ، وظل محمد - أربعة أيام - عاجزا لا يملك القدرة على عمل شيء ما يؤدي إلى كبح جماح هؤلاء اللصوص ، لكنه نجح أخيرا في ردعهم . وكانت الثروات المتجمعة بالزاهرة عظيمة جدا حتى لقد بقي بها بعد ذلك من النقد مائون ونصف مليون دينار ، ومن الدراهم مليونان ومائة ألف درهم ، هذا غير ما حمله الناس ، كذا عثر القوم بعد قليل على مخابىء بها مائتا ألف دينار ، وحين أصبح القصر خاليا من كل شيء أضرموا فيه النار ، و ما لبث أن عاد كومة من الأنقاض .

في هذه الأثناء قرىء على الشعب الموجود بالمسجد عقب صلاة الجمعة (١٨ فبراير) منشوران رسميان ، اشتمل أولهما على تعداد كبائر شانجول والأمر بلعنه في الصلوات العامة ، وأما ثانيهما فكان خاصا بإلغاء كثير من الضرائب التي فرضت منذ عهد قريب ، وما انقضت ثمانية أيام بعد هذا الحادث حتى أعلن محمد على الشعب تلقيبه بالمهدى بالله ، وهو الذي سنتعته به دائما ، ولما نزل من على المنبر نودى بالخروج لقتال شانجول ، وكان لهذا النداء أثره العجيب إذ سرت حماسة العاصمة إلى الأقاليم ، ولم تنقض فترة وجيزة حتى خرج المهدي بالله على رأس جيش كثيف جدا ، لكن لما كان الشعب هو الذي قام بالثورة فقد كان راثبا في صرف القيادة عن القادة القدماء الذين ينتمون إلى البلاط السابق ، فاختر كبار الضباط من رجال الشعب ومن الطبقة الوسطى ، فكننت ترى فيهم المطيبين والحاكة والسروجية ، وهكذا ظهرت أسبانيا لأول مرة في مسوح الديمقراطية ، وفقد العامريون والإشراف كل ما كانوا يتمتعون به من قوة وجاه .

وما كاد يصل الى سمع شانجول - وهو في طليطلة - خبر هياج العاصمة حتى حمل على قلعة دباح ، وأجمع العزم على القضاء على الثورة بالقوة ، غير ان أكثر جنده أخذوا في الانفضاض عنه اثناء زحفه ، فلما طلب الى البقية من العسكر ان تقسم له يمين الولاء رفضت طلبه قائلة نه قد تقدمت له بيعة في أعناقها فليس هناك ما يدعو الى تكرارها ، بل لقد كان ذلك رد البربر أيضا وهم الذين أظفروهم العامريون وملثوا أيديهم بالمال حتى لقد اعتقد شانجول أن في استطاعته الاعتماد عليهم جاهلا أنهم لم يتجملوا أبدا يشكر يد المنعم عليهم والاخلاص له ، ودفعهم نفهم بضياح السلطان الذي أوجدهم والتفكير في الاحتفاظ بشروانهم الى المسارعة في الخضوع للخليفة الجديد ولم يحاولوا ستر جنسهم هذا فقد نادى شانجول أحد قادتهم - واسمه محمد بن يعلى الزناتي - واستفسره عن شعور الجند من ناحيته فرد عليه قائلا : « اياك أن نغتر فليس والله يقاتل عنك أحد من زناته ، والناس لهم تبع » .

فسأله شانجول الذي لم يكن يتوقع بحال من الأحوال مثل هذا الرد على الرغم من أنه كان يعرف من قبل مدى ولاء فريق من الجند له « وما الدليل عليه ؟ » فأجابه : « مر بتقديم مطبخك الى طريق طليطلة ونظاهر بالرحيل اليها فتعلم من يتبعك ومن يتخلف عنك » ، فقال شانجول متحسرا « صدقت » .

قال ذلك دون أن يجسر على التثبت من صحة الدعوى التي قالها له الزناتي البربري .

* * *

غير أنه في وسط هذه الحيانة العامة بقي هناك صديق واحد ظل على الوفاء له ، ذلك هو حليفه الليونى « كونت كاريون » من أسرة قومس (٢٠) فقد قال له ذلك الرجل النبيل :

« الرأى عندى أن ترحل وأرحل معك بأصحابي الليلة » .

فأجابه شانجول : أنا أرجو ان لويت على قرطبة أن تختلف الكلمة عليه (٢١) وان يكون لى منهم أنصار يميلون الى « .

فقال الكونت : « خذ باليقين ونح الظن فأمرك والله مختل ، وأحوالك منتقضة وأمورك مدبرة ، وجندك عليك لا لك .. » ، فأجابه العامرى : لا بد من الاشراف على قرطبة « فقال الكونت « أنا معك على كراهة لرأيك وعلم بخطتك ، فان أنت عشت عشت ، وان مت مت معك » .

: حينذاك أصدر شانجول أمره [بمغادرة قلعة رباح] والزحف على العاصمة ، وبدى له ان يستريح في منزل بلغه اسمه « منزل هاني » فاغتنم البربر الفرصة وتسللوا لوذا تحت جناح الظلام ، فلما تنفس الصبح تلفت حوله فلم يجد غير غلمانه وعساكر القومس الذي كرر عليه الرجاء بقبول ما عرضه عليه من قبل فلم يستجب له أيضا هذه المرة ، واذ أصر الشباب في حماقة على المضى الى مصرعه فقد قال : « رغبت الى القاضى أن يأخذ لى أمانا من عند ابن عبد الجبار ، وقد ضمن لى ذلك » ٠٠ وفي مساء الخميس ٤ مارس (= ٢ رجب) وصل الى دير « شوش » فلقية في الغداة جماعة من الفرسان الذين أرسلهم المهدي لمقابلته فقال لهم شانجول « ما لكم على من سبيل ، أنا فى طاعة المهدي » فأجابه قائد الكوكبة : « اذن فاتبعنا الى قرطبة » فاستجاب شانجول للأمر كارها وساروا فى طريقهم حتى صادفوا بعد الظهر حاجب المهدي فى كتيبة كبيرة فاستوقفهم وبعث الى قرطبة بجريم شانجول وكن سبع نسوة ، ولما جرى بشانجول الى الوزير قبل الأرض مرارا أمام هذا الأموى فصاح به أحدهم « قبل جافر دابته » فأطاع ٠٠ كل ذلك وقومس كاريون صامت يرقب منتهى الذلة التى صار اليها هذا الرجل الذى اهتزت أمامه منذ قليل امبراطورية عظمى ، ثم جاءوه بجواد غير جواده وصاح الوزير : « من ينزع قلنسوته ؟ » فبادر بعضهم فنزعها وسار الركب فى طريقه ٠ وكانت الشمس قد انحدرت الى المظيب حين بلغ الجند محللتهم وتلقوا الأمر بشد وثاق يدي شانجول وقدميه فلبوا الأمر فى غلظة حتى صاح بهم « نفسوا عنى قليلا وأطلقوا يدي استرح ساعة » ٠

فلما أجابوه الى ما طابه أسرع فاستل خنجرا كان فى خفه غير أن الجند بادروا بامساكه قبل أن يرمى رميته فصاح به الحاجب « سنكفيكه » ثم طرحوه أرضا وذبحوه وفصلوا رأسه عن جسده ، ثم عادوا الى الكونت فقتلوه ٠

* * *

ولما كان اليوم التالى دخل الفرسان قرطبة وقدموا الى الخليفة المهدي بالله جثة شانجول محنطة فوطأها بسنابك جواده ثم سمرها على مقربة من باب القصر الى صليب وعلينا قميصه وسرواله ، وجعل رأسه المقطوع الى جانبها مرفوعا الى رمح ووقف الى جوار هذه البقايا البشعة رجل يردد بلا انقطاع :

هذا شانجول المأمون (٢٢) ، لعنه الله ولعنى وياه ٠

وكان هذا الرجل هو صاحب شانجول الذى عفى عنه المهدي على شرط

أن يكفر عن ولائه الذى أظهره لمولاه من قبل (٢٣) ٠

الفصل الرابع عشر

واضح الصقلبي يعلن تأييده للمهدى • تصرفات المهدي
الخطئة ضد الصقالبة العامرين والمتدينين • معارضة البربر
له • ادعاؤه موت هشام بن الحكم الخليفة • البربر بقيادة
هشام حفيد الناصر يهاجمون المهدي • القتال بين الجانبين في
القصر • هزيمة المهاجمين • زاوى الصنهاجى يجمع البربر
ضد المهدي • ترشيحه أمويًا للخلافة وموقف البربر منه •
استعانة الجانبين بشانجة القومس • تأييده للبربر الزاحفين
على قرطبة • وقعة قنطيش • خوف المهدي من البربر وإبرازه
هشامًا • سلبه ان يزحف على مدينة سالم • وقعة البقر
وانتصار القطلونيين ثم هزيمتهم • المهدي ينتقم من قرطبة •
الصقالبة يخلعون المهدي ويولون هشامًا مكانًا ويقتلونه •

الفصل الرابع عشر

المهدى والبربر وهشام بن الحكم

كان كل شئ في أول الأمر يبدو وكأنه يسير وفق ارادة المهدي بالله ، فقد بايعه القرطبيون بالخلافة واعترف به البربر ، ثم لم تنقض خمسة أيام على مقتل العامري حتى تسلم المهدي رسالة أنفذها اليه واضح أقوى الصقالية نفوذا وحاكم النغر الأوسط يؤكد فيها طاعته له ، ويفضى اليه بفرحته الكبرى لمصرع المعتصب وهلاكه ، ولم يكن المهدي ينتظر مثل هذه المبادرة السريعة من جانب واضح بالخضوع له وتأييده اذ كان يعرفه صنيعة المنصور وغرس نعمته ، وان ابن أبي عامر هو الذي أبلغه المكانة التي هو فيها الآن ، ومن ثم فسرعان ما أقر المهدي بتقديره لجميل واضح عليه فبعث اليه بالمال الوفير وأهداه جوادا فارها حسن الحلية ، ثم عهد اليه بحكومة النغر كله .

هكذا التفت كل الجماعات طوعية حول الحكومة منذ الساعة الأولى ، أو هكذا كان الظاهر على الأقل ، والحق أن الاجماع كان أقل مما يبدو، فقد تمت الثورة تحت تأثير نوبة حمى عنيفة اجتاحت القوم واعتري الشلل كل مظهر للتفكير الصحيح ، فلما هدأت الأمور بدأ الناس يدركون أن سقوط العامريين لم يضع حدا للمصائب ، ولم يعالج أخطاء الماضي أو يعوض خسائره ، فما زال الناس في ظل النظام الجديد يجأرون بالشكوى ويضجون ، كما أنه لم يكن للمهدي المواهب أو الفضائل التي تزكيه ، بل كان رجلا فاسقا فظا ميالا لسفك الدماء ، قليل الحصافة ، اذ ناصب جميع الأحزاب العداء ، فاستهل حكمه بصرف سبعة آلاف من جنده ، ولا مشاحة في أن هذه خطة كانت تمليها عليه الضرورة حتى لاتصبح قرطبة تحت رحمة الطبقات الدنيا ، الا أن ذلك العمل أغضب الشعب الذي استخفه الطرب لاستلابه الأموال الطائلة دون قيامه بعمل ما رغم افتخاره بأنه هو الذي قام بالثورة ، ثم لج المهدي في خطئه فأبعد عن

العاصمة جمهورا كبيرا من الصقالبة العامرين وعهد بوظائفهم الى صقالبة ممن يعملون في القصر ، فدفعهم ذلك العمل الى الارتماء في أحضان خصوم المهدي الذي لو أنه كان قد اصطنع قليلا من الفطنة لأمكنه ضمهم الى صفه ولحملهم على الوقوف الى جانبه وتأييده .

تم انه عمد في الوقت ذاته الى اهاجة حفيظة المندينين ضده ، اذ لازم القصر لا يبرحه عاكفا على ملذاته ، وأخذ المسلمون الأتقياء يشيرون في فزع الى اقامته المآذب التي تسمع فيها عاليا انغام الأرغون والمزامير ، حتى لقد كانوا يقولون أنه يفعل ما كان يفعله شانجول وسموه بالسفيه (١) وراحوا يصبون عليه اللعنات لأنه عكر صفو كثير من الأسر ، فهجوه كما هجوا سلفه من قبل ، وكانت غلظته عاملا على ضياعه لدى الرأي العام فقد حدث أن بعث اليه واضح برؤس كثيرين من سكان الثغور الذين رفضوا الاعتراف به فأمر أن ترشق بالزهور وأن توضح على شاطئ النهر تجاه قصره ، وكان يلذ له انعام النظر في هذه « الحديقة العجيبة » ، وطلب الى شعرائه نظم القصائد في هذا الموضوع ، وكان من بين من طلب اليهم ذلك صاعده الذي أصبح يتزلف الى أعداء العامرين بعد أن كان يداهنهم ويتملقهم .

اذا كان المهدي بالله قد أساء الى جميع طبقات الشعب من الصقالبة والمتدينين والعامية فانه من ناحية أخرى لم يحاول أبدا عمل شيء يجذب الى جانبه البربر الذين كانوا عصب حركته ، والواقع أن أولئك المحاربين الغلاظ كانوا مكروهين في العاصمة ، اذ لم يغفر الشعب لهم أنهم كانوا روح الفوضى وسر استبداد العامرين ، وكان المهدي يعرف انه ان يبسط عليهم حمايته فقد أضاع البقية الباقية له من المكائنة في نفوس الناس ، وكان يدرك في الوقت ذاته عجزه عن ردهم الى افريقية فكان ذلك يفرض عليه أن يسترضيهم ، لكنه لم يفعل شيئا من ذلك بل كان يغتنم كل فرصة لاطهار احتقاره لهم وكراهيته لهم فحرم عليهم ركوب الجياد ، ومنعهم من حمل السلاح ، وصرفهم عن دخول القصر فكان ذلك غفلة كبرى منه ، اذ كان البربر يعرفون قدرهم ويدركون خطرهم لما ألفوه من احترام البلاط وتبجيله لهم ، ثم انهم تعودوا أن يكونوا في الدولة الجماعة التي يعتد بها ، وفي ذات يوم نهبت العامة كثيرا من دورهم دون أن تحول الشرطة بينها وبين النهب ، فمضى زاوي وزعيمان من زعمائهما الى الخليفة وطابوا اليه في صاف معاقبة الجناة ، فانزعج المهدي من فظاظتهم وأفرجه ما ارتسم على وجوههم من الغلظة فراح يعتذر اليهم ، ثم أراد أن يفتأ غضبهم فأمر يقتل المحرضين على الفوضى التي ارتكبوها ، لكن ما كاد ينصرف عنه خوفا منهم حتى عاود خطته في التضيق على البربر والعمل على ازعاجهم .

وعلى الرغم من شدة طيش المهدي بالله الا أنه لم يتعام تماما عن حرج مركزه ، وكان أشد ما يخافه أن يأتي اليوم الذي يصير فيه اسم هشام بن الحكم صرخة لتأليب جميع الناقمين عليه ، ومن ثم صمم على أن يفهم الناس أن سجينه العظيم قد مات دون أن يقدم هو على قتله ، وحدث في ابريل سنة ١٠٠٩ م أن مات مسيحي شديد الشبه بهشام فحمل المهدي بالله جثمانه سرا الى الفصر وعرضها على جماعة تعرف هشاما ، وسواء أكان الشبه فويا جدا حتى خفيت الحقيقة على اليهود أنفسهم أم أنه استطاع اكتسابهم الى جانبه بالخديعة الا أن الثابت أنهم قرروا ان الجثة للخليفة السابق ، ثم استخدم المهدي بالله بعد ذلك رجال الدين والوجهاء والشعب وصلوا على الميت الراحل ، وشيع المسيحي الى مقابر المسلمين ودفن يوم الاثنين ٢٧ شعبان بين مظاهر التوقير الملوكية الواجبة ، أما هشام الحقيقي فكان اذ ذاك محبوسا بأمر المهدي بالله في قصر أحد وزرائه .

اطمأن بال-الخليفة الغافل [المهدي] من هذه الناحية وظن أنه أصبح حرا يفعل ما يريد ، لذلك قام في شهر مايو (رمضان) فأطبق في السجن - دون أن يعرف أحد السبب - بسليمان بن عبد الرحمن الثالث الذي كان قد نودي به قبل ذلك بزم من قصير وليا للعهد . زد على ذلك أنه أشاع عزمه على قتل عشرة من كبار البربر فكان هذا أكبر دافع للمغاربة على امتثاق السيف ، واذ ذاك قام هشام - أحد أبناء سليمان بن عبد الرحمن - ونشط لتكوين حزب من هؤلاء البربر ووجد الأمر ميسرا له ففسد ألف السبعة آلاف عامل الذين عزلهم المهدي جيشا كان على أتم أهبة للثورة ، وتجمع هؤلاء الرجال يوم ٢ يونيو ١٠٠٩ م أمام قصر هشام بن سليمان ونادوا به خليفة فسار بهم هشام الى خاراج البلد حيث انضم اليهم البربر وزحفت جموعهم على قصر المهدي بالله .

انتزع الخليفة [المهدي بالله] قسرا من ملذاته فسأل الجماعة عن مبتغاها فقال له هشام بن سليمان «ما فعلت بأبي وقد طرحته في مطبقك؟» ، وحينئذ رد المهدي على أسيره سليمان (بن عبد الرحمن) حريته ، وكم كان مخطئا اذ ظن أن هذا العمل كاف لتنديد شمل المجتمعين لأن هشاما طلب اليه التخلي عن العرش فأخذ المهدي بالله في محاورته رجاء كسب الوقت ، واستغرق الحوار فترة طويلة ضجر أثناءها العمال والبربر من طول سكونهم فمضوا يذهبون حوانيت « فحص السرادق » ويضرمون فيها النيران ، فهب القرطوبون لقتالهم لا يرومون من وراء ذلك نصره المهدي بل حماية أنفسهم من أن تمتد أيدي البربر الى بيوتهم بالنهب والسلب ، ولم يلبث أن قدم العسكر لنجدة المهدي ، واستمرت رحى المعركة

دائرة بين الجانبين مدة يوم وليلة ، غير أنه في صباح الجمعة ٣ يونيو ١٠٠٩ م اضطر البربر للنكوص على أعقابهم وقد عمهتهم الفوضى واضطربت صفوفهم ، فتعقبهم فريق من أهل قرطبة عند حدود وادي أرملاط ومضى فريق آخر فنهب بيوتهم وسبى نساءهم ، ونودي باجازه كل من يعود برأس بربرى • أما هشام - خصم الخليفة - فقد زج به فى السجن كأيبه من قبل وقتل (٣) •

ولما جمع البربر سماءهم فى النهاية أقسموا أن يكون انتقامهم عجيبا ، ولم يكن لهم من المهارة ما يؤهلهم لوضع خطة انتقامية ، غير أن الحظ واتاهم فكان فيهم زاوى ، وهو من أسرة صنهاجية حكمت فى افريقية القسم الذى عاصمته الميرون ، وكان زاوى أكثر زملائه البربر المحاربين رقيا وذكاء ، فرأى قبل كل شيء ضرورة البحث عن منافس للمهدى •

كان تحت يد زاوى رجل أموى اسمه سليمان - وهو ابن أخ لهتسام - الذى ساهم بنصيب فى وقعة عمه ثم صاحب البربر بعد ذلك فى فرارهم ، فاقترح زاوى على رفاقه مبايعته بالخلافة (٤) ، فرفض البعض مقترحه نافين عن سليمان كل كفاءة يمكن أن تزكيه لزعامة الجماعة ، وقالوا انه تنقصه الخبرة اللازمة لقيادة أى جيش على الرغم من أنه كان رجلا فاضلا فى نفسه ، كذلك أبى آخرون أن يتزعمهم عربى أيا كان هذا العربى ، واذاك قام زاوى - تأييدا لفكرته - باتباع طريقة لاشك أنها كانت جديدة على البربر ولكنها مألوفة عندنا حيث جمع خمسة رماح وجعل منها سلمة واحدة ودفعها لأقوى جندى من رجاله وقال له : « أجهد نفسك فى كسرهما كما هى » فعجز الجندى عما سأله اياه فقال له زاوى : « حلها وعالجها رمحا رمحا » فأنجز البربرى الأمر فى لحظته ، واذاك قال زاوى : « هذا مثلكم يا برابرة ، ان اجتمعتم لم تطاقوا ، وان تفرقتم لم تبقوا •• والجماعة فى طلبكم ، فانظروا لأنفسكم وعجلوا » فصاحوا جميعا : « نأخذ بالوثيقة ولا نلقى بايدينا الى التهلكة » فمضى زاوى فى كلامه آخذا بيد سليمان وقال : « بايعوا لهذا القرشى سليمان يرفع عنكم الأنفة فى الرياسات وتستميلوا اليه العامة بالجنسية » •

حينذاك أقسم الجميع يمين الولاء لسليمان وتسمى بالمستعين بالله، وعاد زاوى مرة أخرى فقال : « ان مثل هذه الحال لا يقوى على الاستطالة ، فليعد رئيس كل قبيلة منكم قبيله ، ويتكفل للسليمان بتقديهم ، وأنا الكفيل بصنهاجة » •

وتم طلب زاوى الذى انتحب بطبيعة الحال ممثلا لقبيلة
صنهاجة (٥) •

أما الخليفة سليمان فلم تكن له أدنى سلطة على البربر الذين انتخبوا
رؤساءهم دون استشارته ، والحق أنه لم يكن سوى دمية فى أيديهم
يجر كونها كيفما شاءوا •

زحف المغاربة بعد ذلك شطر وادى الحجارة (٦) ، فلما استولوا على
هذه المدينة عرضوا على واضح الانضمام اليهم وسألوه أن يفتح لهم أبواب
مدينة سالم فلم يستجب لعرضهم بل كر عليهم مهاجما إياهم بالنجدات
التي أرسلها المهدي إليه ، لكنه عاد مخذولا ، غير أن البربر لم ينعموا
بالنصر الذى حازوه لأن واضحا حرمهم من كل ذخيرة حتى لقد ظلوا
خمسة عشر يوما عدموا خلالها القوت غير خشاش الأرض فأوا - تخلصا
من هذا المأزق - أن ينفذوا الى شانجة قومس قسنتالة نفرا من رجالهم
يلحون عليه أن يتدخل لصالحهم ويعدونه بمحالفتهم إياه ما دام واضح
والمهدي عارفين عن السلم غير مستجيبين له •

ولما وصل نفر المغاربة الى مقر شانجة القومس وجدوا عنده سفارة
من قبل المهدي تحمل البه جيادا وبغالا وملابس وأحجارا كريمة وغير ذلك
من الهدايا ، كما وعدته هذه السفارة أن يتخلى له المهدي عن كثير من
المدن والحصون اذا هو مد يد المعونة الى خليفة قرطبة ، وهكذا تغبر
كل شئ فى أقل من شهر واحد ، ولم يعد المسلمون هم القوم الذين
يملون شروطهم على الامراء المسيحيين ، بل انعكست الآية فراح قومس
قسنتالة هو الذى يقرر مصير اسبانيا العربية •

لما أدرك الكونت حتمية الوضع عند جبرانه وعرف مبلغ ما اعترى قوة
المهدي من وهن تعيد للبربر بالانضمام اليهم اذا هم تخلوا له عن القلاع التي
وعده بها رسل المهدي ، فقبل البربر شروطه ، وحينذاك رد السفراء
الآخرين وبعث الى معسكر البربر ألف ثور وخمسة آلاف شاة وألف عجلة
من الدقيق وأنواع المأكول ، وبذلك أصبح البربر فى حال تمكنهم من شن
حملتهم ، وانضم اليهم الكونت برجاله ، وشرعوا فى الزحف على مدينة
سالم التي ما كاد البربر يقنربون منها حتى جددوا مساعيهم لجذب واضح
الى صفهم ، لكن نجاحهم هذه المرة لم يكن أكثر من نجاحهم معه من قبل
فقرروا عدم اضاءة الوقت وزحفوا رأسا على قرطبة فى يوليو ١٠٠٩ م
[ذو الحجة ٣٩٩ هـ] وتغلبهم واضح بفرسانه هاجمهم ، غير أنه اضطر
للفرار بسبب قتل الكيرين من رجاله ودخل قرطبة فى أربعمائة فارس ،

وسرعان ما انضم اليه أحد قادته بمائتي فارس آخرين ممن ساعدتهم
الحظ فنجوا من المذبحة .

لما علم المهدي بالله بزحف البربر على العاصمة فرق السلاح على
كل قادر على حماه ، وتحصن في سهل يقع شرقي قرطبة ، غير أن ما انطبع
عليه من الغفلة دفعه للخروج من مأمنه لمواجهة العدو بدلا من انتظاره ،
والتقى الجمعسان في « قنطيش » (٧) يوم ٥ نوفمبر ١٠٠٩ م
(السبت ١٣ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، وكانت كتيبة مؤلفة من
ثلاثين بربريا كافية لالقاء الفوضى في صفوف العدو المضطربة ، حتى لقد
أخذ ذلك الجيش المؤلف من العامة والعمال والفقهاء يدوس بعضه بعضا في
ارتداده السريع ، وتناوشت المئات منهم سيوف البربر والقشتاليين
كما ابتلعت أمواج الوادي الكبير منهم المئات ، حتى لقد قدر عدد القتلى
في هذه الواقعة المروعة بعشرة آلاف رجل (٨) .

ما كاد واضح يرى كل هذه الخسارة حتى ركض شمالا في فرسانه
الستمائة (٩) . أما المهدي فقد اختبأ في قصره ، لكن سرعان ما حاصره
البربر ففكر في انقاذ نفسه بارجاع هشام الثاني (بن الحكم) الى الخلافة
فأبرزه (١٠) من سجنه وأجلسه في مكان يراه فيه البربر وبعث اليهم
قاضييه ابن ذكوان يقول لهم على لسانه : « انما أنا قائم دون هشام بن الحكم
ونائب عنه : كالخليفة والحاجب ، وهو أمير المؤمنين » فضحك البربر من
رسالة القاضي وقالوا له : « سبحان الله يا قاضي ، يموت هشام بالأمس
وتصلي عليه أنت وأميرك ، واليوم يعيش وترجع الخلافة اليه ؟ وعلى كل
فالله محمود على سلامته ، أما نحن فلا حاجة لنا في امامته ولا نرضى
بغير سليمان » .

وحاول القاضي عبثا تبرير موقف مولاه ، وبينما هو في الكلام اذا
بقرطبيين يذهبون لتحية سليمان والاعتراف به الخليفة الشرعي عليهم بعد
ان أرهبهم وهو يهدد أسوارهم .

بينما كان سليمان (بن أخي هشام) يدخل العاصمة التي أخذ البربر
والقشتاليون يقتربون بها شتى الموبات اذا بالمهدي يشخص الى طايطة
للاختفاء بها في بيت رجل من أهلها اسمه « محمد الطليطلي » أمده
بكل ما يحتاجه لبلوغ هذه المدينة ، ولما كانت كل الأراضي التي بين طرطونة
ولشبونة لاتزال في يد المهدي بالله فقد أجاب سليمان شانجة حينما ذكره
بعهده له وعجزه عن الوفاء به في لحظته هذه لعدم استيلائه بعد على المدن
التي يطلبها منه ، لكنه جدد له اليمين بالتنازل عنها حالما تستسلم له ،
ومن ثم رحل شانجة عن قرطبة يوم [الاثني] (١١) ١٤ نوفمبر ١٠٠٩ م

(= ٢٢ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ) ، مستصحباً معه رجاله الذين أتروا
على حساب سكان المدينة .

لم يطرأ أى تغيير على حظ هتسام فقد عاد سليمان فحبسه فى المطبق
من جديد بعد أن أرغمه على التنازل له ، كما أذن بدفن جثة شانجول وفق
الشعائر المألوفة ، نزولا على رغبة الموالي العامريين القدماء .

كان المهدي قد بلغ فى ذلك الوقت طليطلة فأكرم أهلها
وفادته ، وأخذ سليمان فى الزحف لمهاجمته وبعث الى الطليطليين بجماعة
من الزعماء المدنيين يخيفونهم من غضبته عليهم اذا هم أوضعوها فى الفتنة
ودأبوا على العصيان ، فلم ترهبهم هذه التهديدات . ولما كان سليمان يكره
محاصرة مكان قوى مثل طليطلة بل يأمل أن تستسلم له من تلقاء ذاتها نسجا
على منوال غيرها من المدن فقد زحف على مدينة سالم ، وانضم كثير من
الصقالبه الى جيشه فى أثناء سيره واستولى على مدينة سالم دون اهراق
نقطة دم لأن واضحا كان قد أخلاها وارثد الى طرطوشة التى أنفذ منها الى
سليمان كتابا ينبئ فيه باعترافه بخلافته ان تركه مقيما حيث هو ، وكان
يرمى من وراء ذلك الى خديعة سليمان وأتباعه والى كسب الوقت ، وجازت
حيلة واضح على سليمان الذى وقع فى الأحبولة فترك له حكومة جميع
الشغور يصرف أمورها كيف شاء .

واذ أصبح واضح مطلق اليدين بادر الى عقد حلف مع القومسين
القطلوينين : ريموند صاحب برشلونة وأرمقند صاحب أرجيل بعد أن
تعهد لهما بالوفاء بكل ما طلباه منه ، ثم سار شطر طليطلة على رأس جيشه
وجيش آخر قطلوينى ، وعمل على الاتصال بقوات المهدي ، وحينذاك دعى
سليمان أهل قرطبة لحمل السلاح ، لكن لما كان هؤلاء لا يحبون العمل
تحت امره المغاربة فقد امتنعوا عن استجابته متذرعين بأنهم غير متأهبين
للحرب وطابق الخبر فى وقعة قنطيش .

أما البربر الذين كانوا يؤثرون ألا يكون فى صفوفهم جند من هذه
الجبلة فقد طلبوا الى سليمان أن يكل اليهم أمر كسب المعركة من أجله ،
فأجابهم سليمان الى مطلبهم ، فلما تقدموا وبلغوا عقبة البقر (١٢) وهى
محلة على بعد أربعة فراسخ من قرطبة التقوا بجيش خصمهم وكان قوامه
ثلاثين ألف مسلم وتسعة آلاف مسيحي، وجرى ذلك فى النصف الأول (١٣)
من يونيو ١٠١٠ (ذو القعدة سنة ٤٠٠ هـ) فجاء قادة سليمان وجعلوه
فى المؤخرة وطلبوا اليه ألا يبرح موضعه هذا أبدا حتى ولو وطأ العدو
تحت أقدامه ، ثم أخذوا هم فى مهاجمة القوات القطلونية ، غير أنهم تبعوا

لخطط هجوم الحرب الشرقية استدبروا العدو وطوقوه وكروا عليه كرة صدق ، وعلى الرغم من أوامر قواد سليمان اليه ألا أنه للأسف لم يدرك مرمى تدبيرهم الحربى هذا فما كاد يرى المقدمة تتقهقر حتى أيقن أن الهزيمة لحقت بهم فأطلق لجواده العنان ، واقتدى به من حوله من الفرسان ، بيد أن البربر عاودوا الهجوم على عدوهم بشدة فقتلوا ستين زعيما قطلونيا ، ومن بينهم أرمقند صاحب أرجيل .

لكنهم لما رأوا سليمان قد غادر مكانه عادوا الى الزهراء وبذلك كسب القطلنديون المعركة وأدى جهل سليمان وجنده الى هزيمته فى عقبه البقر التى كان من المتوقع أن يخرج منها ظافرا منتصرا لو أنه أدرك خطط قواده وامثل لأوامرهم ، وهكذا رجحت كفة القطلونيين ، والظاهر أن ذلك راجع لعدم مساهمة قوات واضح والمهدى مساهمة جديدة فى القتال .

ارتد المهدى الى قرطبة ، وهكذا قدر للبلد المنكود الذى نهب منذ ستة شهور على يد القشتاليين والبربر أن يذهب من جديد على أيدي القطلونيين .

ومضى المهدى يتعقب البربر الذين زحفوا على الجزيرة الخضراء فانبسطوا فيها يقتلون كل من يعترضهم ويسلبون القرى ، غير أنهم ارتدوا على أعقابهم حينما علموا أن عدوهم جاء فى آثارهم .

فلما كان يوم ٢١ يونيو ١٠١٠ (١٤) = الجمعة ٨ ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ) التقى الزحفان المتعاديان قرب المكان الذى يصب فيه نهر اوادى آدة فى الوادى الكبير ، وفى هذه المرة مسح المغاربة عار تقهقرهم فى وقعة البقر ، وفر جيش المهدى بالله تاركا فى ساحة الحرب القتلى وفيهم كثير من الصقالبة ، وما ينوف على ثلاثة آلاف قطلونى ، كما ابتعات مياه الوادى الكبير أعدادا ضخمة من الجند (١٥) .

عاد القطلونيون المغلوبون بعد ذلك بيومين الى قرطبة غاضبين لهزيمتهم ، فأمعنوا فى القتل فى وحشية غريبة ، لاسيما أنهم راحوا يقتلون كل من يشبه البربر بأى وجه من الوجوه ، فلما طلب المهدى منهم معاودة القتال الى جانبه مرة أخرى رفضوا طلبه محتجين بفداحة الخسائر التى حاقت بهم مما لا يسمح لهم بالقتال ، ثم انصرفوا عن قرطبة يوم ٨ يوليو ١٠١٠ م (= السبت ٢٣ ذو القعدة سنة ٤٠٠ هـ) ، وعلى الرغم من جميع المساوىء التى ارتكبها القطلانيون فقد انزعج الأهالى لرحيلهم ،

اذ لم يكن ثم خطر يفوق خطر البربر الذين كان في استطاعة القطلانيين وخدمهم دفعهم ، حتى ليقول مؤرخ عربى بعد رحيلهم « كان لاهل قرطبة لفراقهم أكبر هم ، حتى كان بعضهم يلقي بعضا فيعزبه كما يعزى من فقد أهله وماله ، أسفا على رحيلهم وجزعا من وصول البربر اليهم » .

فرض المهدي بالله على المدينة غرامة فادحة تمكنه من دفع رواتب جنده ، ثم زحف على العدو ، لكن جيشه كان قد فقد شجاعته مند رحيل القطلانيين عنه ، فلم يكذ رجاله يقطعون سبعة فراسخ حتى اعتراضهم خوف شديد لمجرد تفكيرهم في أنهم سوف يواجهون بعد قليل أولئك البربر المخيفين فانقلبوا على أعقابهم الى قرطبة ، ومن ثم كان على المهدي انتظار العدو في العاصمة التي خندقها وسورها ، غير أن القدر شاء أن يكون سقوطه على يد الصقالبة وليس على يد البربر .

كان تحت راية المهدي بالله جماعة من الصقالبة وكبيرهم واضح ، أما البقية الأخرى منهم - وفيهم خيران وعنبر - فقد انقادوا لمناوئيه ، وشعر جميع الصقالبة بضرورة اتحادهم معا رغبة في تحقيق أهدافهم ومطامعهم ، ألا وهي أن تكون « القوة » في أيديهم ، فصمموا أن يجلسوا على العرش هشاما الثاني مكانه في كرسى الخلافة ، ومن أجل تحقيق هذه الخطة عمل واضح جهده على اثاره سخط سكان العاصمة وأخذ يبالح في الارجاف بأخبا ترتعلق بحياة الفسق والفجور التي يحيها « السفية » ، ومضى يقبح لدى العامة الفوضى التي يرتكبها الجند ، هذا مع أنه كان في الوقت ذاته يشجعهم عليها سرا ، ولما أفسدت هذه المكائد البقية الباقية من حب الشعب للمهدي بالله تقدم خيران وعنبر وبقية قادة جيش سليمان من الصقالبة الى المهدي يعرضون عليه خدماتهم ، فتعجل هذا بقبول عرضهم ، لكن ما كاد هؤلاء المرتزقة يدخلون قرطبة حتى أدرك أنهم يتآمرون به ، ولما كان عاجزا عن مقاومتهم فقد صمم على الاعتصام مرة أخرى بطليطلة ، فحال الصقالبة بينه وبين ما يريد ، وفي يوم الأحد ٢٣ يوليو ١٠١٠ م (= ٨ ذى الحجة سنة ٤٠٠ هـ) ركبوا في شوارع قرطبة ينادون بهشام الثاني ، وأخرجوه من سجنه وأجلسوه على كرسى الخلافة ونادوا بشعاره .

كان المهدي بالله في هذه اللحظة في الحمام ، فلما نعى إليه خبر ما جرى انطلق لساعته الى دار الملك ليجلس الى جوار هشام لولا أن جذبه عنبر جذبة شديدة من ذراعه وأنزله عن العرش وأرغمه على الجلوس بين يدي هشام الذي أنبه في لهجة عنيفة قاسية على ما ارتكبه في حقه وما أنزله به من المصائب ،

ثم تقدم عنبر فأمسك بالمهدى من ذراعه وطرحه أرضا واسسثل
السيف ليضرب به عتقه ، وحينذاك طوقه المهدى ، فلما رأى بقية الصقالبة
ذلك المنظر أقبلوا عليه يتناوشونه بسيوفهم فهبروه بها حتى مات ،
ثم سحبوا جثته الى الرصيف الذى وضعت فيه جثة ابن عسقلجة قبل ذلك
بسبعة عشر شهرا .

وهكذا اذا كان قد صعد العرش بمؤامرة فان هناك مؤامرة اخرى
تليق بالعرش والحياة معا (١٦)

الفصل الخامس عشر

الكراهية ضد الصقالبة • في العاصمة • سليمان يطلب
النجدة من شانجة كوند قشتالة • استرداد شانجة بعض
القلاع من غير حرب • ضراوة البربر ضد قرطبة والزهاء
محاولة الصقالبة الانتقام • مقتل حابسة بن أخى زاوى •
استبسال القرطبيين فى الدفاع عن مدينتهم • عودة سليمان
للقصر الخلفى •

الأندلس بين الصقالبة والبربر

كان الصقالبة يبلغون أقصى القوة إذا كان الحاكم شديد الضعف كما هو الحال إزاء هشام الثاني ، فقد تطلع واضح الحاجب الـ حاكم أسبانيا كما فعل مولاة المنصور من قبل ، غير أن الظروف لسوء طالعها كانت غير الظروف السابقة فقد تبدلت الأمور ، وشتان ما بين واضح والمنصور ، وفي الواقع أنه لم يبد في بادئ الأمر شيء من المعارضة بالعاصمة التي لم يجزع أحد فيها لمصرع الطاغية المهدي بالله الذي طيف برأسه في الشوارع دون أن تلوح بارقة من التذمر ، وسرعان ما تبين واضح انهيار إمله في اللحظة التي كان فيها اعتراف البربر بالحاكم الذي ألبسه التاج ، فقد اشتد بهم السخط عليه حينما بعث اليهم برأس المهدي رجاء العودة إلى طاعة هشام ، وهبوا بأن يفتكوا بحامل الرسالة لولا توسط سليمان في الإبقاء عليه حتى لقد بكى سليمان نفسه أسفا على منظر رأس ابن عمه ، ومن ثم غسله وأرسله إلى عبيد الله بن المهدي الذي كان موجودا إذ ذاك بطليطلة .

تنبه واضح لموقف البربر ثم لم يلبث أن أدرك بعد قليل وجسود أعداء له داخل المدينة ذاتها ، ذلك أن بعض الأمويين كانوا كارهين للسيادة الصقلبية ، ورأوا أن تحقيق منافعهم الشخصية يتطلب منهم أن يكونوا إلى جانب سليمان فأوعزوا إليه سرا بوجود التقدم يوم ١٢ أغسطس (= ٢٧ ذو الحجة سنة ٤٠٠ هـ) إلى أبواب العاصمة ومن ثم يمكنونه منها ، فوعدهم سليمان بالحضور ، غير أن واضحا علم من خيران وعينر بالمؤامرة التي تدبر ضده ، فقبض على المتآمرين ولما كان سليمان قد خدح يوما يظهر فيه أمام أسوار البلد فقد هوجم بشدة واضطر إلى التراجع السريع (١)

كان واضح يأمل أن بسلس التراجع من شكيمه البربر فعاد لمفاوضتهم من جديد دون أن يحصل على نتيجة ما ، وفي هذه الأثناء طلب سليمان النجدة من حليفه القديم شانجة كونت قشتالة عارضاً عليه التنازل عن الحصون التي كان المنصور قد استولى عليها منه ، ولا ندرى عما اذا كانت هذه هي نفس الحصون التي وعده بها من قبل ، غير أن المؤكد هو أن الكونت وجد هذه المرة الوسيلة لزيادة رقعة أملاكه دون أن يكلفه ذلك ارسال حملة الى الأندلس .

لم تكن القلاع المنتفق عليها في حوزة سليمان بل في يد واضح ، ومن ثم فقد أفهمه شانجة بوجوب التخلي له عنها والازحف عليه في رجاله القشتاليين وانضموا الى جانب البربر ، فكانت مسئولية قبول ذلك الطلب أو رفضه أخطر من أن يتحملها واضح وحده ، فأرسل في طلب وجوه الناس وأفضى اليهم بفحوى رسالة شانجة وسألهم أن يمحضوه النصيح ويشيروا عليه بما يفعل ، فكان ردهم عليه أنه ينبغي عليه قبول هذا الطلب مدفوعين الى ذلك بخوفهم من رؤية البربر يهاجمونهم بمساعدة القشتاليين ، فتغلب ذلك على ما عندهم من روح الكبرياء القومي ، وفي شهر أغسطس أو سبتمبر ١٠١٠ م (= المحرم سنة ٤٠١ هـ) عقد واضح مع شانجة معاهدة أسلمه فيها - على حد قول الكتاب المسلمين - أكثر من مائتي خصم ، يذكر منها المؤرخون المسيحيون (٢) شانت شتين وكروتيا وليكوند وجرماز ووخشمة .

وسرت هذه الروح كالعدي فقد رأى أحد الكونتات الآخرين أن قليلا من الوعيد والتهديد كاف للحصول على بعض القلاع الحصينة ، فقام بدوره مهددا بانضمامه من ساعته الى جانب سليمان ان لم يجب الى مطلبه ، فلم يجزؤ أحد على رفض ما طلب ، وهكذا أصبحت الامبراطورية الاسلامية فريسة للفتن والانحلال ، كما راحت تسير في طريق التمزق .

فهل لازلنا قرطبة فرحين بسقوط بنى عامر ؟ وهل لازلنا يعدون يوم سقوط العامرين يوم فرحة لهم كما قد نستدل على ذلك من حماسيتهم الشهيدة في تأييدهم الثورة ؟

الواقع أنهم كانوا جد مخطئين لكبهم لم يكونوا يستطيعون التراجع ، فكان عليهم وسط الظروف المحيطة بهم أن يرضوا بطاظة هاماتهم أمام أعداء دينهم والرضوخ للسيطرة التي يريد البربر والصقالبة فرضها عليهم ومقاساة أهوال النهب والسلب على يد هؤلاء وهؤلاء .

ومجمل القول انه كان عليهم قبول كل ما تتعرض له الجماعات التي تسير من غير هدف محدد واضح ، ومن غير أن تكون لديها فكرة سياسية أو دينية تسعى لتحقيقها ، فبدفعا الطيش لأن تطرح بنفسها في أعصار الثورات .

الا أن أهل قرطبة لم يكونوا وحدهم في هذه اللحظة أكثر الناس معاناة لشدة وطأة البربر الذين حاصروا بلدهم قرطبة مدة شهر ونصف ثم حملوا علي مدينة الزهراء فاستسلمت لهم بعد حصار دام ثلاثة أيام فقط ، ويرجع سبب استسلامها الى خيانة أحد القادة فقد فتح لهم أبوابها يوم ٤ نوفمبر ١٠١٠ م (= ٢٤ ربيع الأول ٤٠١ هـ) ، وجرت مذبحه مروعة فكان ما أصاب الزهراء علي يد البربر كافيًا لأن يدرك منه القرطبيون ما يدخره لهم هؤلاء اذا كانوا لا يزالون في شك من مصيرهم ، فقد ذبحوا جند الحامية على بكرة أبيهم ، واعتصم الناس بالمسجد الذي لم يحترم البربر قداسته فلم يبقوا على أحد لاذ به : رجلا كان أم امرأة أم طفلا ، بل قتلوهم جميعا ، ثم أضرهم النيران في المدينة بعد ان استباحوها ، وبذلك لاقى الزهراء التي لم يكن لجمالها ضريب في أوربة ما لاقته منافستها فأصبحت كومة من الأنقاض .

ظل فريق من الجيش المغربي طوال الشتاء ينهب ضواحي قرطبة ويحول دون وصول الطعام الى المدينة ، فلما جرد سكان الأقاليم المجاورة من كل ما يملكونه تزامموا زرافات ، وجاوز عددهم عدد السكان وارتفعت أسعار الغلال ارتفاعا فاحشا استحال معه تموين هؤلاء فمات الكثيرون منهم جوعا وأصبحت الحكومة نفسها على شفا الافلاس لقلة دخلها حتى اضطر الحاجب واضح لبيع الجزء الكبير من مكتبة الحكم الثاني بثمان زهيد (٣) ، وان أخذت في الوقت ذاته جماعات قطاع الطرق تنهب الولايات فسقطت المدن الكبرى في أيديهم ، وكان أشد الأمور نكابة هو معاناة المسكان ما عانتها الزهراء ، وهكذا كان كل مكان باسبانيا مسرحا تمثل عليه أفجع المناظر ، فهجرت القرى حتى لقد كان المرء يسير بضعة أيام في الطرق التي كانت مأهولة من قبل فلا يصادف أي كائن حي .

وفي صيف ١٠١١ م (= ٤٠١ هـ) تفاقم بؤس الأندلس لاسيما قرطبة ، وكان هذه المدينة المنكوبة التي اجتاحتها الطاعون (٤) قد اطمأنت الى توالى المصائب عليها فإزدادت القوضى ، ونسب الجند الى واضح ما حاجي بهم من النكبات ، كما راح القائد الصقلبي ابن أبي وداعة - عدو الحاجب الشيعي - يعمل على اثارة السخط ضد واضح ، فقد سبه ابن أبي وداعة

على ملا من الناس ، وأدرك واضح اضطراب مكانته ، فندب شخصياً يدعى
أبا بكر للذهاب إلى سليمان والاتفاق معه على الصلح [ويشير عليه بمنازلة
قرطبة بعد رحيله عنها] ، فأثار هذا المسلك حفيظة الصقلية لذلك
ما كاد أبو بكر يعود بعد مفاوضات خصم الخليفة ويدخل قاعة الملك حتى
وثب الجند عليه ولم يدعوه يذكر الجواب الذي كان يحمله ، وذبحوه
في حضرة الخليفة وفي حضرة واضح الذي صمم في لحظة هذه على الفرار
إلى البربر ، غير أن خبر عزمه على الهروب تراسى إلى ابن أبي وداعة فحال
بينه وبين تنفيذه ، إذ جمع جنسده واقتحم بهم قصر الحاجب قائلاً له :
« لقد أسرفت في الأموال ، ثم تعتزم بعد ذلك على مصالحة البربر ؟ » ،
ثم ضربه بصفح سيفه ، ثم طرحت جثثته يسوم ١٦ أكتوبر ١٠١٠ م
(= ١٥ ربيع الأول سنة ٤٠٢ هـ) حيث طرحت من قبل جثتا المهدي
بالله وابن عسقلجة .

انقضى عام ونصف عام بعد ذلك قبل أن يضع العدو السيف عن
الصقلية والقرطبيين ، وفي هذه الفترة حكم ابن أبي وداعة المدينة بيد من
حديد وبقسوة متناهية ، وأزره الفقهاء كل المؤازرة فسموا حرب البربر
جهادا ، وأصاب المحاصرون شيئا من الغنم ذلك أنه في شهر مايو ١٠١٢ م
(= شوال ٤٠٢ هـ) وقع في أيديهم محارب بربري بارز هو
حباسة بن أخي زاوي ، إذ أخذ يضرب ذات اليمين وذات الشمال حتى
ألقى نفسه وسط محاربيه وإذا بحزام سرجه يرتخي وما كاد ينحني لشده
حتى سدد إليه صقلبي نصراني طعنة شديدة من رمحه أسقطته عن فرسه ،
وسرعان ما أجهزت عليه جماعة أخرى من الصقلية فحاول أخوه حبوس
انتزاع جثته من يد العدو فقاتلوه فلم يظفر ببقيته ، وحمل الصقلية
رأس حباسة إلى القصر يزدهيهم النصر وتركوا جثته للشعب الغاضب
الذي أضرم فيها النار بعد أن مثل بها أنفطع تمثيل وطاق بها الشوارع ،
فاشتد حق البربر وقالوا « سنثار لشيخنا ، وإذا أرقنا دماء القرطبيين
جميعا فلا نكون قد اكتفيننا بثأرنا » (٥) وإذا ذلك ضاعفوا من عنفهم ،
غير أن اليأس منخ القرطبيين قوة جبارة ، وخرج ابن أبي وداعة مبربرا
حتى أرغم خصومه على رفع الحصار ودفعهم عن اشبيلية ، لكنه عجز عن
أن يمنعهم من الاستيلاء على قلعة رباح ، بيد أنهم ما لبثوا أن عادوا إلى أسوار
العاصمة التي رغم استماتة القرطبيين في الدفاع عنها إلا أن البربر
استطاعوا ردم الخندق مما ساعدهم على السيطرة على الجانب الشرقي منها ،
لكن يظهر أن الحظ واتى القرطبيين مرة أخرى فقد أرغموا عدوهم على
التخلي عن الجزء الذي وقع في يده ، وكانت هذه آخر مرة ينتصر فيها
القرطبيون (٦) إذ دخل البربر المدينة من باب ضاحية شقندة بعد أن

رشوا أحد الضباط ففتح له ذلك يوم الأحد ١٩ إبريل ١٠١٣ م (= ٥ شوال سنة ٤٠٣ هـ) ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها الطويلة سيلا من الدماء الجارفة ، فقد ارتد الصقالبة فاشلين وأخذ البربر يجوسون خلال الشوارع يصيحون صيحات منكرة وانسابوا في المدينة مدمرين وسالين ومقتلين الناس ، وراح الأهالي الوادعون ضحية غضبهم الأعمى ، فكان من القتلى سعيد بن منذر خطيب جامع المدينة منذ أيام الحكم الثاني والذي زكاه فضله وورعه فأعيد اختياره (٧) ، وكان من القتلى أيضا مروان النعس من أسرة بنى حدير الشريفة الذي أحب قفشل فيس فجئ (٨) وطرحوا جثة العالم ابن الفرضى صاحب معجم التراجم القيم ، وكان ابن الفرضى (٩) قاضي بلنسية زمن المهدي ، وقد تحقق رجاؤه الذي تمناه في لحظة من لحظات الحماسة الدينية في أن يموت شهيدا فمات الميتة التي اشتهاها (١٠) .

وتعددت الضحايا حتى ليعجز المرء عن عدّها .

وفي نفس الوقت كانت النيران تشتعل وتلقى بأضوائها المشنومة على هذه المناظر المروعة ، وغدت أفخم القصور طعمة للنار حتى لقد قال ابن حزم (١١) فيما بعد : « انتزى أرباب الدولة على الناس وامتحنوهم بالاعتقال والترقيب والاعتزام الفادح والاستتار ، وأرذمت الفتنة ، وألقت باعها وعمت الناس » .

وفي اليوم التالي لاحتلال المدينة ذهب سليمان لامتلاك القصر الخلفي وجيء له بجميع القرطبيين الذين شاءت الصدفة البحتة أن ينجو من سيوف البربر ، وأوقفوهم على جانبي الطريق لتحتيته ، وعلى الرغم من أنهم كانوا مروعين من المناظر المؤلمة التي قدر لهم أن يشاهدوها فقد سعوا جهدهم للبهتاف له ، ولكنه هو كان يدرك حقيقة هذه الحماسة المصطنعة ، فقال متمثلا بقول شاعر قديم (١٢) :

يقولون لي أهلا وسهلا ومرحبا ولو ظفروا بي ساعة قتلونني

ولما بلغ القصر جاء بهشام الثاني وقال له : « أما كنت تبرات لي من الخلافة وأعطيتني صفقة يمينك .. فما حملك على أن نقضت عهدك وحللت عقدك ؟ » .

فضم هشام البائس يديه وأجاب : « اني مغلوب على أمرى متبريء من الخلافة ، ومسلم الأمر اليك وخالع لك نفسي » .

أما البربر فقد استقروا أولا في شقندة ، وبعد ذلك بثلاثة أشهر نفى جميع سكان قرطبة ماعدا الذين ينزلون الناحية الشرقية والميدان المسمى بالمدينة وصودرت أملاكهم ، وضمت الى المنتصر الذي احتل اذ ذاك البيوت التي نجت من الحريق، (١٣) .

- الفصل السادس عشر -

- تمزق وحدة البلاد • خلاصة الرأي في الخليفة سليمان
- كراهية الناس لظلمه • خيران الصقلبي يستولى على المرية •
- على بن حمود البربري وطهوحه الى الخلافة • هل هشام حي أم ميت ؟ قتل سليمان وتولية على بن حمود • انقلاب خيران عليه وتلويحه بلعي أموى للحكم • ترحيب القرطبيين بحاكم أموى • انقلاب ابن حمود عليهم ومصادقته البربر وأثر مظالمه • مقتله • مبايعة ابنة القاسم • خيران والمندر يختاران المرتضى الذى يرفضه زاوى • غدر خيران والمندر بالمرتضى • عدل القاسم فى الحكم • استكثاره من السودان يثير البربر عليه • فرار القاسم والنزاع الأسرى • ثورة أهل قرطبة • ابن أخيه يغلبه ويحبسه ثم يقتله خنقا • مبايعة عبد الرحمن المستظهر أخى المهدي بالخلافة •

الفصل السادس عشر

المنازعات والخصومات السموية

حول الحكم

استقل كثير من ولاية الأقاليم منذ اندلاع الفتن - بما في أيديهم ، وكان سقوط قرطبة في يد البربر آخر طعنة مزقت وحدة الامبراطورية فاستولى القواد الصقالبة على بعض المدن الكبرى في الشرق ، كما استقل زعماء البربر استقلالاتا فيما كان بيدهم من الاقطاعات أو الولايات التي أقطعهم اياها العامريون ، أما الشرازم القليلة الباقية من الأسرات العربية التي كانت لا تزال على شيء من القوة تؤهلها للاعتبار فقد تجاهلت الخليفة الجديد الذي كان سلطانه يمتد على خمس مدن كبرى فقط هي قرطبة واشبيلية ولبلبة وأكشومية وباجة .

كان هناك من المظاهر - وان قل - ما يدل على تبدل الأمور ، فقد كان البربر يتوقون للتمتع بالاموال التي أصابوها من جراء تخريب العاصمة وبعض المدن الأخرى ، كما أن سليمان نفسه - على الرغم من اضطرابه نحوض غمار الحرب مدة أربع سنوات - لم يكن أبدا بالشخص المحب للحرب بل كان على الضد من ذلك ، فعلى الرغم من أنه كان رئيس هذا النفر الوحشي الذي خرب كل الامبراطورية الا أنه كان رجلا ملؤه الانصاف والدمائة والكرم ، وكان محبا للأداب ، جيد النظم ، قد انطوت نفسه - تجاه المرأة - على الفروسية التي من مظاهرها احترامها لها واصطناعه الرقة حيالها ، وكان يعمل كل ما في جهده لايجاد جو من الهدوء بعد هذه العواصف ، غير أن سوء طالع أبي الا أن تشتد نعمة الشعب عليه من جراء فظاظة جنده الذين قصرت يده عن أن تنالهم بالعقاب ، لاسيما وأن خضوعهم له كان مرهونا باطلاق يدهم وفق ما يشتهون ، وكان الأندلسيون يرون فيه رجلا مغموز الايمان معدوم الناموس (١) ، وكافرا زنديقا مختصبا ، وأنه بلغ العرش على أكتاف البربر ومسيحيي الشمال أعني الجماعتين اللتين يفزع منهما الناس ،

وما كان أشد غفلته حين أنفذ الى المدن المختلفة الكتب ينبؤها فيها بأنه
معاملها بما عامل به قرطبة ان لم تعترف به (٢) ، فانصبت اللعنات عليه
من كل ناحية وقال في ذلك أحد الشعراء (٣) :

لا رحم الله سليمانكم فانه ضد سليمان
ذاك به غلت شياطينها وحل هذا كل شيطان
فباسمه ساحت على أرضنا لهلك سكان وأوطان

وقال أيضا :

حلفت بمن صلى وصام وكبرا لأغمدنها فيمن طغى وتجبرا
وأبصر دين الله تحيي رسوما فبدل ما قيد لإح منها وغبرا
فيا عجباً من عبسني منك برغم المصالي والعوالي تبتزوا
قلو أن أمرى بالخيار لبسدتهم وحاكمتهم للسيف حكما محررا
فأما حياة تستلذ بفقدهم وأما حيام لا نرى فيه ما نرى

هذه هي مشاعر الأندلسيين بل الصقالبة أيضاً الذين دأبوا على
الدعاء في الصلاة لهشام الثاني رغم كثرة الحاح سليمان وزجائه إياهم
بالدعاء له مكانه ، وأكد لهم أنه قانع منهم بهذا المظهر من الخضوع لا يبتغي
معه المزيد منهم (٤) ، هذا على الرغم من أنهم كانوا غير واثقين من بقاء
هشام حيا ، فقد تناقضت الاشاعات التي كثرت حول مصيره ، فمن قائل
أنه مات مقتولا على يد سليمان ، ومن قائل انه محبوس في قبو مظلم
يقال قصر ، وكان الناس أميل لتصديق الشائعة الثانية وترجيحها لأن العادة
يجرت بأن معتصب العرش لا يد وأن يظهر لجمهور العاصمة جثمان الذي
تخلى له عن العرش لو أنه مات ، ولم يحدث قط أن أطلع سليمان أحدا
عيا على جثة هشام (٥) ، لذلك ظل الصقالبة يحاربون باسم هشام ،
وكان من أظهرهم خيران .

ولما كان خيران هذا مولى للمنصور الذي ولاه أعمال المرية (٦) فقد
وكن الى الفرار من قرطبة حين دخلها البربر فمضوا في أثره فاضطر
لقتالهم ، ثم تخلت عنه قواته ممعنة في الفرار تاركة إياه في معمعان القتال
وأثرت منه دان فقد أثخنه جراحه ، حتى اذا اندملت هذه الجراح ووجد في
نفسه القدرة على المسير عاد الى قرطبة حيث أكرم وفادته صديق له من
المنتصرين ، وزوده ذلت الصديق بمبلغ من المال أعانه على العودة
للشرق حيث انضم تحت لوائه كثير من الصقالبة والأندلسيين الذين تمكن

بهم من الاستيلاء على المرية بعد أن حاصرها عشرين يوماً . وفي هذه الأثناء وجد حليفاً قويا في أحد قادة سليمان . ذلك هو علي بن حمود الذي يرح نسبه إلى النبي [عليه الصلاة والسلام] وكانت أسرته قد أقامت منذ قرنين في إفريقية فتبربرت ، كما كان هو نفسه ضعيف اللسان في العربية ، أو تولى حكم سبته وطنجة ، كما حكم أخوه الأكبر القاسم الجزيرة الخضراء . فكان علي بن حمود شبه مستقل في ولايته ، لكنه لم يقنع بما هو فيه بل كان يتطلع إلى الخلافة التي لم يجد إليها غير سبيل واحدة ألا وهي محالفة الصقالبة ، ففاتح خيران في هذا الأمر وأراد كسبه إلى جانبه بتدبير خرافة عجيبة إذ ادعى أن هشاما الثاني كان يشتغل بالملاحم ووقف على أن علويا أول اسمه « عين » يعيد ملك الأمويين بعد انقراضه ، وأضاف إلى ذلك قوله أنه سمع هشاما يتحدث عنه بعد سقوط قرطبة وبعث من سجنه من يقول « إن خاطري يحدثني بأن هذا الرجل يقتلني ، فإن فعل فخذ بثأري » فاستخف الفرخ خيران أن تهباً له مثل هذا المساعد وأمن بأن هشاما لا يزال حيا ، وقيل هذه الرواية دون بحث أو تحو ، ولما كان بن حمود وعده بارجاع هشام إلى العرش ان عشروا عليه فقد تكفل خيران بالاعتراف بأبن حمود ان قام الدليل على موت هشام (٧) .

حين اتفق الطرفان على هذه الشروط عبر علي بن حمود المجاز وطلب من عامر بن فتوح (الفائق) حاكم مالقة أن يسلمه المدينة ، ولما كان عامر مولى لمولى أموي (٨) ، ولما كانت الأمور تقتضى اتفاقه مع الصقالبة ولما كان يضم الكراهية الشخصية للبربر لأن أحد رؤسائهم سلبه رثته (٩) فقد أجاب طلب علي بن حمود الذي حمل بعد ذلك على (المنكب) حيث انضم إليه خيران بقواته ، ثم واصل الزحف على قرطبة .

لم يقتصر اعتماد علي بن حمود على الصقالبة وحدهم بل اعتمد أيضا على طائفة كبيرة من البربر الذين كانوا على وجه العموم قليلي التعلق بسليمان إذ لم ينادوا به خليفة إلا لأن الصدفة البحتة وضعتهم في طريقهم في اللحظة التي كانوا أحوج ما يكونون فيها إلى أحد الأعداء ، وكان أشد ما يبغضهم فيه هو لين عريكته وانعدام كفاءته الحربية التي هي ميزان تقديرهم للرجل ، وكانت الحال على الضد من ذلك من ناحية علي بن حمود فقد دفعته شجاعته إلى احتوائهم إياه فضلا عن كونه من أبناء جلدتهم ، وانضم إليهم زاوي أقوى زعمائهم وحاكم غرناطة إذ ذلك ، وهو الذي اجلس سليمانا على العرش وكان شديد الكراهية للأمويين عامة ، فقد قتل أبوه في معركة بإفريقية خاضها ضد جماعة من أنصار بني أمية وعلقت رأسه على أسوار قلعة قرطبة حيث ظلت باقية مكانها حتى استولى هو وأتباعه على تلك العاصمة وخرّبوها ، وكانت هذه جريمة لم يغفرها

أبدا للأمويين (١٠) ، وبذلك انضم زاوى الى على بن حمود الذى رفع علم الحرب ، وأثر مسلكه هذا على بقية البربر الذين أرسلهم سليمان لمحاربة منافسه فلم يقاتلوه ، وبرز أحدهم هذا المسلك بقوله : « اذا أردت يا أمير اكتساب الحرب فعليك أن تقودنا بنفسك » ، فطاعهم حتى إذا صاروا على كتب من معسكر العدو عملت الرشوة عملها فيهم. فأركبوا سليمان. بقلته وأسلموه الى خصمه .

وفى يوم الأحد أول يوليو ١٠١٦ م [٢٢ محرم ٤٠٧ هـ] دخل على وحلفاؤه العاصمة ، وكان أول هم خيران والصقالبية البحث عن هشام الثانى ، وراحت جهودهم فى هذا السبيل عبثا ، وكان ذلك بمن حسن طالع على الذى استقدم سليمان بين يدى الوزراء والفقهاء وسأله عما حل بهشام فأجاب سليمان فى ايجاز : « لقد مات » فقال على : « فأين لحدتموه ؟ » فدلهم سليمان على أحد القبور فنبشوه وأخرجوا جثة مولاه ، فما كان من الخادم الذى يؤكدون علمه بوجود هشام حيا فى هذه اللحظة الا أن أكد أنها جثته مدفوعا الى ذلك بخوفه من على بن حمود، بل لقد أراد زيادة البرهنة على ذلك فلاحظ ضرسا أسود فى فم الميت مؤكدا أنه كان لهشام مثل ذلك ، وأكد شهادته آخرون أرادوا اكتساب رضاه على عليهم أو لعلهم خافوا نقمته عليهم . وهكذا اضطر الصقالبية للاعتراف بموت السلطان الشرعى والاقرار بخلافة على الذى ضرب عنق سليمان وأمر بقتل أخيه وأبيه ، فلما وصلوا الى الأب قال له ابن حمود : « أهكذا يا شيخ قتلتم هشاما ؟ » فأجابه الشيخ التقى ابن السبعين الذى كانت العبادة شغله ولم يساهم قط فى الأحداث السياسية بقوله : « لا والله ما قتلناه ، وانه لحي يرزق » فعاجله على مخافة الجهر بما يفسد عليه خطته، وأمر الجلاد بضرب عنقه فضربه (١١) . ثم دفنوا الجثة التى زعموها لهشام - مرة أخرى - بجميع مظاهر التشريف الملوكية .

فهل حقيقة مات هذا الحاكم ؟

ان روح التحزب تلقى على هذه الناحية حجابا كثيفا لا يمكن اختراقه ، ومن المؤكد أن هشاما لم يظهر بعد ذلك أبدا ، وان الجثة التى قيل انها له كانت مزعومة .

غير أنه من ناحية أخرى لم يقدّم الدليل البين هل مات هشام على يد سليمان أم أنه لاقى حتفه فى عهد هذا الأمير . كما أن الموالى الأمويين الذين كانوا يعرفونه راحوا يؤكدون أن الجثة التى أخرجها على بن حمود لم تكن جثة هشام ، ومع أن سليمان نفسه صرح أمام كبار رجال قرطبة

بموت هشام منذ مدة الا أننا نشك في شهادته ، فلعل عليا مناه بالابقاء
على حياته لو أنه صرح به فما كان من سليمان أبدا سفاك دماء ولم يكن
يخطر بباله قط أن يقدم على جريمة أحجم عنها المهدي بالله رغم ضراوته ،
كذلك يجب أن نذكر انه كان لابنه لسليمان من أن يعرض جثة هشام على
أهل قرطبة - كما جرت العادة - لو أن هشاما مات في أيامه لا سيما وأن
ذلك يزكى صالحه .

وإذا كان الأمويون صادقين فيما ادعوه من أنه كان يستصغر (١٢)
شأن القرطبيين حتى انه لم يفكر في عرضها عليهم ، فقد تناسوا أنه كان
لا يستهين بالصقالبة بل كان يبذل كل ما في وسعه لحملهم للاعتراف
بخلافته ، لذلك كانت أحسن وسيلة تساعد للتغلب على معارضة لهم
هي أن يحملهم على الاقتناع بموت هشام .

ثم ان لدينا أخيرا شهادة أبي سليمان العجوز الذي أشهد الله على
أن هشاما لا يزال حيا يرزق رغم اصرار ابنه على مخالفته ، فهل كان
لهذا الشيخ الورع أن يكذب في اللحظة التي هو ماض فيها للملاقاة ربه ؟
اننا نستبعد ذلك .

هذا الى أن جميع الأحوال تحملنا على الظن بصدق ما كان يتحدث
به نسوة الحرير وخصيانه من قصص تتضمن كيف أن هشاما تمكن
من التسلل من القصر أيام سليمان ثم اختفى بعد ذلك في قرطبة حيث
أخذ يتكسب كعامل ومن هناك مضى الى الشرق . . . أهل كان لسليمان
يه في هربه بعد أن أقسم له ألا يكون سبب ازعاجه .

وهل ظل متصلا به ؟

وهل كان يدري مكانه ؟

ان أقوال أبي سليمان تدفع المرء على القاء هذه الأسئلة ، غير أننا
لا نستطيع الاجابة عليها اجابة قاطعة ، وعلى أية حال فليس من المستبعد أن
يكون هشام قد سئم استغلال اسمه في الدعوة الى الحرب على السنة
جماعة من ذوى الأطماع لم يدعوا له ظلا من السلطة فذهب للانزواء في
ركن مظلم من آسيا حيث أمضى بقية أيامه مطمئن البال مجهولا من الناس ،
ونعم ب حياة خالية من الأوجاع والأوصاب والمخاوف .

ومهما يكن الأمر فقد أخذ على بن حمود مقاليد الأمور في يده ،
وظن الناس أنهم قادمون على عهد أحسن من سابقه ، وعلى الرغم من أن
مؤسس الأسرة الحمودية كان نصف بربري فقد مال الى الأندلسيين ،
وأصغى في طرب الى قصائد شعرائهم التي لم يكن يفهمها فهما تاما ،

كما أنه لم يجعل بينه وبينهم حجابا فكان يجلس للاستماع لكل ما يريدون. قوله ، وقمع أعمال السلب التي كان البربر يقومون بها ، وأسرف في معاقبتهم على أنفه جرم يأتونه بسلب ما ليس لهم ، من ذلك مثلا ما حدث ذات يوم من أنه صادف أحدهم راكبا وأمامه سلة مملوءة عنبا فاستوقفه وسأله من أين له بهذا العنب فتردد الرجل لحظة وقال في اضطراب : « أخذته كما يفعل الناس » فدفع رأسه ضمن ما اختلس .

كذلك اتخذ علي بن حمود خطة نبيلة هي أنه رد على القرطبيين كل ما سلبه منهم البربر أثناء الفتن ، غير أنه لسوء طالع سكان العاصمة انقلب عليهم فجأة نتيجة لطمع خيران .

لقد أخلص له خيران في بادئ الأمر فتعقب دعاة الأمويين في ولايته بالحبس والتنكيل (١٣) ، ولو كان قد استمر على معاونته لعلى بن حمود لعاد الهدوء يرفرف على البلد ، لكنه أراد أن يمثل الدور الذي مثله المنصور من قبل ، فلما أدرك أن عليا ليس بالرجل الذي يرضى أن يكون دمية في يده كهشام الثاني فقد دبر مشروعا سعى من ورائه الى إعادة الأسرة القديمة كي يحكم باسمها ، وأخذ يبحث عن مدع يستعمله في هذا الغرض ، فلما كان حوالى شهر مارس (١٤) سنة ١٠١٧ م [= شوال / ذو القعدة سنة ٤٠٧ هـ] (١٥) وجد هذا المدعي في شخص ابن حفيد عبد الرحمن الثالث واسمه أيضا عبده الرحمن ويسكن بلنسية (١٦)، فوعده كثير من البربر بمد يد المساعدة اليه وكان من بينهم المنذر حاكم سرقسطة وهو من أسرة بنى هاشم فزحف شطر الجنوب مستصحبا معه حليفه ريموند كونت برشلونة ، ولما شعر على كذلك بخيانة القوم الذين كان يتجمل لهم . ولما تبين أيضا رغبة أهل العاصمة في رد الخلافة للأمويين رأى نفسه مضطرا لأن يسلط عليهم ما كان يمنعه عنهم حتى الآن وارتمى في أحضان البربر الذين كان يضطهدهم من قبل ، فأطلق لهم العنان فاستباحوا قرطبة كمدينة مغلوبة على أمرها وسار هو بنفسه على هذا المنوال ودفعته حاجته للمال الى فرض الضرائب الفادحة عليهم وقبض على جماعة كثيرين من أعيانهم ، من بينهم (أبو الحزم) بن جهور أحد أعضاء مجلس المشورة البارزين ولم يطلقهم الا بعد أن فدوا أنفسهم بمبالغ طائلة ولم يكنف بما أنزله بهم من المظالم بل أخذ في اتهانهم ، من ذلك أنه في اللحظة التي أطلق فيها سراجم وجاءهم خدمهم بدوابهم أمر من أخذ الدواب وتركهم ينزلون الى دورهم راجلين (١٧) .

كذلك لم يحترم علي بن حمود أوقاف المساجد التي أوقفها الأتقياء عليها، واشترى - لتحقيق ذلك بالثمن البخس - ذمة فقيه اسمه عبد الجبار ،

وبهذا أرغم الأوصياء على تسليمه الأوقاف فعم قرطبه الذعر ، وزحرت المدينة برجال الشرطة والجواسيس والوشاة ، وانعدم العدل ، ذلك أن القضاة كانوا أميل الى جانب الأندلسيين حين كان يعطف عليهم ، أما الآن فان تعلقهم بوظائفهم أدى بهم الى عدم الاصغاء الى شكاوى العامة من البربر مهما بلغت هذه الشكايات من الصحة ، وباع آخرون أنفسهم للخليفة حتى ليقول أحد المؤرخين المعاصرين لهم « صار شطر الناس اشراطا على سائرهم » فأقفر الشوارع من سالكيها ، ولم يكن يرى فى الغالب سوى تشاء حامت حولهم الشبهات يقادون الى السجون ، وأما من نجوا من القبض عليهم « فقد اختفوا فى الأقبية ، فان رغبوا فى شراء ما يحتاجون اليه انتظروا دخول الليل وتسربلوا به » . .

وأقسم على فى لحظة من لحظات غضبه على الأندلسيين أن يخرّب العاصمة بعد أن يتصيد أهلها ويبيدهم غير أن الموت أجله من يمينه ، ففي ١٠١٧ (= ٤٠٧/٤٠٨ هـ) زحف على وادى آش لتأديب العصاة ، غير أن الأمطار أرغمته على الارتداد على عقبيه ، وفى شهر ابريل ١٠١٨ م (ذى القعدة ٤٠٨ هـ) علم أن الحلفاء قد بلغوا جيان فأعد العدة لاستعراض جيشه يوم ١٧ منه (١٨) ليزحف بعد ذلك ، وفى اليوم المحدد طال انتظار الجند دون أن يطلع عليهم فلما مضى الضباط الى القصر للاستفسار عن علة غيابهم وجدوه مقتولا فى الحمام .

لقد اقتصرت هذه الجريمة ثلاثة من صقالبه القصر كانوا من قبل فى خدمة الأمويين ، ولم يكن واحد من هؤلاء الثلاثة يضم الكراهية الشخصية للسلطان بل كانوا موضع عطفه وثقته ، كما أنهم لم يقدموا على جرمهم تحت اغراء خيران أو القرطبيين ، ولما قبض عليهم فيما بعد وأدينوا أصروا على أنهم قتلوه من تلقاء أنفسهم لم يدفعهم أحد الى ذلك ، وتجلّى للعيان أنهم فتكوا به ليخلصوا البلد من طاغية لم يعد أحد يطيق استبداده .

ومهما كانت الحقيقة فقد استبشر أهل العاصمة لمقتل على وان لم يكن معناه القضاء على الحموديين ، فقد ترك من بعده ولدين أكبرهما يحيى حاكم سبتة والقاسم (١٩) متولى أمر أشبيلية ، وحدث أن مالت جماعة لاستخلاف يحيى مكانه ، ورأى آخرون أن الخير فى مبايعة القاسم لتقربه منهم ، وانتصر الأخيرون ، فما انقضت ستة أيام على موت على حتى دخل القاسم العاصمة وبايعه الناس .

أما خيران (الصقلبي) ومنذر (التجيبي) فقد دعيا جميع الزعماء

الذين يمكنهما الاعتماد عليهما الى اجتماع عقد يوم ٣٠ ابريل (= الأربعاء ١١ ذو الحجة سنة ٤٠٨ هـ) ، وقر المجتمعون - وهم كثيرون وأغلبهم من الفقهاء - أن تكون الخلافة انتخائية وأقرّوا اختيار عبد الرحمن الرابع ولقب بالمرتضى ، فلما تم ذلك ساروا الى غرناطة فلما بلغوها كتب المرتضى الى زاوى كتابا رقيقا يطلب منه الاعتراف بخلافته ، فلما قرىء الكتاب على زاوى رده بعد أن أمر كاتبه أن يكتب على ظهره (٢٠) « قل يا أيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولي دين » ، فلما وصل الكتاب الى المرتضى وجه الى زاوى رسالة تفيض بالوعيد جاء فيها « أنا خارج لكم فى وجوه من الافرنج والأندلسيين ، فماذا أنت قاعل ؟ » ثم ختمها بهذا البيت :

ان كنت منا فأبشر بخير أو لا فأيقن بكل شر

فرد عليه زاوى مقتبساً هذه السورة من القرآن الكريم (٢١) « ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر ، كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » ، فاستشاط المرتضى غضبا من هذا الرد وصمم على محاربتة .

غير أن خيران والمنذر عرفا أن المرتضى لم يكن بالشخص الذى يريدانه ، ذلك أنهما فى الواقع لم يكن يعنيهما فى قليل أو كثير حق الأسرة الأموية ، وانهما اذا كانا يحاربان من أجل أموى فانما يفعلان ذلك لقاء أن يترك لهما تدبير الأمور ، وأنف المرتضى تمثيل هذا الدور ولم يكن ليرضى قط أن يكون مسلوب السلطان ، بل لقد فرض رغائبه على قائديه بدلا من الرضوخ لهما ، ومن ثم أضمر الغدر به فعاهدا زاوى على التخلي عن المرتضى حالما تبدأ المعركة الا أنهما لم يفعلوا ما اتفقا عليه واستمرت الواقعة عدة أيام ، وأخيرا طلب زاوى من خيران الوفاء بعهدة ، فأجابه خيران : « انما نوقفت حتى ترى مقدار حربنا وصبرنا ، ولو أنا كنا معك فأثبت جمعك لنا ونحن ننهزم عنه ونخذله فى غد » .

فلما تنفس صباح اليوم التالى استدبر خيران والمنذر ظهرهما للعدو فى ثلة غير ضئيلة من رجالهما فأستخط ذلك الكثيرين لاسيما سليمان بن هود قائد الكتائب النصرانية فى جيش المنذر فلم ينهج نهج الجبناء بل مضى يرتب جنوده للمعركة فمر المنذر بجواره وصاح به : « النجاة يا ابن الفاعلة ، فلست أقف عليك » ، فأجابه سليمان (بن هود) :

« جئت بها والله صلحاء وفضحت أهل الأندلس » ، ثم لم يلبث أن تبع رئيسه حين أيقن باستحالة المقاومة .

لما هجر المرتضى أكثر جنده أخذ يقاتل في شجاعة اليأس المستميت ، وما لبث وقع في أيدي أعدائه ، غير أنه تمكن من الإفلات منهم والهروب الى وادي آش خارج حدود غرناطة ، لكنه قتل على يد جماعة من جواسيس خبران كانوا يترصدونه .

وكرر خيران عن تلك الخيانة الوضيعة المستنكرة بفشل شيعته إذ لم يعد الصقالبة في حال تمكنهم من ضم صفوفهم كجيش ، وأذعن سادة الأندلس لأعدائهم البربر ، ومع ذلك فقد نعمت قرطبة بالرفاهية التي يمكن الحصول عليها في ظل حكومة أجنبية ، وأوشك عهد الإرهاب ان يولى وحل محله عهد كان أقل اضطراباً وأسكن في الفتنة بفضل الحكومة القائمة ، إذ كان القاسم أميل للسلم والهدوء ولم يشأ أن يزيد من آلام القرطبيين باضطهاد جديد ، وأراد تناسي الأضغان القديمة فاستقدم خيران وصالحه ، وولى زهيراً الصقلبي - أمير مرسية - اقطاعات جيان وقلعة رباج وبياسة، وشك الناس في سنينته وقالوا انه شديد التعلق بالذهب النسيبي . ومهما كانت صفة مبادئه فانه لم يحاول فرضها على أحد أو التكلم عنها ، ولم يغير شيئاً من دولة الاسلام في الأندلس ، ويرجع الفضل الى اعتداله هذا في استمرار بقاء الأسرة الحمودية في الحكم رغم قلة عطف أهل العاصمة عليها . . . غير أنه كان من المحتمل أن يؤدي مرور الأيام الى أن يسحب النسيان ذبوله على ما لحق ساداتهم القدماء من النكبات لو لم توجد ظروف لم تكن لهم يد في دفعها عنهم أحييت الآمال الهاجمة .

لم تكن للقاسم ثقة في البربر فبحث عن أنصاره في غير صفوفهم ، وكان في خدمة البربر جمع كثيف من السودان فاشتراهم القاسم منهم واستقدم آخرين من افريقية ، وألف جنده من الفريقين واختص قادتهم بأرفع المناصب (٢٢) مما أسخط البربر عليه فقام يحيى ابن أخيه واستغل لصالحه تدمرهم منه وكتب لهم كتاباً يقول لهم فيه :

« ان عمي أخذ ميراثي من أبي ، ثم أنه قدم في ولايتكم التي أخذتموها بسيوفكم العبيد السودان ، وأنا أطلب ميراثي وأوليكم مناصبكم وأجعل الضيعة السودان كما هم عند الناس » فوعده البربر بالوقوف الى جانبه كما هو المنتظر منهم في مثل هذه الحال ، واذ ذاك غادر يحيى العنوة مع جنده وبلغ مالقة . وكانت تحت حكم أخيه ادريس الذي كان يؤيده في خطته ، وهنا تسلم يحيى رسالة من خيران الصقلبي الذي كان مستمداً على

الدوام لتأييد كل معتصب للعرش ثم لا يلبث أن يقلب له ظهر المجن عقب انتصاره ، وأشار خيران في هذه الرسالة الى ما أداه لأبيه من قبل وراح يعرض عليه خدماته ، فأشار عليه ادريس برفض هذه اليد قائلا له : « ان خيران رجل خداع » ، فأجابه يحيى : « نحن منخبذعون فيما لا يضرنا » ثم كتب الى والى المرية يخبره بأنه قبل عرضه ، وشرع يتأهب للزحف على قرطبة ، ورأى عمه أن الخير في الفرار ، وفي ليل ١٢/١١ أغسطس ١٠٢١ م (= ٢٨ ربيع الآخر سنة ٤١٢هـ) (٢٣) فر الى اشبيلية غير مستصحب معه سوى خمسة فرسان ، وبعد ذلك بشهر واحد دخل ابن أخيه العاصمة ولم تطل مدة حكمه اذ لم يتأخر السودان عن اللحاق بالقاسم ، وحذى حذوهم كثير من القادة الأندلسيين ، فتلفت يحيى أخيرا حوله فوجد أنه قد انصرف عنه كثير من البربر الذين أنفوا من غطرسه فأصبح مركزه اذ ذاك بالغ الخطورة حتى لقد كان يخاف أن يقبض عليه بين أونة وأخرى وهو في قصره ، واذا أراد الاطمئنان على نفسه فقد فر عن قرطبة متسترا بالليل ومضى الى مالقة فعاد القاسم بعدئذ ، وفي يوم ١٢ فبراير ١٠٢٣ م (= ١٨ ذى القعدة ٤١٣ هـ) صرفت اليه الخلافة مرة أخرى ، غير أن سلطانه كان مضطربا وقد أخذ في التضاؤل يوما بعد يوم ، ففي افريقية قام ادريس حاكم سبتة وانتزع منه مدينة طنجة التي كان القاسم قد عنى بتحصينها وبذل في ذلك جهدا كبيرا ، كما كان يعد العدة للرجوع اليها اذا فشل في التمكن من الحكم فيما وراء العدة ، كذلك استولى يحيى في اسبانيا على الجزيرة الخضراء وكانت بها زوجة عمه وأمواله ، ولم يستطع الخليفة الاعتماد في العاصمة ذاتها على غير السودان .

أما القرطبيون الذين لم يكتروا للصراع الناشب بين العم وابن أخيه فقد أغرتهم هذه الظروف على التحرك من جديد لأن فكرة التخلص من البربر كانت مسيطرة على كل النفوس ، وشاع الخبر بأن أحد الأمويين موشك على الظهور لاسترداد العرش فتسرب الخوف الى نفس القاسم من تلك الشائعة ، ولما كان اسم هذا الأموي مجهولا فقد أمر بالقبض على كل من يعثر عليه من الأمويين الذين تفرقوا اذ ذاك في البلاد ودخلوا في أغمار الناس .

بيد ان التدابير التي اتخذها القاسم لم تحل دون اندلاع الثورة اذ ان مظالم البربر أرهقت أهل قرطبة فامتشقوا الحسام يوم ٣١ يوليو ١٠٢٣ (= الأربعاء ٢٤) = جمادى الأولى سنة ٤١٤ هـ) ، وجرت معركة حامية الوطيس أمضى الفريقان بعدها معاهدة - أو بالأحرى هدنة - فيما بينهما واتفقا على أن يحترما الجانبان ، لكنها لم تكن طويلة المدى رغم محاولات القاسم اطالة أمدها باصطناعه اللطف مع الشعب ، ففي يوم

صلاة الجمعة نودى « الحرب • الحرب » فرددت جميع النواحي الدعوة وأخرج القرطبيون القاسم ورجاله البربر عن المدينة لا عن الضواحي ، فمضى القاسم الى المغرب وضيق الخناق على العصاة أكثر من خمسين يوما كانت الحرب خلالها حربا عنيفة فقل الطعام عند القوم حتى سألوه أن يأذن لهم بمغادرة المدينة بنسائهم وأطفالهم لكنه رفض طلبهم ، وحينذاك قام أهل قرطبة بعمل أملاه اليأس عليهم اذ خلعوا أحد الأبواب وانثالت جموعهم من المدينة يوم الخميس ٣١ أكتوبر (= ١٣ شعبان ٤١٤ هـ) . وحملوا بشدة على عدوهم الذى ركن الى الفرار وقد اختلت صفوفه وارتد القواد الى مقاطعاتهم ، ولجأ القاسم نفسه الى اشبيلية التى أغلقت أبوابها فى وجهه وخلعت طاعتها له ، وقد شجعها على ذلك موقف قرطبة فاضطر للخروج الى « شريش » ، لكن يحيى مضى اليه وحاصره بها وأرغمه على التسليم وبذلك انتهى دور القاسم السياسى واقتاده يحيى الى مالقة مكبلا بالحديد وأقسم ليقتلنه •

غير أن الوسواس أفضت مضجعه فتراجع عن يمينه اذ رأى فى نومه أباه يقول له : « أخى أكبر منى ، وكان محسنا الى فى صغرى ومسالما لى عند أمارتى ••• فإله الله فيه » • غير أنه أراد قتله وهو ثمل الا أنه كان كلما هم بالفتك به وكل الأمر الى مشورة ندمائه الذين أفضوا اليه ذات مرة ألا خطر عليه من عمه القاسم طالما هو فى الحيس ، وبذلك ظل القاسم سجينا ثلاثة عشر عاما فى قلعة من قلاع مالقة ، بيد أنه فى عام ١٠٣٦ م (= ٤٢٧ هـ) علم يحيى أنه يحاول دفع الحامية الى العصيان فقال : « أو بقى فى رأسه حدث بعد هذا العمر » ، ثم أمر بخنقه (٢٥) •

حين استرد أهل قرطبة استقلالهم فكروا فى تنظيم الأمور بهسا وترتيبها بارجاع الأمويين الى العرش دون اللجوء الى الثورة ، وفى شهر نوفمبر ١٠٢٣ م (شعبان رمضان ٤١٤ هـ) عقدت عدة اجتماعات وتبذلت الآراء فاقترح الوزراء على أبناء جلدتهم ثلاثة أشخاص ليختاروا منهم من يحبون ، أولئك هم : سليمان بن عبد الرحمن الرابع المرتضى ، وعبد الرحمن أخو المهدي بالله ومحمد بن العراقى وكان الكل على ثقة من اختيار سليمان فوضعوا اسمه فى أعلى القائمة وكتب أحمد بن برد الكاتب عهد التولية باسمه •

لكن نفوذ هؤلاء كان أقل مما هو متوقع ففشلوا فشلا ذريعا حين فاتهم أن يحسبوا حساب منافسه عبد الرحمن (أخى المهدي بالله) وكان شابا فى الثانية والعشرين من عمره حين أخرجه الجهوديون عن العاصمة لكنه تسلل اليها خفية قبل ذلك الاجتماع بزمن قصير ، وانتهز فرصة

هياج القرطبيين على البربر لتكوين جماعة تؤيده في طلب الخلافة ففشل.
في هذا المشروع . أما الوزراء الذين دبروا الثورة ولم يكونوا ميالين اليه
فقد زجوا برجاله في السجن ، وأطبق عليهم فيه حتى تمت البيعة بالانتخاب .
فأطلقوا .

كذلك حاول هؤلاء الوزراء القبض على عبد الرحمن نفسه غير أنهم
حينما أخذوا يعدون أسماء المرشحين للخلافة رأوا ضرورة ذكر اسمه مخافة
اغضب الكثرين من مواطنيهم ان هم تناسوه ، لكن لم يكن يخطر لهم ببال
أن يكون هذا الأمير منافسا خطيرا لسليمان ، لذلك كتبوا اسمه قريبا
بعض الشيء من السطر الذي كتبوا فيه اسم المنافس الثالث محمد
بن العرقس الذي لم تكن له أدنى مكانة في نفوس العامة .

حين وثق الوزراء من عملهم دعوا الخاصة والجند والعامة للاجتماع
في المسجد الجامع يوم أول ديسمبر ١٠٢٣ م [١٥ رمضان سنة ٤١٤ هـ]
لاختيار من يريدون ، وفي ذلك اليوم كان سليمان بن المرتضى أول من
وافى المسجد مستصحبا معه الوزير عبد الله بن مغاس وهو في أبيه
حلله ، والسرور ياد عليه لثقتة من أن العامة سوف تختاره ، فاستقبله
أصحابه أحسن استقبال والتمسوا منه أن يجلس على مرتبة أكثر ارتفاعا
خصصوها له ، ثم ما لبث عبد الرحمن أن دخل المسجد من باب آخر في
خلق كبير من الجند والعامة ، فما كادت جماعته تعبر عتبة الباب حتى
نادوا به بشعار الخلافة ، فدوت أرجاء المكان بالهتاف العالى .

أما الوزراء الذين لم يكونوا قسط يتوقعون هذا الأمر فقد ريعوا
وألجموا ، وصار من المستحيل عليهم الانتظار وسط هذا الحشد فبايعوا
عبد الرحمن بالخلافة ، واقتدى بهم سليمان الذي كان أكثرهم ذهولا
واضطرابا ، فأخذ القوم الى عبد الرحمن الذي قبل يده وجلس الى جواره .

أما المنافس الثالث محمد بن العراقي فسرعان ما أقسم له يمين
الولاء ، واذا ذلك قام الكاتب فمحا اسم سليمان من عهد البيعة ، وأثبت
مكانه اسم عبد الرحمن الخامس الذي تسمى بالمستظهر .

الفصل السابع عشر

حب المستظهر لحيبة بنت عمه سليمان ورفض أمها زواجها منه

• شعره • حياؤها وأدبها • ابن حزم •

واحة المؤرخ

ربما كان مؤرخ العصر الذى مزقته الفتن الأهلية وعصفت به الأعاصير
التهوجاء أحوج ما يكون للابتعاد قليلا عن مناظر الصراع التى كانت بين
الأحزاب والفتن الاجتماعية والدماء المهرقة ، وربما كن هذا المؤرخ أشده
الناس احساسا بالحاجة الى تهدئة خاطر والمضى به شطر مثل أعلى من الهدوء
والطهارة والأحلام ، وها نحن ذا نتوقف لحظة يتجه فيها تفكيرنا نحو
قصائد أملاها الحب الطاهر السليم على الشاب عبد الرحمن المستظهر
ووزيره ابن حزم ، فقد عبقت أشعارهما بعطر الشباب وامتازت بالبساطة
والرقة ، فهى تدخل على النفس بلا استئذان .

لذلك يطيب لنا أن ننصت الى هذه الأنغام العذبة الصافية وسط
تلك الفوضى الشاملة ، ونستمع الى ترجيع البلبل وسط العاصفة الهادرة .

كان عبد الرحمن لا يزال فى أمية صباه حين شغف حبا بحبيبة
ابنة عمه سليمان الخليفة لكنه لم يوفق فى هواه ، فقد عارضت أدها
زواجه بها ، وأفهمته الفارق بين مكائتيهما ، فنظم اذاك تلك الأبيات التى
سرت فيها روح الأنفة الجروحة جنبا الى جنب مع الوله العميق (١) :

وجالبة عذر التصرف رغبتى	وتأبى المعالى أن تجيز لها عذرا
يكلفها الأهلون رده جهالة	وهل حسن بالنسب أن نمنع البدر؟
وماذا على أم الحبيبة اذ رأت	جلالة قدرى أن أكون لها صهرا ؟
جعلت لها شرطا على تبدي	وسقت اليها فى الهوى مهجتي مهزأ
تعلقتها من عبد شمس غريرة	مخدرة من صيد آبائها غرا
حمامة عش العشميين رفرفت	فطرت البها من سرانهمو صقرا
لقد طال صوم الحب عنك فما الذى	يترك منه أن تكوثى له فطرا

وانى لأستشفى بمرى بداركم
والصق أحشائي ببرد ترابها
فان تصرفينى يا ابنة العم تصرفى
وانى لأرجو أن أطوق مفخرى
وانى لطعان اذا الخيل أقبلت
وانى لأولى الناس من قومها بها
وعندى ما يصبى الحليمة ثيبا
جمال ، وآداب ، وخلق موطناً
هدوءاً ، وأستسقى لساكنها القطر
لأطفىء من نار الأسى بكمو جمرا
- وعيشك - كفا مه رغبتة استرا
بملكى لها وهى التى عظمت فخرا
جرائدها ، حتى ترى جونها شقرا
وأنبههم ذكرا ، وأرفعهم قدرا
وينسى الفتاة الخود عذرتها البكرا
ولفظ اذا ماشئت أسمعك السحرا

ونحن نجهل كل شيء عن مشاعر حبيبته ، ولم يسعفنا الكتاب العرب
بشيء عن هذه الناحية ، ولم يتركوا لنا سوى صورة غامضة عن هذه
المسألة الرقيقة التى شاء الخيال أن يلون جوانبها ، ومع ذلك فيظهر أنها
لم تكن تنكر حب الأمير عبد الرحمن . فقد حدث أن صادفته ذات يوم
فخفضت عينيه أمام نظراته الملتببة ، واحمرت وجنتها خجلاً ، وأنساها
اضطرابها أن ترد عليه سلامه ، فأساء عبد الرحمن تفسير هذا الموقف
وعزاه الى حفاثها اياه وانصرافها عنه ، ولم يكن ما جرى الا حياء وصفة
وحينذاك أنشد :

سلام على من لم يجد بكلامه
سلام على الرامى الذى كلما رمى
بنفسى حبيب لم يجد لمحبه
ألم تعلمى يا عذبة الاسم انتى
وانى وفى حافظ لأزمتى
ولم يرنى أهلا لرد سلامه
أصاب فؤادى عامدا بسهامه
بطيف خيال زائر فى منامه
فتى فيك مخلوع عذار لجامه ؟
اذا لم يقم غيرى بحفظ زمامه

وليس ثم دليل على أن عبد الرحمن وفق فى الاتصال بحبيبته ،
والواقع أن سوء التوفيق لازمه فى حكمه ، وان كانت هناك فاتنة غيرها
عظفت عليه وان لم تبر بوعددها له ، مما تشهد به الأبيات التى وجهها
اليها وفيها يقول :

طال عمر الليل عندى
يا غزالا تقض السود
أنسيت العهد اذ بتنا
منذ تولعت بصدى
ولم يوف بعهدى
على مفرش ورد ؟

واجتمعنا فى وشاح . وانتظمتنا نظم عقيد
وتعانقنا كفضنين . وقداننا كقيد
ونجوم الليل تحكى ذهبنا فى لازورد (٢)

وكان لعبد الرحمن صديق يشبهه كل الشبه استجبه لنفسه ، ذلك هو على بن حزم الذى سكن أجداده كورة لبلة وأقاموا على نصرانيتهم حتى جاء جد أبيه حزم فاعتنق الاسلام ، ودفعه خجله من أصله لمحاولة محو كل أثر له ، فأفكر أسلافه ، وكذلك فعل أبوه أحمد الذى تولى الوزارة أيام العامين اذ دعى أنه مولى فارسى أطلقه يزيد أخو معاوية بن أبى سفيان (٣) . كما كان شديد الاحتقار لدين أجداده ، يستدل على ذلك مما جاء فى أحد فصوله عن الأديان (٤) من أن النصراني يقولون بثلاثة ويقولون بأن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد ، أحد هم الأب ، والثانى الابن والثالث الروح القدس ، وأن الأب هو الابن وأنه ليس بالابن وأن الناسوت هو الله وليس بالله ، وأن المسيح هو الله . ومن فرقهم اليعقوبية وهم مئات الألوف عدا ، ويقولون ان الله الخالق مات وصلب وقتل ، وأن العالم بقى ثلاثة أيام بلا مدبر ثم قام من بين الموتى ورجع .

لم تكن هذه التهكمات تهكمات رجل شاك بل مسلم شديد التمسك بدينه ، وكان ابن حزم من جماعة الظاهرية التى تنقيد كل التقيد بالنصوص وتعنى بتدخل العقل البشرى فى مشكلات القانون الفقهى كمسألة وجود البشر (٥) .

أما فى السياسة فقد كان ابن حزم من أنصار الأسرة الشرعية التى أصبح مولى لها بالنظر الى أصله المزعوم ، ولم يكن للأمويين مولى أشد منه اخلاصا لهم وتعلقا بهم وغيره عليهم ، ولما اعتلى على بن حمود العرش واستسلم له خيران كبير الصقالبة أدرك ابن حزم أن مستقبله قد ضاع لغير رجعة ، لكنه كان من الفئة القليلة التى لم يطر قلبها شعاعا ، فدأب على تدبير المؤامرات والدسائس رغم ما يحوطه من الأعداء والجواسيس لأنه كان يعتقد - شأن كل متحمس أن التريث هو عين الجبن ، ولما وقف خيران على مكائده ألقاه فى السجن بضعة أشهر ليرجع عن حماسته التى لم يعد ما يبررها ثم عاد فنفاه ، فاستعاذ ابن حزم بحاكم حصن القصر القريب من اشبيلية ، وبقي هناك حتى ورد الخير باختيار عبد الرحمن الرابع خليفة فى بلنسية ، وحينذاك أبحر ليكون فى خدمته واستبسل فى حربه فى الوقعة التى غدر فيها أصحاب المرتضى به ، واذ ذاك وقع فى يد البربر الغالبيين وظل فى أسرهم ردحا طويلا من الزمن (٦) .

وأخيرا جاء الوقت الذي عرف الناس فيه قدر ابن حزم حتى عد أعظم علماء عصره وأخصب الكتاب الذين أخرجتهم اسبانيا منذ زمن بعيد .
أما في اللحظة التي نتكلم عنها فلم يكن الناس يعدونه الا شاعرا أو أحد لهاميم الشعراء الذين أنجبتهم بلاد الأندلس العربية ، ومع ذلك فقد كان لا يزال في ريق الشباب ونضارة الحياة ، اذ لم يكن يكبر الشاب عبد الرحمن الا بشمانية أعوام ، وكانت لابن حزم هو الآخر قصة غرامه أيضا وهي قصة ساذجة رواها هو نفسه في صدق وصراحة ولفظ مستساغ .
لا تستطيع حياله الا أن نقلها بنصها حيث يقول : (٧) .

« ألفت في أيام صباى جارية نشأت في دارنا ، وكانت في ذلك الوقت بنت ستة عشر عاما ، وكانت غاية في حسن وجهها وعقلها وعفافها ، وطهارتها وخفرها ، عديمة الهزل ، منيعة البذل ، قليلة الكلام ، لا توجه الأراجى نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، وجهها جالب كل القلوب وحالها طارد من أمها ، تزدان في المنع والبخل ، مالا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت تحسن العود احسانا جيدا .

« أحببتها حبا مفرطا ، وسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة . وأسمع من فيها لفظة غير ما يقع في الحديث الظاهر الى كل سامع فما وصلت من ذلك الى شيء البتة ، فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت فيه دخلتنا ودخلة أخي من النساء ونساء قتياتنا ، ومن لاث بنا من خدمنا ممن يخف موضعه ، ويلطف محله ، فلبث صدرنا من النهار ، ثم تنقلن الى قصبة كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها مفتحة الأبواب ، فصرن ينظرن من خلال الشراحيب وأنا بينهن ، فاني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنسا بقربها ، متعرضا للدنو منها ، فما هو الا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد الى الباب الذي صارت اليه ، فتعود الى مثل ذلك الفعل من الزوال الى غيره ، وكأنت قد علمت كلفى بها ، ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه لانهن كن عددا كثيرا ، واذ كلهن يتنقلن من باب الى باب بسبب الاطلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها . وأعلم أن قيافة النساء فيمن يميل اليهن أفند من قبانة مدلج الآثار ، ثم نزلن الى البستان ، فرغب عجاثرنا وكرائمنا الى سيدتها في سماع غنائها فأمرتها ، فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمنله ، وان الشيء يتضاعف حسنه في عين مستحسنة ، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس الأحنف حيث يقول :

انى طربت الى شمس اذا غربت . كانت مغاربهها جوف المقاصير
شمس ممثلة فى خلق جارية كان أعطافها طسى الطوامير
ليست من الانس الا فى مناسبة ولا من الجن الا فى التصاوير
فالوجه جوهرة ، والجسم عبعة والريح عنبرة ، والكل من نور
كانها حين تخطو فى مجاسدهما . تخطو على البيض أو حد القوارير

فلمرى لكان المضراب انما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم
ولا أنساه الى يوم مفارقتى الدنيا ، وهذا أكثر ما وصلت اليه من التمكن
من رؤيتها وسماع ملامها ، وفى ذلك أقول :

لا تلمها على النفار مع الوصل . سل ، فما ذاكمو لها بنكير
هل يكون الهلال غير بعيد أو يكون الغزال غير نفور ؟

وقلت أيضا :

منعت جمال وجهك مقلتيبا . ولفظك قد ضننت به عليا
أراك نذرت للرحمن صوما . فلست تكلمين اليوم حيا
وقد غنيت للعباس شعرا . هنيا ذا ، لعباس هنيا
فلسو يلقاك عباس لأضحى . لفوز قاليا وبكم شجيا

« ثم انتقل الوزير أبى من دورنا المحدثه بالجانب الشرقى من قرطبة
فى ربض الزاهرة الى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط
مغيث فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدي بالخلافة ،
وانتقلت أنا بانتقاله ولم تنتقل هى بانتقالنا لأمر أوجبت ذلك .

« ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء
أرباب الدولة ، وامتحنا بالاعتقال والترقيب والاعرام الفادح والاستتار ،
وأرذمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس وخصتنا ، الى أن توفى أبى
الوزير رحمه الله ونحن فى هذه الحال بعد العصر يوم السبت لليلتين
بقيتا من ذى القعدة (٨) عام اثنين وأربعمائة ، واتصلت بنا تلك الحال
من الفتنة بعده الى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها وقد ارتفعت
الناعية فى المآتم وسط النساء فى جملة البواكى والنوادر ، فلقد أثار
وجدادنا ، وحركت ساكننا ، على أنى كنت فى ذلك اليوم مرزاً مصاباً من
وجوه وما أنت نسيت ، ولكن زاد الشجا وتوقدت اللوعة وتأكد الحزن ،

وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامنا ، فلباه عجيبا
فقلت :

بيكى لميت مات وهو مكرم وللحى أولى بالدموع الذوارف
فيا عجبا من آسف لامرئ ثوى وما هو للمقتول ظلما بأسف

ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جنه
البربر ، فخرجت عن قرطبة أول المحرم (٩) سنة أربع وأربعمائة ، وغابت
عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام أو أكثر ، ثم دخلت قرطبة
فى شوال (١٠) سنة تسع وأربعمائة ، فنزلت على بعض نساءنا فرأيتها
هنالك ، وما كدت أميزها حتى قيل لى هذه « فلانة » ، وقد تغير أكثر
محاسنها ، وذهبت نضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاص ذلك الماء الذى
كان يرى كالسيف الصقيل ، والمرأة الهندية ، وذبل ذلك النوار الذى كان
البصر يقصد نحوه مبهورا ، ويرتاد فيه متخيرا . وينصرف
عنه متحيرا ، قلم يبق الا البعض المنبئ عن الكل ، والخبر
المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتمامها لنفسها ، وعدم
الصيانة التى كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ، ولتبدلها فى
الخروج فيما لا بد لها منه ، مما كانت تصان وترفع عنه قبل ذلك وانما
النساء رباحين متى لم تتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يهتمل بها استهدمت ،
لذلك قال من قال : (ان حسن الرجال أصدق صدقا ، وأثبت أصلا ،
وأعتق جودة لصبره على ما لو لقي بعضه وجوه النساء لتغيرت أشد التغير
مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكن ، وانى لو نلت
منها أقل وصل ، وأنست لى بعض الانس لخولطت طربا ، أو لمت فرحا ،
ولكن هذا النفار الذى صبرنى وسلانى ، وهذا الوجه من أسباب السلو :
صاحبه فى كلا الحالين معذور اذ لم يقع تثبت بوجود الوفاء ، ولا عهد
يقتضى المحافظة ، ولا سلف ذمام ، ولا فرط تصادق يلام على تضييعه
ونسيانه :

هواك فلست أقربه غرور . وأنت لكل ما يأتى سرير ، (١١)

لا مشاحة فى أنه من اليسير على المرء أن يتبين فى هذه القصة
السالفة نفحة الاحساس الرقيق النادر بين الجماعات التى تؤثر فى العادة
وصف المحاسن التى تجذب الشخص والعيون التى تسببه ، والبسمة
التي تغريه .

ولا شك أن الحب الذى يتصوره ابن حزم انما تمتزج به الفتنة
المادية ، وهو حب يعبق بالهوى العف والأناقة المستحبة والتقدير
والحماسة . ولعل ما يدفع المرء الى الاعجاب به هو ذلك الجمال الهادى

والتواضع ، لكن يجب ألا ننسى أيضا أن هذا الشاعر الشديد العفاف الذي أجرؤ على القول بأنه كان نصرانيا بين شعراء المسلمين لم يكن عربيا خالصا فهو حفيد أسباني مسيحي ، لذلك لم تعتد تفكير الجنس الذي خرج منه ولا شعوره ، وعبثا ما كان يحاوله أولئك الاسبان المستعربون من محاولة انكار أصولهم ، وسخرتهم بأسلافهم النصارى ، فقد كان في قلب أولئك الاسبان على الدوام شيء خالص من الرقة والروحانية .

الفصل الثامن عشر

تقديم عبد الرحمن صفار الخاصة • مكائده ابن عمران -
تحريضه العامة وهجومهم على قصر عبد الرحمن • ثورتهم على
البربر ، استخلاف محمد المستكفي بن عبد الرحمن • سوء
معاملته للرجال • الثورة في قرطبة • هروب المستكفي
متخفيا وقتله بالسم • عرض الخلافة عن يحيى بن حمود
وتوقفه في قبولها • القرطبيون يختارون هشاما وبياعونه •
ضعف شخصيته • استجابة الحكم بن سعيد الحائك • قيامه
بفرض ضرائب جديدة واستعماله القسوة في جمعها •
تقريبه ابن عبد الجبار المعتدى على أوقاف المساجد • تلمز
العامة والأشراف • مصرع الحكم بن سعيد وخلع هشام •

اضطراب الأمور الداخلية

لم تكده تنقضى سبعة أسابيع منذ وقع اختيار القرطبيين على عبد الرحمن [بن هشام بن عبد الجبار] ومنذ أن استحجب هذا ابن حزم حتى مات عبد الرحمن فودع الثاني السياسة واللذائذ الدنيوية الى غير رجعة ، وراح ينشد السلوى ونسيان الماضي فى العكوف على القراءة والعزلة والانهماك فى الصلاة ، ولعل توجههم الأيام وما صادفه البعض من النفى قد أدى منذ زمن بهم الى معرفة الرجال معرفة تامة وفهمهم والحكم على الحوادث ، غير أن الخطر كان محققا بالقوم ، ذلك أن عبد الرحمن لم يقدم الا صغار الخاصة ولم يتخذ من المشيرين سوى ابن حزم وابن عمه عبد الوهاب بن حزم وأبى عامر بن شهيد ، ورغم ما كان عليه هؤلاء من الكفاءة والتبريز الا أن حرية أفكارهم جعلتهم يصطدمون بالجامدين ، أما من يكبرونهم فى السن من الخاصة فكانوا أميل الى انتخاب منافسه سليمان الذى استبعدته العامة ، واذ ذاك أخذ هؤلاء الأشراف فى تدبير المكائد جهرا لصالح سليمان حتى لقد وجد عبد الرحمن نفسه أخيرا مضطرا للقبض عليهم ، وأيده العقلاء فى عمله هذا لأنهم أدركوا ألا محيص له عن تلك الخطوة التى أقدم عليها وان تكن قد أغضبت منه جماعة الأشراف ، كما جعل السلطان نفسه هدفا للوم لابقائه منافسيه الاثنين رهن الحبس ، اذ أنه رغم معاملته اللطيفة لهما الا أنه حرم عليهما مغادرة القصر ، أضف الى ذلك أنه لما كانت الثورات والفتن قد عطلت معظم الأعمال العامة فقد نجم عن ذلك أن تخلف جمهور كبير من العمال العاطلين الذين أصبحوا على أتم أهبة للعمل بمعاولهم فى تقويض دعائم ذلك المجتمع القديم ، ومما زاد الطين بلة أن تمكنت هذه الجماعة الهدامة من أن تجد لها رئيسا من الأمويين اسمه محمد وهو الذى كان يؤمل أن يقع عليه الاختيار لحظة أن اجتمع القوم لانتخاب الخليفة ، غير أن الكل تجاهلوه وأنكروه فلم يجر اسمه على لسان أحد منهم ، ولا عجب فى ذلك فقد كان محمد هذا رجلا قدما لم يصب حظا من الفهم أو التعليم وانما همه ملؤ بطنه وارضاء حواسه ، لكنه كان

فى عيني نفسه شيئاً غير ذلك ، حتى لقد تسخط حقاً حين علم بانصراف القوم عن اختياره ، وأنهم صرفوا العرش الى شاب حدث ، وحينذاك استغل تأثيره على العمال الذين عدوا غلظته صراحة منه ، واتصل بهم اتصلاً وثيقاً ، فكان أدنى خواصه حائكاً اسمه أحمد بن خالد الذى تمكن محمد بفضل معونته اياه من اغراء الصناع على النهب والتخريب ، وهبأهم جميعاً الثورة باثرة .

لم يتوقع القوم فى بادىء الأمر أى خطر من تعصب العامة ولم يظنوا أن ينال رذاذ هذا الغضب الأشراف المحبوسين طالما هناك متنافسون كثيرون . ولكل منهم أتباعه ، غير أنه لما مات سليمان اتحد الأشراف والعامة وكان الوسيط بين الطرفين رجل منهم اسمه ابن عمران الذى كان اطلاق سراحه على يد عبد الرحمن الخامس [المستظهر] طيبة منه وغفلة ، هذا على الرغم من معارضة أحد أصدقائه له فى ذلك بقوله له : « ان مشى ابن عمران فى غير سجنك باعا بتر من عمرك عاماً » .

والواقع أن ابن عمران كان رجلاً شديد الخطورة حاول استمالة زعماء الحرس الى جانبه ، ولم يجد أدنى عسر فى هذا السبيل ، فكره « الدائرة » . (١) الخليفة ذلك أنه كان قد حدث قبل ذلك بيومين من هذا الحادث أن جاءت الى قرطبة كتيبة من البربر قصد العيل تحت امرة الخليفة الذى قبلها عن طيب خاطر لما أحسه من الخطر المحقق به ولحاجته الى الجند فأثار ذلك غير « الدائرة » الذين هاجمهم ابن عمران فتوجهوا الى الشعب قائلين : « نحن الذين قهرنا البرابرة وطردناهم عن قرطبة ، وهذا الرجل يسعى فى ردهم اليها وتمكينهم من نواصينا » .

★ ★ ★

كان الجمهور المتلهف على الثورة فى انتظار الاشارة ، فلم يكن من العسير حمله على الاستجابة الى هذه التحريضات ولم يابث الرجالة أن اقتحموا قصر عبد الرحمن على حين غفلة من صاحبه ومن فيه واستنقذوا الأشراف المحبوسين داخله ، وسرعان ما أدرك الحاكم المنكود ميل الجمهور الى الفتك به فسأل وزراءه المشورة - وكانوا هم أشد حرصاً على حياتهم - فراحوا يتدبرون المسألة فيما بينهم ، واذا ذلك طمأنهم الحراس على أنفسهم ان هم تخلوا عن عبد الرحمن وانفضوا من حوله ، وحينذاك تغلبت الأناية على معظمهم فتسللوا عن خليفتهم وانصرفوا عنه واحد أثر آخر ، الا أنهم سرعان ما أدركوا الاقيمة لعهود الحراس الذين فتكوا بالكثيرين منهم حين هموا بمغادرة القصر من باب الحمام ، وكان من بين القتلى متقلد (٢) المدينة .

امتطى عبد الرحمن جواده وطمع فى أن يتمكن من مغادرة القصر من نفس الباب فمئته الدائرة بتسديد أطراف رماحهم اليه وانهاالوا عليه سببا فارتد على عقبينه وترجل عن فرسه ودخل الحمام وتجرد من ملابسه كلها الا من قميصه واستخفى فى موقد الحمام .

فى هذه الأثناء كان العامة والدائرة يتصيدون البربر المنكودين كأنهم الوحوش الساردة ويقتلونهم . أنى تفوهم سواء آكانوا فى القصر أم فى الحمام أم فى المسجد ، وتقاسم الحراس حريم عبد الرحمن وحملوهن الى بيوتهم .

بذلك انتصر محمد [بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر] ونودى به خليفة فى الحجرة التى كان الخليفة المخلوع مختفيا بها ، ثم اتجه [محمد] نحو « دار الملك » وجلس على السرير وحوله الدائرة والعامة ، غير أن مركزه كان لا يزال مهددا بالخطر طالما كان خصمه على قيد الحياة ، لذلك أمر أن يبحث عنه فى كل ناحية ، حتى اذا عثروا عليه جاؤه به فقتله بيده (٣) يوم ١٨ يناير ١٠٢٤ م .

لقب محمد بالمستكفى وحاول التقرب الى العامة بتوزيع المال وخلع الألقاب على كل طامع فيها ، غير أن سخط الطبقة الوسطى وجماعة الأشراف على محمد بلغ غايته حينما عهد بالحجابة الى صديقه الحائك ، ولذلك لم يقدر لعهد أن يدوم طويلا ، فقد أساء الولاية كما هو مفروض فيه ، ولما كان يعرف أن هناك جماعة تعمل للكيد له والتآمر عليه فقد زج فى السجن بالكثير من أعضاء أسرته وأمر بخنق أحدهم (٤) مما أدى الى تسعر نيران السخط عليه بقرطبة ، كما ألقى القبض على كبار رجال دولة الخليفة السابق كابن حزم ، فخاف أبو عامر بن شهيد وكثيرون معه أن يلقوا ما لقيه صاحبهم ابن حزم فغادروا العاصمة ويموا وجوههم شطر مالقة حيث ذهبوا الى أميرها يحيى بن حمود وهونوا عليه القيام بعمل يقضى على الفوضى الضاربة بأجرانها على قرطبة (٥) ، غير أن محاولاتهم فى هذا السبيل لم تبق طى الكتمان فقد ذاع القول فى قرطبة بأن يحيى يتأهب للنهوض لمهاجمة المدينة ومن ثم نشبت الفتنة بها فى شهر مايو (٦) سنة ١٠٢٥ م ، وقتك الناس بالوزير الحائك ، واستبد الغضب بالشعب فام يكف عن ضربه حتى بردت أوصاله .

ثم مضت العسامة الى قصر محمد المستكفى فأضربت به النيران ، وحينذاك جاءه الحرس الخليفى وقالوا له : « قد اضطررنا الى مكافحة عدونا (٧) ونحن خارجون اليه ولا ندرى ما يحدث عليك بعدنا » ، فلما

رأى محمد أن زمام الأمور قد أفلت من يده الى غير رجعة لم يجد مناصبا من التلطف في الرد عليهم والانقياد لهم ثم غادر القصر والمدينة ولبس ثياب ذوات ألجبال وخرج متنقبا بين امرأتين ، ثم زاح ينشد ملجأ له في قرية صغيرة من قرى (٨) الثغر ، ولم يلبث أن مات مسموما بيد أحد جنسده (٩) .

بقيت قرطبة ستة أشهر بلا حاكم يدبر أمورها ، وقام مجلس الملك بإدارة حكومتها على خير وجه ، الا أنه ما كان لثقل هذا الوضع أن يدوم طويلا ، بل كان لابد من تولد فيه الحكومة الى خليفة ما ، لكن لم يكن هذا اليوم قد حان موعده بعد .

ومع أن العهد القديم كان قد زال الا أنه كان لابد للعهد الجديد من أن يواجه أدوارا من المحن ، وكانت هناك جماعة من ذوى التفكير الصائب رأت أن الملوكية لا تزال الصورة الوحيدة التي يمكن أن تكون عليها الحكومة لاقرار النظام ، لكنهم كانوا في حيرة لمن يسوقون هذه الملوكية ، وهل تبقى للأمويين ؟
واذن فليحاولوا ما أرادوا .

★ ★ ★

واختار القوم خير أمير من أمراء البيت الأموي حين ساقوا العرش الى عبد الرحمن الخامس الا أنهم أخفقوا في هذه المحاولة .

كان اقرار النظام وارضاء الشعب المضطرب الناتج المستعد في كل لحظة للتمرد والسلب والنهب يقتضى اختيار أمير تكون تحت امرته قوات أجنبية مما لا يتوفر للأمويين ، ومن ثم أشار البعض أن يساق العرش الى يحيى بن حمود الذى لم يكن مكروها من الجماعة كل الكراهية ، ويخيل اليها أن الأخذ بهذه الفكرة لا يرجع الى ذوى المقاصد السيئة كما يذهب الى ذلك أحد المؤرخين العرب (١٠) ، بل نادى بها شيعة النظام الذين رأوا ألا سبيل للتفاهم سواها ، فأخذوا حينذاك في مفاوضة يحيى وكان مقيما بمالقة ، ولم يظهر يحيى لهفة في قبول ما عرضه عليه أهل قرطبة بل أبدى عدم الاكتراث ، ذلك أن حذره من تقلب القوم الدائم ومعرفته أنه لم يكن أمامهم من أحد يسألونه هذا السؤال سواء دفعاهم للإقامة حيث هو ، واكتفى بأن يرسل الى قرطبة أحد (١١) القواد المغاربة على رأس بعض القوات ، وكان ذلك في نوفمبر (١٢) ١٠٢٥ م .

برهنت الأحداث على صدق ما رآه يحيى اذ سرعان ما تأقف سكان العاصمة من الاحتلال المغربي لهم واستمعوا بأذان واعية الى ما يقوله لهم كبيرا صفالبة الشرق : خيران صاحب المرية ومجاهد أمير دانية، وقال هؤلاء الرسل

ان مولييهما على استعداد لم يد المعونة اليهم اذا كانوا يرغبون في التحرر ، ولم تذهب هذه العهود بددا ، ففي شهر (١٣) مايو سنة ١٠٢٦ م جهز الأميران رجالهما وزحفا على العاصمة في عسكر غفير ، واذ ذاك قام أهل قرطبة بالثورة وخلعوا الحاكم الذي فرضه يحيى عليهم بعد أن قتلوا العدد الكبير من جنده ، حتى اذا فرغوا من ذلك فتحوا أبوابهم لخيران ومجاهد فدخلاها ، لكنهما ما لبثا أن تنازعا الأمر فيما بينهما حين أخذتا يتشاوران في اقامة الحكومة، وخاف خيران أن يغدر حليفه به فأسرع بالعودة الى المرية (١٤) يوم ١٢ يونيو ١٠٢٦ م ، وبقي مجاهد فترة من الوقت بالعاصمة الا أنه غادرها هو الآخر دون أن يعيد اليها السلطنة التي صمم رجال مجلس المشورة على ارجاعها عقب خروجه من بينهم ، وهكذا كانت امامهم تجربة محزنة أدركوا منها أنهم كانوا مقدمين على المستحيل .

ذلك أن المجيء بأمر أموى الى العرش من غير أن تكون تحت امرته قوات أجنبية ووضعه بين طائفتين لا يمكن التوفيق بينهما معناه الحكم عليه مقدما بالهلاك اما عن طريق ثورة شعبية أو مؤامرة يدبرها ضده الوطنيون من أهل البلد . ومعنى ذلك أن ارجاع الأمويين الى العرش - لاقامة حكومة ثابتة الدعائم - كان محاولة فاشلة ، لكنها كانت في نظر رجال الساعة المستولين الوسيلة الوحيدة التي لا بد لهم منها .

كان أبو الحزم بن جهور - أبرز أعضاء مجلس الحكم - أشد الناس أخذًا بهذه الفكرة وترويجها لها ، ومن ثم شرع في مشاوره ولاة الثغور من أنصار الحزب الأموى والصقالبة ، وان لم يكن ثم ما يربط بينهم أجمعين سوى كراهيتهم الشديدة للبربر .

تشاور القوم وقلبوا الموضوع طويلا فيما بينهم وانتهى الأمر ببعض هؤلاء السادة الى الموافقة على ذلك المشروع لاعتقادهم الجازم بخروج أزمة الأمور من أيديهم ، واقترح بعضهم أن يسوقوا العرش الى هشام أكبر اخوة عبد الرحمن المرتضى وكان ينزل اذ ذاك « ألبونت » التي كان قد فر اليها معتصما بها بعد مصرع أخيه .

ومنذ شهر أبريل (١٥) ١٠٢٧ م أخذ سكان قرطبة في مبايعته ، غير أنه انقضت قرابة ثلاث سنوات قبل أن تذلل من أمامه جميع العقبات ، وفي خلال هذه الفترة كان هشام الثالث الملقب بالمعتد (١٦) الذي دأب على التنقل من بلد الى آخر لمعارضة كثير من الزعماء للفكرة التي أخذ بها أهل قرطبة (١٧) الذين علموا بما هو جار ، وسرعان ما التأم شمل أعضاء « دارة الملك » للاتفاق على الاستعدادات اللازم اتخاذها لاستقبال الأمير

أروع استقبال ، غير أنه تناهى اليهم الخبر (١٨) يوم ١٨ ديسمبر ١٠٢٩م بأن هشاماً قد دخل المدينة قبل أن يعدوا العدة لاستقباله ، واذ ذاك حثف الجند للقائه وتعاملت صيحات الفرح في جميع أرجاء البلد واحتشيدت العامة في جميع الشوارع التي سيسير فيها الأمير وتوقعوا عرضاً ملوكياً رائعاً ، غير أن القوم أخفقوا فيما أملوه فقد أقبل هشام على فرس دون مركب الملوك مخنصر الحلية ، ودخل في زى تتقحمه العين وتستنكره ، وعليه كسوة رثة لا تتفق أبداً ومرتبة الخلافة مما لا يحرك النفوس ، ومع ذلك فقد راح الناس يهينونه ويصيحون بالدعاء في وجهه طامعين أن تكون دولة الفوضى قد دالت ، وممنين أنفسهم بحكومة عادلة حازمة .

كان هشام الثالث أضعف من أن يحقق الآمال المعقودة عليه ، ذلك أنه رغم طبيته وسماحته إلا أنه كان في الوقت ذاته ضعيفاً متردداً كسولاً ، لا يعنيه غير مليء بطنه ، وقد تبين للأشراف غداة مقدمه عدم توفيقهم في اختيارهم إياه ، وعقد في دارة الملك اجتماع كبير قدم فيه جميع الموظفين إلى الخليفة الذي لم يألف هذه الاجتماعات ولا تلك الخطب ، فلم يفتح عليه بغير كلمات قلائل حتى لقد أناب في الكلام عنه أحد الوزراء ، أما هو فقد ارتج عليه ولم يفه بكلمة يطيب بها خاطر الشعراء الذين كانوا ينشدون بين يديه ما أعدوه من قصائد بمناسبة اعتلائه العرش ، بل لقد ظهر عليه أنه لم يفهم شيئاً مما كانوا ينشدونه .

هكذا بددت فاتحة عهد الخليفة كل أمل فيه لاسيما حين استوجب بعد قليل الحكم بن سعيد (اقزاز) الذي كان للموالى العامرين إلا أنه كان يحترف في بادئ الأمر الحياكة بالعاصمة حيث تعرف بهشام ، ذلك لأن الأمراء الأمويين كانوا كثيرى الاختلاط بطبقات المجتمع الدنيا ينشدون منها المعونة ، فلما دببت الفتن انخرط الحكم كجندى وسرعان ما رفعته شجاعته وكفاءته الحربية واكتسب تقدير أصحاب الثغور الذين خدم تحت امرتهم ، فلما بويع هشام بالخلافة راح الحكم يفتش عنه وذكره بصدائقه القديمة له وعرف من أين تؤكل الكتف ، ولم يلبث أن سيطر عليه ، فلما صار حاجبه بذل غاية همه لجعل مائدة مولاه مملوءة على الدوام بأطيب الطعام وألذ الشراب ، وأحاطه بالجوارى والمغنيات والراقصات ، ومجمل القول إنه حاول أن يجعل مولاه يتقلب في أعطاف البهنية ، ولم يكن هشام الغبي يهمله سوى هذا ، بل لقد أرضاه كل الرضى أن يتخلص من عبء معالجة الأمور التي تزعجه ، وقرت نفسه أن يكل للحكم بن سعيد تدبير شئون الحكم .

وجد الحكم خزينة الدولة خاوية ، ورأى أن سد النفقات يتطلب منه توفير دخل أكبر وأعظم مما يأذن له به الشرع ، فكيف يتأتى له تحقيق هذا المطلب .

كان لابد من فرض ضرائب جديدة ، غير أن ذلك العمل لابد وأن يؤدي الى ضياع مكانته عند الشعب لذلك اضطر الوزير الى اصطناع الحيل المختلفة ، وهى وان تكن بعيدة عن الشرف الا أن الحاجة فى الواقع هى التى حملته عليها فصادر كل ثمين اكتشف أن أبناء المظفر قد عهدوا به الى أصدقائهم ، وأرغم كبار التجار على شراء ذلك كله بالثمن الباهظ ، كما ألزمهم بشراء الرصاص والحديد المتخلف من القصور الملكية التى دكت أثناء الفتنة ، ومع ذلك فان هذه الأموال المأخوذة بذلك الطريقة لم تقف بسد الحاجة ، فاتصل بقيقه مرذول هو ابن عبد الجبار الذى دل الخليفة عليا [بن حمود] من قبل على كل ما يملأ الخزينة وان يكن ذلك بطرق مرذولة .

لم يعلم ابن الجبار فى تلك المرة الوسيلة لتقديم مبالغ طائلة من وقف المساجد الى الحكم بن سعيد ، ولم يبق خبر هذا العمل سرا مكتوما فقد أرجف به أهل قرطبة لاسيما الفقهاء ، وكانت رواتب الفقهاء من أعضاء المحكمة قد زادت قبل ذلك فلم يرفضوا تلك الزيادة رغم يقينهم بانها جاءت من طلايق الضرائب غير الشرعية ، لذلك كان من الطبيعى أن يحنق الحكم على الفقهاء ، ومن ثم كان رده عليهم ردا قاسى اللهجة وضعه أبو عامر بن شهيد وتلاه علانية فى القصر أولا ثم فى الجامع ثانية فى يونيو (١٩) سنة ١٠٣٠ م ، فاغتم الفقهاء أشد الغمة وحاولوا تحريك الشعب ودفعه لمشاطرتهم غضبهم ، لكنهم أخفقوا فى محاولتهم هذه اذ الظاهر أن الجمهور لم ير فى ذلك العمل ما يدعوه للتبرم والسخط وضاعفت الحكومة من جانبها ثقتها فقتلن وزيرا الى احدى المؤامرات ، وحثها ابن شهيد على اطاحة الرؤوس الكبيرة كما قال فى قصيدة له رفعها الى الخليفة ، وفيها ينصحها ألا يلقى سمعا الى أصحاب المطامع هؤلاء وأن يترك للسان تآديبهم وانثيل منهم .

ربما كان الأمر سهلا هينا على الحكم بن سعيد الحائك أنه لم يكن هناك من يعارضه سوى الفقهاء الذين كانوا اذ ذاك أهون من أن يلبلوا خاطرهم ويشغلوا باله ، لكنه كان يواجه أعداء أشد خطرا وأقوى شكيمة وأعنى بهم أولئك الأشراف الذين ناصبه معظمهم العدا ، فقد كانت وضاعة نشأته قذى فى عيونهم لا يزول ، فلم ينظروا اليه كجندى سما به جده ، ملت به كفاءته ، بل نظروا اليه على أنه حائك وضع لا يفرقونه

أبدا عن وزير محمد الثاني عى الرغم من الفارق الكبير بين الوزيرين ،
اذ كان أحدهما صانعا أما الآخر فقد قضى الشطر الأكبر من حياته فى
المعسكرات وفى حاشية أمراء الثغور ، ولما كانوا قوما لا يابهون بالأساليب
التي تتخذ للملء الخزينه فقد كان من اليسير عليهم غض النظر عما قد
يعمد اليه أحد رجال طبقتهم من الوسائل المالية التي اضطر الوزير
[القزاز] اليها ، ولكن وضاعة نبعته دفعتهم للتشهير به عند العامة التي
استغلوها لتشاطرهم حقدهم الذي حملتهم عليه منفتهم الخاصة .

لم يفضب الحكم فى بادى الأمر منهم ، لذلك لم يحرمهم نصيبهم من
المساهمة فى الحكم بدليل معاطاته ابن شهيد وده واتخاذه اياه موضع
ثقتة ، لكنه لما رأى أنهم لم يجيبوا نداه الا بالازدراء والاحتقار وأنه
لا يحركهم سوى سوء الطوية والكراهية والعداوة فقد تسعر غضبا وراح
ينشر موظفيه بين الرعاع ، وكان هؤلاء الذين استعملهم ممن استجابوا
لدعوة الأشراف ، ولسنا فى حاجة لأن نقول ان الوزير لم يعهد بالوظائف
الا الى « أعمار من ديدنهم حث الكاس ، وتنضيد الآس ، والتفكه بأعراض
الناس ، فان ضج مظلوم سخرؤا منه » .

وكانوا يعدون الحكم بن سعيد متأمرا مسلوب القدرة ، وجنديا لكن
تعوزه الشجاعة ، وفارسا تغلب عليه السذاجة ، وربما أعمتهم الكراهية
عن حقيقته وان يكن الثابت المؤكد انهم عمدوا الى أدنا الأساليب لاسقاط
عدوهم ، ذلك انهم حاولوا أولا تحريك الناس للتمرد عليه قائلين لهم ان
ركود التجارة الذى كان السبب الفعلى للنكبات العامة لا يرجع الا الى فداحة
الضرائب التي فرضها الوزير على معظم أنواع التجارة ، وأتت هذه
الأقوال أكلها ، فاتفق جماعة من الشعب مع الخاصة على مهاجمة بيت
الوزير الذى أنهى اليه أحد معارفه الخبر قبل أن يقدم المتآمرون على انجاز
ما اتفقوا عليه ، فغادر داره وأقام بقصر الخليفة ، وأسقط الضرائب التي
يتنمر الناس منها ، وقرأ على الناس منشورا طويلا قال فيه انه لم يفرض
تلك الضرائب الا لسد حاجات بيت المال المتزايدة ولكنه لن يعمد الى ذلك
بعد الآن ، فركن الناس الى الهدوء ، واذ ذاك عمد الأشراف الى باب آخر
يحققون به غرضهم ذلك انه لما كان الحكم قليل الثقة فى الجنود البلديين
صنائع الخاصة فقد حاول تكوين بعض الفرق البربرية (٢٠) ، مما دفع
الأندلسيين للتمرد ، وعمد الأشراف الى عمل ما يزيد تسعير السخط
عليه ، فلما عرف ابن سعيد ما يدبرونه ضده سلك السبيل الناجحة
لابقاء الجند على الطاعة له بأن عاقب رؤوس الفتنة فأخر أعطيئاتهم ،
واذ ذاك حاول الأشراف افساد ذات البين بينه وبين هشام فأخفقوا .

لأن تأثير الحكم على السلطان الضعيف كان أشد من تأثيرهم هم عليه ، حتى حرم عليهم دخول القصر ، لم يستثن من ذلك سوى ابن جهور وحده - رئيس المشيخة - فقد احتفظ بشيء من السلطان على الخليفة الذي كان يعد نفسه رهين فضله إذ يدين له بالجلوس على العرش ، أو بلفظ آخر أنه كان مسدينا له بالمكانة الجوفاء التي هو فيها ، لذلك فشلت جميع المحاولات التي بذلها الحكم لصرف ابن جهور عما بيده من الأعمال ، ومع ذلك لم يداخله اليأس بل دأب على ملاحقة الخليفة حتى تمكن في النهاية من التغلب على تردده ، وشعر ابن جهور بما يدبر له ، ولعله أحس بضعف مركزه فقرر أن يبعد الوزير والخليفة معا ليكون الحكم للمشيشة وحدها ، ورحب زملاؤه بمشروعه هذا .

لكن كيف يتأتى لهم أن يجدوا من يناصرهم في هذا العمل ؟

هنا كانت المشكلة .

لقد كان في المجلس كثيرون ممن لا يهتمون عن المساهمة في خلق هشام الثالث عن العرش ، لكن يظهر أنه لم يكن هناك غير أعضاء المجلس ممن يفكرون في استبداله الفوضى بالملوكية لأن القلوب والأذهان كانت لا تزال متعلقة بالخلافة ، لذلك رأى الأعضاء أن الحكمة تقتضيهم كتمان ما هم بسبيله ، وتظاهروا بأنهم يريدون ابدال هشام بخليفة غيره ، وأخذوا يفاوضون - على هذا الأساس - أحد أقارب الخليفة ويدعى أمية [بن عبد الرحمن العراقي] ، وكان شايبا شديد التهور طماعا قليل التبصر ، وأفهمه الأعضاء أنه من اليسير عليه الاستحواذ على العرش إذا رضى أن يتزعم الفتنة ، فرحب الأمير الشاب بما عرضوه عليه دون أن يفكر في أنه لن يكون سوى آلة في أيديهم يلقونها جانبا حين يتم لهم ما يريدون تحقيقه ، ولما كان أمية بن عبد الرحمن العراقي مبسوط الكف فقد سهل عليه أن يضم إليه الجند الذين حرمهم القزاز أعطياتهم .

وفي ديسمبر ١٠٣٠ م (محرم ٤٢٣ هـ) (٢١) كمن هؤلاء الرجال في كمين نصبوه للحكم بن سمسعيد ثم وثبوا عليه وهو يقادر القصر وطرحوه أرضا وفتكوا به قبل أن يتمكن من تجريد سيفه ، ثم حزوا رقبتة وغسلوها في طشت سمك لأن الدم والوحل عفراها ورفعوها على رمح ، وحينذاك مضى أمية فقاد الجموع من العسكر والعمامة الذين انضموا إليه ، بينما اعتلى هشام « العلية » ومعه نساؤه وأربعة من غلمانها ، وقد ارتجفت أوصاله حين سمع الصيحات المروعة تتجاوب بها أبواب قصره ، ثم توجه إلى الثوار الذين دخلوا القصر وسألهم ماذا يريدون منسه وهو لم يفعل

شيئا ينكرونه عليه ، وعرفهم أن كانت لهم ظلامة فليرفعوها الى وزيره .
فأجابوه « وأى حاجب تعنى ؟ » ثم رفعوا رأس حاجبه ابن القزاز على
سنان رمح .

بينما كان هشام يحاول تهدئة نائرة أولئك الرجال السفاكين الذين
كانوا لا يجيئون الا بالسباب والقذف تقدمت طائفة أخرى الى مخدع الخريم
ونهب كل ما وصلت اليه يدها ، وعثروا على قيود جديدة زعموا أن الحكم
صنعها لتصفية الأشراف ، فأثار أمية نائرة البهاب بالحركة والقول
اذ قال لهم : « هذه لكم فاستبقوها عندكم ، وتسلقوا العليسة وافتكروا
بالخبيث » .

وحاول بعضهم الصعود فلم يفلح لشدة ارتجاج العليسة ، واستغاث
هشام بأهل البلد الذين لم يساهموا في النهب فلم يفتبه أحد .

واعتقد أمية أن الوزراء سوف يستخلفونه ، فمضى الى إدارة الملك
وجلس على أريكة هشام وحوله وبعاء الفتنة الذين خلع عليهم الوظائف
المختلفة ، وأصدر اليهم أوامره كما لو كان هو الخليفة حقا ، فقال له
أحدهم : « انا تخاف عليك في هذا اليوم أقتل لما نرى من انقلاب
الناس عليك » .

فقال له أمية : « يا يعونى أنتم اليوم واقتلونى غدا » (٢٢) .

لم يكن هذا الشين الطموح يدرى شيئا عما يجرى فى بيت
ابن جهور اذ ذاك ، فقد اجتمع منذ بداية الفتنة رئيس المجلس للتشاور
مع رفاقه الذين دعاهم الى داره وأجدوا يتباحثون عما يتخذونه ، فلما تم
اتفاقهم فيما بينهم تهادوا الى القصر فى مواليتهم وخدمتهم وكلهم شناسكى
السلح وصاحوا بهم « لاسلب ولا نهك حرمة ، سنخلع هشاما وعلينا
اللعنة » . وسواء أكان حضور هؤلاء الرجال العظام قد أربهب الجمهور
أم أنه تخاف أن يعتمد حرسهم الى فضه ، أم لم يعد ثم شيء قيم ينهبونه
فقد أخذ النظام يعود بالتدرج ، واذ ذاك هتف الوزراء بهشام « أن انزل
من المايعة فانك مخلوع ، ولكننا سنمن عليك بالحياة » ، وابتسلم هشام
اليهم مكرها اذ لم يكن فى العلية مئونة ، ونزل فقاده الشيوخ هو ونساءه
الى ناحية من الساحة المصاغبة للمسجد الجامع فقال لهم أثناء سيره :
« ليتنى قرب البحر ترمون بنى فى بيته فيكون أخف لسانى ، فافعلوا
بما شئتم واحفظونى فى ولدى نواهل » .

فلما كان المساء دعى الوزراء زعماء قرطبة الى الجامع وتشاوروا
ما يصنعون بهشام فقر الراى منهم على المبادرة الى حبسه فى قلعة اتفقوا
عليها فيما بينهم ، ووكل الى جماعة من المشيخة حمل هذا القرار الى
أسيرهم الخليفة .

حين بلغ الشيوخ الدهليز طالعوا منظرا مخزنا ، اذ رأوا هشاما
مفترشا الأرض ومن حوله نساؤه يبكين مسبلات شعورهن مشقوقات
الجيوب ، وقد ارتسم الأسى والشجى فى عينى هشام وهو يحتضن طفلة
ساترا لها بكمه من قر ليله وكان شديد الحب لها ، وكانت الطفلة
المسكينة أصغر من أن تدرك الخطب ألمم بأبيها فظلت تنتفض بردا فى
هذه البقعة الفاسدة الهواء الرطبة ، اذ كانت الليلة شديدة الزمهرير وكادت
الطفلة أن تموت جوعا اذ لم يفكر أحد فى ارسال شيء من الطعام لتلك
العائلة المنكودة ، ولعل مبعث ذلك هو الاهمال أو المبالغة فى النكايه
والقسوة .

ثم تكلم أحد الشيوخ فقال انهم جاؤا اليه ليعلنوه أن المشيخة
ووجوه أهل البلد المجتمعين بالمسجد قد اتفقوا على

فلم يدعه هشام يتم مقالته بل قال له « ليكن ما أرادوا ، لكن
سألتكم كسرة خبز أسد بها جوع هذه الطفلة » .

وهز الموقف مشاعر الشيوخ فلم يستطيعوا أن يمسكوا دمعهم
وجأؤوه بالخبز ، ثم تكلم الشيخ الذى كان يدير دفة الحديث قائلا له :

« لقد استقر الراى على أن تؤخذ عند انبلاج الصبح الى احدى
القلع » .

فقال هشام : « ألا سألتكم سراجا أنس بضوئه مع نسائي ؟ » .



ثم جاء الغد .

ونقل هشام الى ظاهر المدينة وأصدر الشيوخ بيانا الى أهل قرطبة
أنبأؤهم فيه أن رسوم الخلافة زالت ، وأن زمام الأمور قد انتقل الى أيدي
المشيخة ، ثم عادوا الى القصر حيث كان أمية الذى كان شديد الثقة بعهود
الوزراء السرية ، لذلك استدعى وجوه الجند ليبياعوه لكن سرعان ما زالت
الغشاة عن عينيه حين أخذ الوزراء فى لوم الموظفين والجند على تسرعهم
فى مبايعة مثل هذا الأفاق دون أن ينتظروا قرار مشيختهم ، وقال
ابن جهور :

« ان الشيوخ معوا رسم الخلافة وارتاح الناس لما فعلوه فلا تثيروها
بما عسكر فتنسة تذهب بالكل ، وهذه نعمتنا عليكم ، وترقبوا المزيد
كلما ازددتم لنا طاعة »

ثم التفت الى الحرس وقال لهم : « لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية
حولا يكتفهم أحد ، واستنزلوا أمية ذاته وأخرجوه عما بيده »

حواشی کتاب

حواشي الفصل الأول

- (١) راجع ابن النديم ٢٨٩/١ .
- (٢) G. Weill : Geschichte der Califen, t. II, p. 107.
- (٣) فيما يتعلق ببيانك والخرعية راجع ما جاء في دائرة المعارف الإسلامية .
- (٤) Browne : A Literary History of Persia, Vol. I, Ch. IX.
- (٥) راجع نص المقرئ الوارد في :
Journal Asiatique, III^e Serie II, p. 134.
- (٦) فيما يتعلق بهذه الناحية انظر ما كتبه هوتيسمان في الدائرة .
- (٧) Browne : Op. Cit., Vol. II, p. 406 seq.
- (٨) راجع الجويني في الجريدة الآسيوية (المجلد الرابعة) المجلد الثامن ،
ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .
- (٩) De Sacy : Exposé de la Religion des Druzes (Paris 1836).
Introd. p. CLXIV.
- (١٠) Ibid., pp. 139-153.
- (١١) De Sacy : Op. cit., pp. 112, 153-156.
- (١٢) ما جمع ما كتب عن الاثنى عشرية في الدائرة .
- (١٣) أما اسمه الكامل فهو الحسين بن أحمد بن محمود ، وكان يدعى أيضا بالحنسب ،
راجع في ذلك دائرة المعارف الإسلامية والمراجع المذكورة هناك ، ونضيف الى ما قاله
المؤلف من أن علة تسميته بالحنسب هي أنه كان محتسبا بالمبصرة وفي غيرها من مدن
العراق .
- (١٤) De Sacy : Op. cit., p. CXIX.
- (١٥) انظر مقال « الداطميون » في الدائرة .
- (١٦) راجع ابن عذارى : البيان المغرب (طبعة دوزى) = ١٩٠/١ ، وترجيته
ص ٢٦٤ .
- (١٧) مثل الخليفة المعز عن صحة النسب الذي يربطه بالرسول (صلى الله عليه
وسلم) فاجاب اجابة حاسمة بان استقل سيفه من غمده الى منتصفه وقال : « هذا حسبي »
ثم ملا كتفه بيدرة من الذهب ونثرها على الحاضرين وقال : « وهذا نسبي » وبهذا سكت كل
معترض ، انظر :
Journal Asiatique, 3^eme. Serie, p. 167.

(١٨) أمر عبید الله بسب الصحابة فی الصلوات العامة ولم يستثن سوى علی وأربعة
آخرین .

(١٩) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٩٥/١ ، وترجمته ص ، ٤٢٤ .

(٢٠) ابن حوقل : المسالك والممالك (طبعة دى خويه) ليدن ١٨٧٢ ، ٧٤-٧٢/٢ ،
وقد نقل المقرئ هذه العبارة فی نفح الطيب ١٢٠/٨ .

(٢١) تاريخ ابن حبيب ، ص ١٦٠ .

(٢٢) راجع دائرة المعارف الاسلامية .

(٢٣) راجع صاعد الطليطلى ، طبقات الامم (طبعة لوييس شيوخو) ، بيروت سنة
١٩١٢ ، ص ٦٤ .

(٢٤) راجع الحميدى ، مخطوط اكسفورد ، ورقة ١٤٧ - ب ، وقد تجم دوزى هذه
النقطة فى : Journal Asiatique, 5eme Serie, t. II, p. 93.

ثم قارن هذه المجتمعات المذكورة فى النص بما جاء فى ابى المحاسن : النجوم
الزاهرة (طبعة جينبول) ، ج ١٢٠/١ - ٤٢١ ، والمسنودى فى بحولسنون ، والمرجع
المسالك ١٢٢/٢ .

(٢٥) المقرئ نفح الطيب ، ١٣٦/١ .

(٢٦) جاء فى امارى : المكتبة العربية الصقلية Amari : Bibliot. Ar. Sicula

« كان ابن مسرة كلفا بفلسفة ابيد فخلص تملزما لدراستها ، وخرج الى المشرق فارا
لما اتهم بالزندقة لاكثرارة فى فلسفة ابيد قلس واشتغل بملاحاة اهل الجدل واصحاب الكلام
والمعتزلة ، ثم عاد الى الاندلس لافظهر التمسك والورع ، واغتر الناس بظاهره واختلفوا
اليه ثم ظهوروا على معتقده ، وتبيح مذهبه ، فانقبض منه البعض ولازمه بعض ودانوا
بنحلته ، وكان له لسان خلوب يتوصل به الى مراده ونضيف الى ما ذكره دوزى فى
المتن ان ابن مسرة كان يعرف بالجبلي ، وفى زيادة التعريف به نقول هو ابو عبد الله محمد
ابن عبد الله بن مسرة ، وقد درس على جماعة من ائمة العلم فى قرطبة ، ثم تفقه على يد
المعتزلة واهل الكلام فى المشرق . ثم تظاهر بالنسك ويصفه ابن حيان « بالظنين المنطوى
على نخل السريرة ، الرابض للفتنة » ، وذلك فى مخطوط له اطلع عليه المرحوم محمد عبد الله
عنان ونقل عنه فى كتابه دولة الاسلام فى الاندلس ، ٤٢٢/٢ . وانظر الحاشية التالية .
(المترجم)

(٢٧) راجع عن ابن مسرة ما كتبه القفطى فى تاريخ الحكماء (طبعة ميللر) ،
ص ١٦ ، والفتح فى الملمح (طبعة القسطنطينية ، ١٢٠٢) ص ٥٨ ، ويوجد هذا
الفصل ايضا فى المقرئ : نفح الطيب ١٣٦/٢ ، وقد ألف الزبيدي كتابا يحض فيه آراء هذا
الفيلسوف ، راجع ايضا عن ابن مسرة : الضبي : بغية الملتبس ص ٧٨ ، ترجمة رقم
١٦٣ ، وابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ، ترجمة رقم ١٢٠٢ ، وقد كتب الاستاذ ميشيل
اثين بلاثيوس (مدريد ١٩١٤) رسالة مفصلة عن ابن مسرة بعنوان :

Abnmasarrh y escuela, origines de la filosofia hispano musulmana.

(٢٨) لقد بلغ من مدى نجاحهم ان عبد الرحمن الثالث - كما سنقص فيما بعد - اطاح
برأس امير من أسرته لارائه الشيعية .

(٢٩) ابن حوقل : المسالك والممالك ، ٧٦/١ .

(٣٠) جاء فى Moralés : Chronica General, III, p. 324. الموضوع فى القرن

السادس عشر وصف مسهب وتصويرى قوى لهذا الوادى وذلك الكهف .

(٣١) راجع المقرئ : نفع الطيب ، ٩/٢ ، ١٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ .

(٣٢) المقرئ : شرحه .

(٣٣) هذا هو الأرجح فى أصله وأن كانت هناك رواية نصرانية تزعم أنه نصرانى من زعماء أشتوريس وهى رواية ضعيفة ، والصواب انه زعيم مسلم كان قد ولى بعض الولايات الشمالية (فى سبتمانيا) فى الأندلس فسعى الى مهادنته الدوق النصرانى « أودو » أمير أكويتانيا حتى زوجه إحدى بناته واسمها « لامبيجيا » ونستطيع من استقراء الأحداث التاريخية ان نقول ان الذى دعى « أودو » لمخالفة منوسة هو ما كان من نزاع شديد بين الدوق النصرانى وبين شارل مارتل الذى كانت أطعمته تمتد الى ولاية أكويتانيا .

(المترجم)

(٣٤) أما المؤرخون الاسبان الذين بالغوا كثيرا فى أهمية النجاح الذى صادفه بلاى

فيضعون كذلك ان منوسة قتل اثناء ارتداده ، لكن الواقع هو عكس ذلك تماما ، إذ ان هذا القائد ظل حيا بضع سنوات بعد هزيمته هذه ، ثم مات فى شرطانيس ، انظر : Isidore, e. 58. وقارن ذلك بما جاء فى ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧/٢ ،

وترجمته ، ص ٢٨ ، حاشية رقم ٢ .

(٣٥) تكلم ايزيدور (الفصل ٧٦) عن هذه المجاعة الكبرى .

(٣٦) يقول دوزى فى Recherches, t. I, p. 126. ما نصه « وكان نزولهم فى

مقاطعة شدونة ، ولما كانت سفن المسلمين المعدة للسفر موجودة ينهر رباط فقد سمى المسلمون هذه السنوت المهلكة بسنى رباط » ، راجع أيضا أخبار مجموعة ، ص ٦٢ ، وترجمته ص ٦٧ ، والبيان المغرب ، ٢٩/٢ ، وترجمته ص ٥٧ .

(٣٧) أخبار مجموعة ، ص ٦٢ ، وترجمته ص ٦٧ ، وابن عذارى : البيان المغرب ،

٢٨/٢ - ٢٩ ، وترجمته ص ٥٦ - ٥٧ .

(٣٨) Sebastien : Chronic. (Esp. Sagrada), t. XIII, p. 14

(٣٩) Dozy : Recherches, t. I, p. 140-141.

(٤٠) لقد ظلت بعض المدن مثل أشتورقة وتوى غير مسكونة حتى بعد سنة ٨٥٠ م .

(٤١) Dozy : op. cit., t. I, p. 116 et seq.

(٤٢) أما أحمد بن يعقوب الذى كتب حوالى سنة ٨٩٠ م فيقول ان امارة ماردة

(الواقعة على نهر الوادى اليناع) هى حصن على الحدود ، راجع دى خويه فى ص ١٦ من النص العربى الوارد فى :

Specimen Liter. Exhibens descripteionem al Maghreb.

(٤٣) Menachi, Silensis Chronicon (Esp. Sagr.) t. XVII ; Chron.

Albeldense. وكذلك المجلد الثانى والعشرين من نفس المجموعة .

(٤٤) Chronic. Albeldense. (E p. Sagr. 1, t. XIII, p. 64.

أما لفظ Castra de Napza الذى يستعمله مؤلف هذه الحوليات فالقصد به حصون القبيلة البربرية نفزة التى كانت تسكن المنطقة الواقعة بين تريجلو والوادى اليناع ، راجع ابن حيان ، ورقة ٩٩ ب ، ٩١٠١ .

(٤٥) راجع ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩٩ ب .

(٤٦) المقتبس ، ورقة ٨٣ ب ، راجع كذلك وصف سمورة الذى ذكره المسعودى فى مروج الذهب (طبعة باربييه دى مينارد) = ٣٦٣/١ ، وقد ورد هذا الوصف فى نفتح الطيب ، ٢٢٢/١ ، وترجمته ، فى : Dozy : Recherches t. I, p. 165-166.

(٤٧) أسهب ابن حيان : المقتبس ، ورقة ٩٨ ب - ١٠٢ ب ، فى ذكر تفاصيل هذه الحوادث ، راجع أيضا ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٤٤/٢ ، وترجمته ص ٢٢١ ، حيث يشير الى أن أحمد بن معاوية مات فى مستهل ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ ، (= فبراير سنة ٩٠١ م ، راجع أيضا Sampiro : Chronicon (Esp. Sagr.), t, XIV c. 14.

Chronica de los principes de Asturias y cantabria, Escr. I. (٤٨)

هذا وتوجد وثيقة أخرى (من سنة ٩٩٣ م) فى :

España Sagrada, t. xix, p. 383.

Charte chez Bergarza ; Antiquités de España, t. I, (٤٩)
p 197, Col. 2.

حواشي الفصل الثاني

(١) كانت هذه القلعة تقع جنوبي ماردة ، وكانت في هذه الأيام التي يتكلم عنها دوزي مسكنا ليرانس كتامة بقيادة زعيمهم المعروف بابن راشد الذي مات في محاربه الملك النصراني ومحاولته دفعه عن الحصن ، وقد تمكن أردونيو الثاني من الاستيلاء على الحصن : الأمر الذي أفرغ بقية المسلمين في ماردة التي يادر صاحبها وهو محمد بن تاجيت الى موادعة أردونيو الثاني بما يعث اليه من الهدايا والتحف ، فاكثفى الأمير النصراني بذلك وعاد الى بلاده ، وقد أشار الى ذلك ابن خلدون في تاريخه . (المترجم) :

Chronique du Moine de Silos, c. 44, 45. (٢)

وابن خلدون ، العبر ، ١٣٨/٤ ، هذا وقد اتبعنا المؤلف الاخير فيما يتعلق بتحديد التاريخ .

(٣) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٨٦/٢ ، وترجمته ص ٢٩٤ .

(٤) البيان المغرب ، ١٧٧/٢ ، ١٧٨ ، وترجمته ص ٢٨٣ ، وانظر أيضا : Sapiro Chronicon, c. 17 ; Moine de Silos, c. 46, 47.

ويلاحظ أن هذه القلعة كانت من أمنع حصون تلك الناحية .

(٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ١٧٧/٢-١٧٨ ، وترجمته ، ٢٨٤ ، والفصل السابع عشر من حوليات سامبيرو ، وكذلك مذكرات كاهن سيلوس ، الفصل ٤٦ ، ٤٧ ، ويضيف المترجم الى ذلك أنه يلاحظ أن هناك اختلافا بينا في تقدير هذه المعركة بين المصادر العربية الاسلامية والمصادر النصرانية ، اذ تذكر الأولى أن الجيش المسلم ارتد بقيادة امرائه سالما الى ارضهم ، على حين تؤكد المصادر المسيحية أن الهزيمة كانت تامة ، وان ساحة القتال كانت مغطاة بجثث قتلى المسلمين واسلحتهم وعتادهم ، وقد بنى دوزي على هذه المصادر الاخيرة رايه ، وان كان في الوقت ذاته استعمل المراجع الاسلامية وفي مقدمتها البيان المغرب ، لكن ليس من شك في أن الجماعة الاسلامية التي قدرت لها الحياة والعودة الى ارضها كانت من القلة بالصورة التي تشير صراحة الى مدى النكبة ، يدل على هذا ما أورده ، ابن حيان في المقتبس (المخطوطة) من قوله في التعليق على هذه الهزيمة « وانقلب الكفرة لعنهم الله الى بلادهم أغزة » فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين الله وحركه لجهاد أعداء الله ، انظر عنان : ٣٩٥/٢ ، حاشية ١ - (المترجم) .

(٦) أما عن هذه البلدة التي كانت تقع الى الجنوب قليلا من الغرضة المسماة اليوم Alhircemas الرابضة على شاطئ مراكش في الريف فيمكن مراجعة الادريسي في Description de l'Afrique et l'E pagne, p. 199, 205. واطهر أيضا البكري :

Description de l'Afrique Septentrionale, p. 212-213.

وكتاب الاستبصار ، ترجمة دي فانيان ، ص ٤٥ .

(٧) راجع Dozy : Recherches, t. II, 281. نقلا عن البكري (شرحه) ، ص وكذلك ابن عذارى البيان المغرب ، ١٧٩/١ وترجمته ص ٢٤٩ ، وابن خلدون : العبر =

= ٢٨٢/١ وترجمته ١٢٩/٢ ، ويذكر البكري أن هاتين الأميرتين هما ابن المعتصم بن صالح وتدعيان أمة الرحمن وخولة .

(٨) البيان المغرب ، ١٧٩/١ ، وترجمته ص ٢٤٩ ، ونزيد على ما قاله دوزي في المتن. ان مصرعه كان حين حضر غزوة أبي العباس القائد ، أما ديسم بن اسحق فكان الرجل الذي اشتد أمره في تدمير و تدمير اليه الأمير عبد الله في سنة ٢٨٢ هـ (= ٨٩٦ م) جنذا جعل الامارة فيهم الى عمه هشام بن عبد الرحمن بن الحكم الذي انتصر وان لم يكن انتصاره. حاسما . (المترجم) .

(٩) واسمه الكامل سعيد بن صالح بن سعيد بن ادريس بن منصور .

(١٠) أورد البكري : Description de l'Afrique Septentrionale, p. 219. نص هذه الآيات ، وكذلك ابن عذارى : البيان المغرب ١٨١/١ وترجمته ص ٢٥٢ ، وابن خلدون : العبر ، ٢٨٤/١ وترجمته ١٤٠/٢ ونضيف الى ما ذكره دوزي في المتن أعلاه ان مما جاء في رسالة عبيد الله الشيعي قوله :

فان تستقيموا استقم لصلحكم وان تعدلوا عنى اقتلكموا قتلا واعلو بسيفي قاهرا لسيفيوقم واسلخها عفوا وأملؤها عدلا

وانظر ما قاله دوزي عن نص الآيات الواردة في المتن ومرماها في :

Gottingische Anzeigen, 1858, p. 1091-92.

وكذلك تعليق دى سلين على ابن خلدون . (المترجم) .

(١١) وهذه هي المدة من اول الى ثالث ذي الحجة .

(١٢) كان هذا القائد رجلا من البربر واسمه أحمد بن العباس من بني يطوفت .

(١٣) ذكرت المراجع العربية انهم كانوا يلقبونه باليتيم .

(١٤) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع البكري :

Description de l'Afrique, p. 94-95.

وابن عذارى : البيان المغرب ١٧٧/١ - ١٨٣ ، وترجمته ص ٢٤٧ - ٢٥٥ ، وابن خلدون : العبر ، ٢٨٢/١ - ٢٨٥ ، وترجمته ١٢٨/٢ وما بعدها .

(١٥) انظر ما سبق .

(١٦) كان هذا الحليف هو شانجة بن غرسية ملك نفارة حينئذ ، وقد اكتفى دوزي بالإشارة الى ملكة نفارة .

(١٧) Chronic. de Moine de Silos, c. 47.

(١٨) لاندري مكانة الصدق في قول البيان المغرب ، غير أن ابن الفرصى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٤٥٧ ، والفتح في العقد ، ٢٧٢/٢ ، قد تناولاهما في حيايد بقيق ، راجع قانيان في ترجمته للبيان المغرب ، ٢٨٦/٢ ، حاشية رقم ١ .

(١٩) راجع ابن عذارى البيان المغرب ، ١٧٩/٢ - ١٨١ ، وترجمته ص ٢٨٥ - ٢٨٧ وانظر

ايضا : Sampiro : Chronicon c. 18.

(٢٠) هكذا في البيان المغرب ، لكنها واردة في دوزي باسم Osmā . (المترجم) .

(٢١) هكذا اسمها في البيان وهي في دوزي Alcubilla . (المترجم) .

(٢٢) راجع مرادد الاطلاع .

(٢٣) يشير المؤلف هنا الى ما كان من قيام أهل نفارة بمحاربة شارلمان وصدده عن عاصمتهم يانبلونة لكن لم تجد محاولتهم هذه المرة ولم تمنع المدينة من السقوط في يد المغير الافرنجى الذى اعمل يد التخريب والتدمير فيها حتى لا تكون مصدر مضايقة له . ثم تاهب للرجوع وفى أسره أمير عربى كره ولداه ما ألحقه شارلمان بأبيهما فهاجما مع جماعات أخرى مؤخرته عندما بلغ ناحية تعرف بممر روتشغال او باب شيزروا ، واتسم الهجوم الاسلامى بعنصر المياغته التى لم يكن يتوقعها شارلمان ، على أن الرواية النصرانية تقول أن البشكنس هم الذين قاموا بهذا الهجوم المياغته - . (المترجم) .

(٢٤) يقع هذا الوادى بين استيلا ويانبلونة ، أو على وجه الدقة بين مويش وساليناس دى اور .

(٢٥) نزيد على ما ذكره المؤلف ما قاله أحد المؤرخين مشيراً الى هذه الظاهرة من الرخص فيقول « كانت تبدل كل ستة أفقرة بدرهم فلا يوجد من يشتره » . (المترجم) .

(٢٦) وذلك يوم الخميس ١٢ ربيع الثانى سنة ٢٠٨ ، كما تنكر المراجع الاسلامية - (المترجم) .

(٢٧) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن عذارى : البيان المغرب . ١٨٢/٢ - ١٨٩ ، وترجمته ص ٢٩١-٢٩٧ ، وابن خلدون : العبر ، ١٣٥/٤ وانظر أيضاً ما جاء فى : Sapiro : Chron., c. 19 ; Ragull : Vita Vel Passio Sancti Pelgii (Schott), t. IV, p. 348.

(٢٨) كان الواجب أن تعتبر حملة أردونيو فى هذه السنة ذلك لأن سامبيرو يقول ان الملك فى عودته الى سمورة وجد زوجته قد ماتت ، والثابت ان الملكة ماتت فى صيف سنة ٩٢١ م ، انظر فى ذلك : Espagna Sagrada, t. XXXVII, p. 269.

Sapiro, Ch. c. 18. (٢٩)

Ibid., c. 19. (٣٠)

(٣١) تكلم ياقوت فى معجمه عن بقيرة فذكر موضعين فى اسبانيا بهذا الاسم ، احدهما متاخم لطليطلة والآخر فى اقليم مرية ، راجع أيضاً ابن الفرضى : تاريخ علماء الاندلس ٢٦/٢ ، انظر فيما بعد حاشية رقم ٣٣ .

(٣٢) اورد شانجة هذا النص فى انعام ممنوح بعد الاستيلاء على بقيرة ، انظر : Espagna Sagrada, t. xxxiii, p. 466.

(٣٣) كان القوامون بالدفاع عن بقيرة جماعة من كبار وجوه بنى لب وبنى ذى النون ، وقد وقعوا اسرى فى يد عدوهم أردونيو الذى قتلهم ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى بن ذى النون لقراره من حبسه ، وكان لذلك وقع شديد فى نفوس المسلمين تمثل فى لومهم الشديد للناصر . - (المترجم) .

(٣٤) نصيب هذه الشائعة من الصحة ضئيل ، وقد نجحت شريحة قليلون من الأشراف فى النجاة ، قارن ما جاء فى ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٩٥/٢ ، وترجمته ص ٣٠٥-٣٠٦ بما جاء فى ابن حيان : المقتبس ، ورقة ١٥٥ ب .

(٣٥) فيما يتعلق بهذه الحملة راجع البحث المنصل عنها فى البيان المغرب ، ١٩٦/٢ - ٢١٠ ، وترجمته ص ٢٠٧ - ٢١٢ .

(٣٦) كان ذلك في أواخر سنة ٢١١ هـ ، راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢ ، ١٦٥ ،
ص ٢٠٧ ، والواقع أنها كانت قبل ٩ أبريل سنة ٩٢٤ م .

Dozy : Recherches, pp. 142-152. (٣٧)

(٣٨) فيما يتعلق بالجوانب التاريخية والسياسية لهذه المسألة راجع ما كتبه سير
توماس أرنولد في الدائرة تحت كلمة « خليفة » .

Nicholson : a Literary History of the Arabs, p. 264. (٣٩)

(٤٠) ابن خردادبة ، مخطوط أكسفورد ، ورقة رقم ٩٠ .

(٤١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ص ١٦٢/٢ ، ٢١١-٢١٢ ، وترجمته ص ٢٦١ .
٢٢٢-٢٢٣ .

(٤٢) راجع ما كتبه ليفي بروفنسال في الدائرة تحت مادة « مغراوة » .

(٤٣) في الأصل الفرنسى « الحاكم الاسباني » وقد آثرت بدلا منها كلمة « عبد الرحمن »
لايضاح المعنى (المترجم) .

(٤٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١/٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٠/٢ ، وترجمته ص ٢٨٩ ،
٢٩٧ ، ٢٣٩ .

Espagna Sagrada, t. xxxiv, p. 241. (٤٥)

(٤٦) راجع البيان المغرب ، ٢٢٠/٢ ، وترجمته ص ٢٢٩ .

Dozy : op. cit., p. 150. (٤٧)

Sampiro : Chronicon, c. 22. (٤٨)

(٤٩) البيان المغرب ، ٢٢٢/٢ ، وترجمته ص : ٢٤٢ .

Sampiro : Chronicon, c. 22. (٥٠)

Dozy : op cit., pp. 152-156. (٥١)

(٥٢) ابن خلدون : كتاب العبر ، ١٣٦/٤ .

(٥٣) بنو قصى أسرة قوطية الاصل جبت المسيحية وقت الفتح العربى . (المترجم) .

(٥٤) الواقع أن هذه مبالغة من دوؤى ، ولعل الذى بعثه على أن يقول هذا القول
هو ما رآه من محاولة محمد بن هاشم التجيبى فى موادة النصارى ، والحقيقة أن
استقرار تاريخ هذه الأسرة فى تلك الحقبة يفسر اتجاهه ، ذلك أن التجيبين كانوا يتحدثون
عن سياسة الناصر فى استنزاله الولاة ، هذا على الرغم من أنه لما مات محمد بن عبد
الرحمن التجيبى سنة ٢١٢ هـ ، أقر الناصر ولاية ولده هاشم الذى أظهر المودة للسلطان
قلما مات هاشم ٢١٨ تطلع ولده محمد للحكم مكانه فتلكا الناصر ثم عاد فآقره ، فبقى
فى نفس محمد بن هاشم التجيبى شك ظهر أثره حين تخلف دون بقية آل بيته عن السير
مع السلطان فى خروجه سنة ٢٢٢ ، ما حمل السلطان على التريث لقتاله ، ثم ما كان بعد
ذلك من موادة محمد بن هاشم لراميرو ملك ليون . (المترجم) .

(٥٥) راجع ابن خلدون في Dozy, Recherches, t. I, p. 221. وانظر أيضا
الملحق رقم ١٢ بنفس المرجع ، xxxiii - xxxii .

Ibid., op. cit., loc. cit. (٥٦)

(٥٧) يكاد مطالع هذه الصفحات وهذا الكتاب الذى يعثه الناصر الى أحمد بن اسحق يؤكد انه من أسرة وضيفة ، لكن الواقع أنه كان يمت الى الناصر بصلة القرى ، وان كنا لا نعرف مدى هذه القرابة ، فاذا تذكرنا ذلك عرفنا السر فيما يقوله دوزى فى المتن أعلاه من أن أحمد بن اسحق هذا كان يتطلع لولاية العهد ، كما يفسر عدم تسرع الناصر فى قتله الا حين اتصل بالفاطميين فى المغرب ، انظر ابن الأثير ، ١١٥/٨ - (المترجم) .

(٥٨) نص هذا الخطاب وارد فى أخبار مجموعة ، ص ١٥٧ - ١٥٨ .

(٥٩) وكان خروجه للصيد - المترجم .

(٦٠) أما هذا القائد فهو أحمد بن محمد بن العباس ، وكان يشغل منصب قائد القوات السلطانية المرابطة قرب سرقسطة ، وكان السلطان قد بعثه لمحاربة نصارى برشلونة الذين حاولوا غزو البلاد الإسلامية ، وهزمهم أحمد بن محمد بن العباس هزيمة منكرة أفنت عددا لا بأس به من مقاتليهم ، واستولى على الكثير من عقادهم وسلاحهم ، وذلك فى شوال سنة ٣٢٤ هـ ، أما الكلام الذى بالمتن فيؤرخه جمادى الأولى سنة ٢٢٦ هـ حين سار الى ملك ليون وحليفه أمية بن اسحق ، فقد أمر الناصر قائدا آخر هو عبد الحميد بن بسيل بالانضمام الى أحمد بن محمد بن العباس . (المترجم) .

(٦١) راجع ابن خلدون فى : Dozy : Recherches t. I, app. II. وانظر أيضا
المسعودى فى مروج الذهب طبعة باربييه دى ميغار ، ٧٢/٢ ، والقرى : فتح الطيب
٢٨٨/١ .

(٦٢) كان محمد بن هاشم التجيبى قد راسل السلطان فى المصالحة وطلب الأمان ثم عمد الناصر - على غير انتظار الى القبض على من أرسلهم ابن هاشم من اخوته وأصحابه الى السلطان لتأكيد المراجعة . وحين ذاك تبين لابن هاشم الخدر الذى أصابه وما يترتب عليه من تقليم أظفاره ، فعاود طلب الأمان وكتب الناصر أمانا له ولاخوته وأصحابه من أهل سرقسطة ، واشترط عليه شروطا اذا وفى بها كتب له السلطان عهدا على مدينة سرقسطة ويستعمله عليها وتم ذلك كله وفق إرادة السلطان الذى دخل سرقسطة فى محرم ٣٢٦ هـ (= نوفمبر ١٩٢٧ م) دخول الظافر المنتصر . (المترجم) .

(٦٣) كانت طوطة ملكة نفاة وأرملة شانجة والوصية على ولدها عرسية ، وكان وفودها على الناصر وهو فى قلعة . (المترجم) .

(٦٤) راجع ابن خلدون فى : Dozy : Recherches, t. I, p. xxxii-xxxiii, app. xii.

حواشي الفصل الثالث

(١) Vita Johannis Gorziensis (Pertz. Mon. Germ.), c. 316.

(٢) ابن الأبار : الحلة السبراء ، ص ١٢٤ .

(٣) راجع المقرئ : نفع الطيب ٩٢/١ ، وراجع أيضا ما كتبه ليفي بروفنسال في الدائرة ، مادة « الصقالبة » وما أورده هناك من الراجع .

(٤) انظر ما كتبه بارتولد في الدائرة ، مادة Slaves وراجع أيضا ابن حوقل المسالك والممالك ٧٥/٢ ، ويطلق مؤرخو قرطبة على أوتو الأول اسم « ملك الصقالبة » ، انظر ابن عذاري : البيان المغرب ٢٣٤/٢ ، وترجمته ص : ٣٦٢ ، حاشية رقم ٢ ، والمقرئ : نفع الطيب ، ٢٢٥/١ .

(٥) ابن حوقل : المسالك والممالك ٧٥/٢ .

(٦) Liudraprand : Antapadosis, t. VI, c. 6.

(٧) راجع ابن حوقل : المسالك والممالك ٧٥/٢ ، والمقرئ : نفع الطيب ٩٢/١ ، وتقرن هذا بما جاء في :

Reinaud, Invasions des Sarrazins en France, p. 233.

راجع المقرئ : نفع الطيب ، ٥٧/٢ . أما الكتاب المشار اليه في المتن فاسمه « كتاب مسهر والمبالغة على من انكر فضل الصقالبة » ، أما مؤلفه الذي أشار اليه ابن الأبار في كتابه : تكملة الصلة رقم ٨٩ فقد عاش زمن الخليفة هشام الثاني ، انظر : Pons Boigues : En aya-bio-bibliographico sobre los Hitoria dores y geografos arabigo espanoles, (Madrid 1898), pp. 114-116.

(٩) المقرئ : نفع الطيب ، ٣٧٢/١ - ٣٧٣ .

(١٠) أخبار مجموعة ، ص ١٥٦ .

(١١) ليس من شك في أن ما انطوت عليه قلوب البعض من الحقد على الناصري لتقريبه الصقالبة وعلى رأسهم نجدة بن حسين قد كان له دخل كبير في هذه الهزيمة ويصرح بذلك المؤرخ ابن الخطيب حين يقول « أن طائفة من جند الناصر لدين الله حسدته على ما هيأه الله من الصنع له ولم تناصحه في الحرب حق النصيح ، فجالت داخل مصاف القتال وجرت الهزيمة على المسلمين بسببها . وما كاد الناصر يصل الى قرطبة حتى قبض على نحو الثلاثمائة من الفرسان فصلبهم وأمر بالنداء عليهم « هذا جزاء من غش الاسلام وكاد أهله ، وأضل بمصاف الجهاد » وهذا ما يشير اليه دوزي في المتن أعلاه قبل صفحات قلائل في عبارة موجزة ، انظر في ذلك ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٣٧ (طبعة بيروت ، ١٩٥٦) . المترجم .

(١٢) لا أقل من أننا لن نعود نسمع عنه شيئا ما .

(١٢) لقد بذل الخليفة قسارى جهده لفك اساره ، غير ان محمد بن هاشم لم يسترد حريته الا بعد عامين .

(١٤) فيما يتعلق بوقعتى شلمنقة والخنديق ، راجع ما كتبه Dozy : Recherches , t. I, pp. 156-70. ولم يرد لهزيمة المسلمين هذه نكر في حوليات مؤرخي عهد عبد الرحمن ولا في ابن عذارى ، واذا استثنينا ما كتبه المؤرخون المسيحيون امثال Sampiro : op. cit., c. 22, 23 ; Liudprand : Antapodosis, L. V, c. 2 de l'edition de Pertz, Annales de Saint Gall, (in) Pertz : Monum. Germ., t. I, p. 78.

فلا يعرف المرء الا شيئا قليلا من تاريخ اخبار مجموعة ، من ١٥٥ - ١٥٦ ، وابن خلدون والسعودى في مروج الذهب ٣٦٢/١ ، ٧٢/٢ ، وقد نقلها عنه القزى في نفع الطيب ٢٢٨/١ ، اها النصوص العربية البعثرة هنا وهناك فقد جمعها دوزى في المرجع السابق . انظر نفس المرجع ، ملحق رقم ٤ ، من xxviii-xxix كما ان هناك بعض الروايات العربية المتعلقة بهذه الحملة وهى واردة في الحلة السيرة ، من ١٥٠ ، وفي الكامل لابن الأثير . انظر ايضا : Annales du Maghreb et d'Espagne, pp. 323-324.

راجع كذلك البكرى (مخطوط باريس) رقم ٥٩٠٥ ، ورقة ١٥٠ ، وترجمة فانيان اللبيان المغرب ، ٢٤٨/٢ ، حاشية رقم ٢ .

(١٥) عرف هذا باسم Tejiare أو Teliare وقد وردت كلمة Patalium في كتاب Sampiro, op. cit., c. 19. (طبعة فلوريز) ولكن الصحيح فيها هو ان تكون Placitum على ان البحث الصحيح المتعلق بهذا الموضوع وارد في مخطوط لندن fonds Vossius, no 91. اما لوكاس Lucas du Tuy فقد استعمل في ص ٩٢ كلمة Iuncia وهى خونتا Junta في الاسبانية الحديثة التى هى اقرب ما تكون لكلمة Placitum راجع في تحقيق ذلك : Espagna Sagrada, t. IX, p 383.

Sampiro : op. cit., c. 19. (١٦)

Bergenza : Antigüedades de Espagna, t. I, p. 215. (١٧)

(١٨) اضفنا ما بين الحاصرتين من الترجمة الانجليزية لايضاح المعنى (المترجم) .

Sampiro, op. cit., c. 23 (١٩)

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٦/٢ ، وترجمته من ٢٤٨ .

(٢١) ابن الأبار : الحلة السيرة ، من ١٤٠ .

(٢٢) يقصد المؤلف بذلك ابا بكر وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما (المترجم) .

(٢٣) انتهى كثير من المؤرخين الى نتائج خاطئة فيما يتعلق باقامة ابي يزيد الاولى في القيروان ويمكن الاعتماد على ما جاء في البيان المغرب ، ٢٢٤/١ - ٢٢٦ ، وترجمته من : ٣١٦-٣١٧ ، وذلك نقلا عن ابن سعدون وهو مؤلف معاصر يفوق غيره من المؤلفين في ان كتاباته مطبوعة بطابع الدقة اكثر منهم .

(٢٤) فيما يتعلق بالقائم راجع ما كتبه سوبرنهايم عنه في الدائرة

(٢٥) كان ذلك سنة ٩٢٦ م (المترجم) .

Alkairawan, Histoire de l'Afrique, trad., Pellisier et Remusat, (٢٦)
p. 104.

(٢٧) فيما يتعلق بأبي يزيد وثورته راجع ما كتبه باسيه في الدائرة والحياسن الواردة
• هناك

Sampiro : op. cit., c. 23. (٢٨)

Berganza : Antigüedades de España, t. II, Esc., 328, et (٢٩)
Risco : His- toria de Leon (Madrid, 1792), t. I, p. 211.

Bergaza : op. cit. • انظر المراسيم الواردة في المرجع السابق

(٢١) فقد أعطي علي سبيل المثال بستان الكونت الى دير كاردين ، انظر مرسوم.
٢٣ أغسطس ٩٤٤ في المرجع السابق ، وثيقة رقم ٢٤ •

Chronica Rimaça, p. 12 (Wiener Jahrbüchen) Anziige — (٢٢)
Blatt du Tome cxvii.

Sampiro, op. cit., c. 23. (٢٣)

(٢٤) أهملت النسخة الانجليزية ترجمة هذا السبيل وما يليه - (المترجم) •

Sampiro, op. cit., c. 23.

: البيان المغرب ، ٢٢٧/٢ - ٢٢٧ ، ٢٢٠ ، وترجمته
كوية النصر في هذه المعارك هما احمد بن العباس واقد

(٢٧) راجع البيان المغرب ، ٢٢٩/٢ - ٢٢٠ ، وترجمته من ٢٥٤ - ٢٥٥ • وقد انتهت
هذه الاعمال في صفر سنة ٢٢٥ (= سبتمبر ٩٤٦ م) •

Sampiro, op. cit., 24. (٢٨)

Dozy : Recherches, t. I, : راجع موت راميرو راجع : (٢٩)
pp. 170-173.

ويلاحظ ان دوزي في هذا البحث يعمل لترجيح الرواية القائلة بأنه مات في سنة
• ٩٥١ م

(٤٠) وكذلك اعتمادا على تأييد جنته الملكة طوطة - (المترجم) •

(٤١) كانت أم شانجة وزوجة فرديناند شقيقتين •

Sampiro : Chronic. c. 25. (٤٢)

(٤٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٢/٢ ، وترجمته من ٢٦٠ •

(٤٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٢/٢ - ٢٢٦ ، ويلاحظ ان احمد بن يعلى هو
قائد هذه الحملات •

Chronicon de Gardéna (España Sagrada), t. XXIII, p. 317. (٤٥)

(٤٦) العبر لاين خلدون ١٤٢/٤ .

(٤٧) فيما يتعلق بهذا العالم اليهودي راجع :

Graetz : Les Juifs d'Espagne, trad., G. Stienne, Paris 1872, p. 76. cf. also
History of the Jews, 1892 ; Vol. II, pp. 220-225.

(٤٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٧/٢ ، وترجمته ص ٣٦٧ ، هذا وينبغي
قراءة حسداى بن « سبروط » بدلا « من شبروط » الواردة فى المخطوط ، انظر ابن خلدون :
العبر ، ١٤٢/٤ .

(٤٩) ابن خلدون : نفس المرجع والجزء والصفحة .

(٥٠) Amari : Storia della Musulmane di Sicilia, II, pp. 242-248.

(٥١) Amari : op. cit., II, p. 249-250.

(٥٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٧/٢ ، وترجمته ص ٣٦٦ .

(٥٣) يقصد المؤلف بذلك تونس - (المترجم) .

(٥٤) ورد اسم اردونيو الثالث فى المنشورات حتى شهر مارس ٩٥٧ . انظر فى ذلك :
Espagna Sagrada, t. XXXIV, p. 268.

على انه يمتقارنة ما جاء فيها بما هو وارد فى الحوليات العربية يتجلى خطأ التاريخ
المنكور فى مخطوطات سامبيرو حول موت هذا الملك من القول بأنه مات فى سنة ٩٥٥ م .

(٥٥) كان عيد الرخمن قد قلده أمر بطليلة عام ٩٥٤ م ، انظر ابن الابان : الحلة

الببراء ، ص ١٤٠ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٥/٢ وترجمته ص ٣٦٢ .

(٥٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٢٧/٢ ، السطر الاخير ، ص ٢٢٨ وترجمته ،

ص ٣٦٨ .

حواشى الفصل الرابع

- (١) ابن خلدون فى : Dozy : Recherches, t. I, p. 97.
- (٢) قال سامبيرو ما يقرب من هذا القول فى معرض حديثه عن راميرو الثانى .
- (٣) كما كان فى الوقت ذاته صهر فرديناند جونثالث - (المترجم)
Luzzato : Notices sur Abu-Jousuf Hasdai ibn Shaprut, p. 24.
- (٤) انظر ابن خلدون : العبر ١٤٢/٤ : Dozy : op. cit., loc. cit.
- (٥) Espagna Sagrada, t. XXXIV, p. 269.
- (٦) وكذلك جدته الملكة طوطة ملكة نفارة . (المترجم)
- (٧) كما كان فى الوقت ذاته صهر فرديناند جونثالث - (المترجم)
- (٨) انظر ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥/١٢ ، وترجمته ص : ٢٨٨ .
- (٩) سيمر عليك فيما بعد قصة لقاء اريون الرابع مع الحكم الثانى .
- (١٠) ويسمونه فى الاسبانية بال Il-malo أى الخبيث أو الردىء ، راجع المقري : نفع الطيب : ٢٥٢/١ .
- (١١) لقد اخطأ سامبيرو فى تذييله فحشاه بالاطشاء فيما يتعلق بتاريخ مملكة ليون حتى انه كثيرا ما يقول ان اردون الثالث طلق « اوراك » فكان ذلك علة ثورة فرديناند عليه ، اما ريسكو Risco - كما جاء فى Esp. Sagrada, t. xxxiv, p. 261-263. فقد اعتمد على ما جاء فى الوثائق فدلل على ان « اوراك » ظلت تحت اردونيو الثالث حتى موته .
- (١٢) Sampiro : c. 26.
- (١٣) البيان المغرب ، ٢٢٧/٢ ، وترجمته ص ٣٦٧-٣٦٨ .
- (١٤) راجع حياة جوهانس حيث يقول :
- Judem quendam cui nomen Hasadew, quo neminem unquam prudentiorem se vidisse aut audisse nostri testati sunt; cf. Vita Johannism, Gorziensis, c. 12.
- (١٥) يلاحظ ان دوزى لم يشر الى المرجع الذى استقى منه هذه القصيدة وتابعه فى ذلك الأستاذ ليفى بروفنسال ، اما الترجمة الانجليزية فقد اشارت الى المصدر وذكرت انه هو : Graetz : History of the Jews Vol. III, p. 232. - (المترجم)
- (١٦) المقري : نفع الطيب ٢٥٣/١ .

- (١٧) هكذا في الأصل الفرنسي ، أما في الترجمة الانجليزية فهو راميرو الثالث
 .والصحيح هو كما جاء في الأصل وما اثبتناه هنا في الترجمة العربية - المترجم .
- (١٨) راجع في Sampiro : Chronicon, c. 26. قصيدة « دوناش بن لبرت ،
 المبرية وقصيدة مناحم بن سرك الواردة في :
 Laizzato : Notices sur Abu Jousowf Ha daii Ibn Schaprut, pp. 24, 25,
 29-31.
- وعبارة ابن خلدون التي بعث بها دوزي الى مسيو لوزاتو والتي طبعها هذا العالم
 في كتابه السابق ، ص ٤٦-٤٧ ، والتي يراها القارىء في كتاب :
 Dozy : Recherches. t. I, p. 98.
- (١٩) لم يشر المؤلف دوزي ولا ليفي بروقتسال الى تاريخ هذه الحملة لكننا تثبت هنا
 - بناء على ما جاء في المصادر العربية - ان هذا الابطار كان يوم اول المحرم سنة ٢٤٧ هـ .
 - وان السفن قصدت مدينة الشيعي « معد بن اسماعيل » - (المترجم) .
- (٢٠) راجع ترجمة العبير لابن خلدون ٤٥/٢ ، وابن عذارى البيان المغرب ، ٢٨٢/٢ ،
 وترجمته ص ٣٦٩ .
- (٢١) Sampiro : Chronicon, c. 26. (٢١)
- (٢٢) انظر ما ورد من ابن خلدون في Dozy : Recherches, t. I, p. 98. (٢٢)
- (٢٣) Esp. Sagrada, t. XXXIV, p. 270. (٢٣)
- (٢٤) Sampiro : op. cit., c. 26. (٢٤)
- (٢٥) Espagna Sagrada, t. XXXIV, pp. 270-271. (٢٥)
- (٢٦) راجع ابن خلدون : العبير ، ١٤٣/٤ .
- (٢٧) Annales Compostellino وراجع ابن خلدون في Dozy : Recherches, t. I, p. 98. (٢٧)
- (٢٨) Sampiro : Chronicon, c. 26. (٢٨)
- (٢٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ١٦١/٢ ، ٢٣٩ ، وترجمته ص ٢٥٩ ، ٢٧٠ .
- (٣٠) الاضافة من الترجمة الانجليزية لايضاح المعنى . (المترجم) .
- (٣١) ابن عذارى : البيان المغرب ٢٤٧/٢ ، وترجمته ص : ٢٨٢ .
- (٣٢) ابن حوقل ، المسالك والممالك ، ٧٧/٢ .
- (٣٣) ابن حوقل ، نفس المرجع والجزء ، ص ٧٧-٧٦ .
- (٣٤) نفس المؤلف والمرجع ، ص ٧٦ ، ٧٨ .
- (٣٥) انظر كتاب حسداى الذى بعث به الى الخزر في :
 Carmoly : Des Khozars au Xeme siecle, p. 37.
- (٣٦) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٤٨-٢٤٧/٢ ، وترجمته ص : ٢٨٣ ، انظر ايضا
 ابن حوقل : المسالك والممالك ، ٧٦/٢ ، والمقرئ : نفع الطيب ٣٦١/١ ، ٢٧٣ .
- (٣٧) المقرئ ، شرحه ، ٢٠٢/١ .

Hroswitha : Passio, s. Pelagii.

(٢٨)

(٣٩) أضفنا هذا التاريخ في الترجمة العربية فقد وجدناه مكتوبا بالقلم الرصاص بخط الأستاذ تسبولد في هامش القرى : نفع الطيب : ٢٤٤/١ . في النسخة الموجودة بمكتبة جامعة القاهرة - (المترجم) .

(٤٠) فيما يتعلق بأعمال التنقيب في مدينة الزهراء ، راجع ما جاء في جريدة التيمس بتاريخ ٢٨ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، تحت عنوان an arabic Pompeii أما عن صور ولوحات المكتشفات والدراسة الفنية فانظر عليهما :

E. Wikishaw : Hispano-arabic Art at Medina-el-Zahra'a (Burlington Magazine, August 1911).

(٤١) راجع ابن حوقل : المسالك والممالك ٧٦/٢-٧٧ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٤٦/٢-٢٤٧ ، وترجمته ص : ٢٨١-٢٨٢ . والمقرئ : نفع الطيب ، ٢٤٤/١-٢٤٦ ، ٣٧٠ ، وما بعدها ، وانظر ما كتبه ليفي بروفنسال في دائرة المعارف الاسلامية ، تحت كلمة « الزهراء » .

Vita Iohannis Gorziensis, c. 135.

(٤٢)

حواشي الفصل الخامس

- (١) المقرئ : نفع الطيب ٢٥٤/١ .
- (٢) راجع ابن خلدون في : Dozy : Recherches t. I, p. 98.
- (٣) Sampiro : Chronicon, c. 26.
- (٤) راجع ابن خلدون : العبر ، ١٤١/٤ .
- (٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥٠/٢ ، وترجمته ص : ٢٨٨ .
- (٦) كان هذا القصر يعرف بدار الناعورة - المترجم .
- (٧) ورد في عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، ص ٤٥٨ باسم « خيزون » وقال انه قاضي قضاة اهل الذمة في قرطبة - (المترجم) .
- (٨) وردت هذه القصة بأكملها في ابن حيان وفي المقرئ : نفع الطيب ٢٥٦-٢٥٢/١ ، انظر أيضا ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥١/٢ وترجمته ص : ٢٨٨ . وفي هذا المرجع يتيقن على القارئ ان يستبدل عام ٢٥١ هـ الوارد في صفحة ٢٥٠ بعام ٣٥٢ ، وذلك لأن حوادث سنة ٢٥٢ لم تبدأ الا من صفحة ٢٥١ ، سطر ١٩ ، راجع أيضا ابن خلدون العبر ، ١٤٥/٤ .
- (٩) ابن خلدون : العبر ١٤٥/٤ ، وكذلك : Dozy : Recherches, t. I, p. 98.
- (١٠) أما ابن خلدون فيسميه في نفس الجزء والصفحة بابن المغيث ، ويسميه المقرئ بابن الخيرزان .
- (١١) نعته ابن خلدون : العبر ، ١٤٥/٤ بالكاثوليكي ، ومنه تعرف ان القوم في قرطبة كانوا يسمون المطران بهذا الاسم الذي يطلق على القسيس النسطوري في الشرق ، راجع كتاب البلدان لأحمد بن يعقوب .
- (١٢) ويسميه ابن خلدون : العبر ١٤٥/٤ بعبد الله .
- (١٣) انظر ابن خلدون ، نفس المرجع والجزء والصفحة .
- (١٤) Sampiro : Chronicon, c. 27.
- (١٥) الواقع ان الخوف تسرب الى نفس شانجة من هذا العطف الكبير من جانب الخليفة الحكم على أردونيو الرابع ، وانرك ان ما تعهد به الحكم للملك النصراني لابد وأن تكون له عراقبه الوخيمة عليه هو ذاته ، لذلك لم ير بدا من أن يفعل ما فعله أردونيو حتى يفسد عليه خطته او على الأقل يكف خطر الحكم عن ناحيته ، لذلك يادر لارسال سفارة من قبله الى الحكم يجدد ما قطعه على نفسه لآبيه الناصر من تسليمه بعض القلاع ، انظر الحاشية التالية - المترجم .

(١٦) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته من ٢٨٩ ، وابن خلدون :
العبير ، ١٤٥/٤ .

(١٧) مخطوط ميا ، ورقة رقم ١٥ ، Sampiro : op. cit., c. 28.

(١٨) راجع البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته من ٢٨٩ .

(١٩) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢٥١/٢ ، وترجمته من ٢٨٩ ، وابن خلدون :
شرحه ١٤٥/٤ .

(٢٠) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥٧/٢ ، وترجمته من ٣٩٨ . هذا
ويلاحظ أن الحملة التي زحفت على قلهرة كانت بقيادة غالب بن عبد الرحمن وسعيد بن
الحكم الجعفرى وكانت سنة ٣٥٧ .

(٢١) Sampiro : op. cit., c. 27.

(٢٢) كان من بين ما قام به الكونت يوريل للتدليل على حسن نيته تجاه الخليفة انه
بعث مع سفارة من رجاله ثلاثين من اسرى المسلمين كانوا لديه - (المترجم) .

(٢٣) ابن خلدون : وعبر ، ١٤٦/٤ .

(٢٤) Sampiro : Op. Cit., 27. وقد مات شانجة حوالى نهاية سنة ١٦٦م
Risco : Historia de Leon, t. I, p. 212. (= ٣٥٥هـ) انظر فى ذلك :

(٢٥) Chron. du Moine de Silos, c. 70.

(٢٦) راجع خبر هذه الحملة من Dozy : op. cit., II, p. 286-299.

(٢٧) Sampiro : op. cit., c. 28.

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥٥/٢ ، وترجمته من : ٢٩٥ .

(٢٩) راجع ابن الأبار : الحلة السيرة ، من ١٠٢-١٠١ ، والمقرئ : فتح الطيب
٢٥٦/١ ، أما فيما يتعلق بابى الفرج الأصفهاني فانظر ما كتبه عنه بروكلمان فى الدائرة
والمراجع المذكورة هناك .

(٣٠) راجع طبقات الأمم لصاعد الطليطلى ، من ٦٥-٦٦ .

(٣١) ابن خلدون فى المقدمة .

(٣٢) راجع البيان المغرب ٢٩٦/٢ ، وترجمته من : ٢٩٧ .

(٣٣) فتح الطيب ، ١٣٦/٠ .

(٣٤) فيما يتعلق بهذا المحدث المعروف ايضا باسم ابن الأحمر والمتوفى سنة ٣٥٨هـ
(= ٩٦٨م) راجع ما كتبه الضبى فى بغية الملتمس ، رقم ٢٧١ ، من ١١٦-١١٨ ، وابن
الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٢٨٧ ، من ٣٦٢-٣٦٤ ، وابن عذارى : البيان
المغرب ٢٧٤/٢ وترجمته ، من ٤٢٩ حاشية رقم ٥ .

- (٢٥) فيما يتعلق بأبي علي القالي راجع ما كتبه عنه محمد بن شنب في الدائرة .
- (٢٦) فيما يتعلق بأبن القوطية راجع ما كتبه عنه محمد بن شنب في الدائرة .
- (٢٧) المقرئ : نفع الطيب ، ٣٤٦/٢ .
- (٢٨) يعنى بذلك المنصور بن أبي عامر .

حواشي الفصل السادس

- (١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٤/٢ ، وترجمته ص ٤٢٦ .
- (٢) يقصد بالاسفنج : التين - (المترجم) .
- (٣) فيما يتعلق بهذه القصة راجع ابن الخطيب : الاحاطة (مخطوط جيانجوس) ورقة ١١٧ ب ، وعبد الواحد المراكشي : المعجب : ص ١٨ ، ١٩ ، وترجمته ص ٢٢-٢٣ ، وذلك نقلا عن الحميدى فى كتابه الامانى الصانقة .
- (٤) سيرى القارئ حين مراجعته النسخة الفرنسية اختلافا بسيطا اقتضاه الوضع الفرنسى ، وقد أثرتنا فى هذه الترجمة العربية إيراد النص كما هو مذكور فى المصادر العربية (المترجم)
- (٥) ذلك هو القاضى محمد بن بشير بن شراحيل المعافى ، راجع عنه على وجه الخصوص الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٥١ وما بعدها .
- (٦) هو محمد بن اسحق بن السليم الذى أصبح قاضى قرطبة عام ٣٥٦هـ (= ٩٦٧م) ، أما فيما يتعلق به فراجع الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٢٠٧ .
- (٧) أورد هذه القصة أيضا عبد الواحد المراكشى فى كتابه المعجب ، ص ١٨ ، وترجمته ص ٢١-٢٢ ، نقلا عن الحميدى حين كلامه عن ابن حزم ، أما مضيف ابن أبى عامر فاسمه : أبو عبد الله محمد بن اسحق التميمى .
- (٨) راجع ابن عبد الملك المراكشى (مخطوط باريس ، رقم ٦٨٢) ، ملحق عربى ورقة ١٠١ .
- (٩) وردت بشأنه كلمة موجزة فى المقرئ : نفع الطيب ، ٩٠٤/١ ، راجع أيضا ابن الأبار : تكملة الصلة ، رقم ١٢٥١ ، ص ٤٣٧-٤٣٨ .
- (١٠) فيما يتعلق بهذا الشخص راجع ما ورد عنه فى طبقات الأمم لصاعد الأندلسى (طبعة لويس شيخو) ص : ٧٨ ، وابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء (طبعة بولاق) ، ١٢٩٩ هـ ، ٤٣/٢ ، كذلك الضبى : بغية الملتمس ، رقم ١٦٤٠ ، ص : ٤٨٣ ، والمقرئ : نفع الطيب ١١٩/٢ .
- (١١) راجع ابن عذارى : البيان ، ٢٧٢/٢-٢٧٤ ، وترجمته ص : ٤٢٤-٤٢٦ ، وعبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص : ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، وترجمته ص ٢١ ، ٢٢ ، وابن الأبار : الحلة السبراء ، ص ١٤٨-١٥٢ ، وهذه هى سلسلة نسبه الكامل : أبو عامر محمد بن أبى حفص عبد الله (وأمه بريهة) بن محمد (وابن بنت يحيى الحاجب) بن عبد الله بن عامر (نديم السلطان) بن أبى عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

(١٢) راجع أبيات محمد بن حسين التبنى الواردة في ابن عذارى : البيان المغرب ٢٧٣/٢ ، وترجمته ص ٤٢٥ .

(١٣) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء والصفحة ، ٢٧٤ ، وترجمته ص : ٤٢٦ .

(١٤) راجع ابن الأبار الحلة للسيراء ، ص ١٥٢ .

(١٥) المقرئ : نفع الطيب ، ٢٥٩/١ -

(١٦) الخشني : تاريخ قضاة قرطبة ، ص ٢٠٧ .

(١٧) البيان المغرب ، ٢٥١/٢ ، وترجمته ص : ٢٨٩ .

(١٨) في الترجمة الانجليزية ، ٢٢ فبراير (المترجم) .

(١٩) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦٧/٢-٢٦٨ ، وترجمته ص : ٤١٥ . وكذلك يوجد اسم « عامر » منقوشا على سكة ذلك العهد .

(٢٠) قارن ذلك بما جاء في المقرئ : نفع الطيب ، ٢٥١/١ .

(٢١) المقرئ : نفع الطيب ، ٦١/٢ .

(٢٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٦٨/٢ ، وترجمته ص : ٤١٦-٤١٧ ، وكذلك

المقرئ : نفع الطيب ٦١/٢ .

(٢٣) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء والصفحة ، وترجمته ص ٤١٧ .

(٢٤) ابن عذارى : شرحه ، ص ٢٦٩ ، وترجمته ص : ٤١٧ .

(٢٥) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٦٧-٢٦٨ ، وترجمته ص : ٤١٥-٤١٦ .

(٢٦) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ١٦٠ ، ١٧٠ ، وترجمته ص ٢٠٤ ،

٢١٩ .

(٢٧) نفس المرجع والجزء ، ص ٢٧٥ ، وترجمته ص : ٤٢٩ .

(٢٨) واسمه الكامل هو : محمد بن قاسم بن طملىس ، ويتضح من البيان المغرب ضبط اللفظ الأخير ، أما القاموس فقد ضبطه بفتح الطاء والميم وتشديد اللام المفتوحة ، وقد جراه في هذا الضبط مترجم البيان - (المترجم) .

(٢٩) أما عن هذه الناحية التي درسها البكري ، ص ٤٦ ، فيمكن مراجعة البيان المغرب ، ٤٠٦/٢ ، حاشية رقم ١ .

(٣٠) كانت هزيمة بن طملىس في ناحية تعرف بفحص مهران - (المترجم) .

(٣١) أسس هذا الحصن جماعة من الأدارسة عام ٢١٧هـ (= ٩٢٩ م) . أما فيما يتعلق بحجر النسر وتأسيسه فيمكن مراجعة ما كتبه ابن حوقل : المسالك والممالك ، ٥٦/٢ ، وكذلك الادريسي ، Description de l'Afrique, p. 203. ، وكذلك البكري في Description, pp. 250-257. وانظر ابن خلدون . العبر ، الجزء الاول ، في الملحق .

- (٣٢) ترجمها دوزى فى الفرنسية بصخرة النسور Roche des Eagles وتبعه فى ذلك ستوك فى الترجمة الانجليزية فجعلها The Eagles' Roch - (المترجم) .
- (٣٣) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٣٦٠ ، ٣٦٥ ، ٣٦٨ - ٢٦٩ ، وترجمته ص : ٤٠٤-٤١١ ، ٤١٧-٤١٨ ، وابن أبى ذرع : روض القرطاس ، ص ٥٦-٥٨ ، وابن خلدون : العبر ٢/١٤٩-١٥٠ ، ٢/٢١٥-٢١٦ من ترجمته .
- (٣٤) البيان المغرب ، ٢/٢٦٥-٢٦٧ ، وترجمته ص ٤١١-٤٢٩ .
- (٣٥) البيان المغرب ، ٢/٢٦٥ ، وترجمته ص ٤١١ .
- (٣٦) البيان المغرب ، ٢/٢٦٩-٢٧٦ ، وترجمته ص : ٤١٨-٤٢٩ .
- (٣٧) ابن أبى ذرع : روض القرطاس ، ص ٥٨ ، وابن خلدون : العبر ، ٢/١٥٢ من الترجمة .
- (٣٨) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٦٥ ، وترجمته ص ٤١٢ ، وابن خلدون : العبر ٢/١٥١-١٥٢ ، ٢/٢١٦ .
- (٣٩) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٦٥ ، وترجمته ص ٤١١ ، وقارن ذلك بما جاء فى ابن خلدون : العبر ، ٢/٢١٦ .
- (٤٠) وردت كلمة « الاحوس » فى الترجمة الانجليزية - (المترجم) .
- (٤١) البيان المغرب ، ٢/٢٦٦ ، وترجمته ص : ٤١٣ .
- (٤٢) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص : ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، وترجمته ص ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .
- (٤٣) المقرئ : نفح الطيب ، ٢/٥٩ .
- (٤٤) يسميه ابن عذارى بالجعفرى ، أما « جعفر فاسم أطلقه الحكم على « صبيح » - انظر فى ذلك البيان المغرب ، ٢/٢٦٩ ، وترجمته ص : ٤١٨ ، ولهذا السبب سمي هذا العبد الطليق بالجعفرى ، أو « الجعيفرى » ، هذا ويلاحظ أن الخلفاء - فى بغداد - كانوا يحبون أن يطلقوا أسماء الرجال على نسائهم .
- (٤٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢٦٥-٢٦٦ ، وترجمته ص ٤١٣ .
- (٤٦) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٤٩ ، وترجمته ص : ٣٨٥ ، ويلاحظ أنه فى صفحة ٢٦٩ من الاصل العربى من البيان (ص ٤١٨ من الترجمة) وردت كلمة « رمضان ، بدلا من صفر ، وهذا خطأ .
- (٤٧) البيان المغرب ، ٢/٢٦٨ ، وترجمته ص : ٤١٦ .

حواشي الفصل السابع

- (١) ويعرف في المراجع العربية بالنظامي .
- (٢) هذا النص الذي أورده المؤلف مأخوذ من البيان المغرب ٢٧٦/٢-٢٧٧ - (المترجم)
- (٣) راجع فيما يتعلق بترجمته ما كتبه دوزي في كتابه :
Notices sur quelques manuscrits arabes, 1851, p. 141-147.
- والمراجع الواردة في الحواشي هناك . (المترجم)
- (٤) تفسيراً وتأكيداً لما أورده دوزي في المتن أعلاه ننقل ما جاء في ابن عذارى ،
شرحه ٢٧٧/٢ : « وقد عزما على رد الأمر للمغير بن الناصر أخي مولاهما الحكم خشية من
إيثاره على ابنه هشام لصغر سنه وأنكار الناس لتقديمه ، على أن يقر ابن أخيه
هشاماً على العهد بعده ، فيمنان على المغيرة بسوق الخلافة إليه ويقيا لمولاهما بارتقاب
كبير ولده ، ويكون الملك في أيديهما بخاله » . (المترجم)
- (٥) ليس هناك من المراجع ما يشيخز إلى أخوة الدم بين فائق وجوذر ، لكن جرت العادة
باطلاق هذا اللفظ على الخصيان ، انظر عبارة ابن الخطيب الواردة في :
Dozy : Recherches, I, p. 37.
- وانظر أيضاً الترجمة الفرنسية للبيان المغرب ، ٤٢٢/٢ ، حاشية رقم ١
- (٦) هذا ما جاء في ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٧/٢ حيث أشار إلى أنه قال
« هل أنا الا تبع لكما وأنتما صاحبا القصر ومدبرا الأمر ؟ » والظاهر أن جل اعتماد دوزي
كان على ابن عذارى وحده في هذه الناحية .
- (٧) في الاصل الفرنسي « وابن أخته » ، ولكن ابن الأباز في الحلة السيزاء ،
ص ١٤٢ يذكر أنه « أخوه » .
- (٨) ابن الأبار : نفس المرجع ، ص ١٤٨ - ١٥٣ .
- (٩) نفس المؤلف والمراجع ، ص : ١٥٤ - ١٥٥ .
- (١٠) هذه العبارة كلها مأخوذة من ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٩/٢ ، ويلاحظ
أن دوزي قد أورد هذه العبارة في شكل خطابي على لسان المغيرة ، وكذلك فعلت الترجمة
الانجليزية ، أما المقرئ : نفع الطيب ، ٦٠٩٢ فنراه لم يورد في هذا الصدد سوى هذه
الجملة « أنا سامع مطيع » . - (المترجم)
- (١١) إضافة إلى ما يقوله دوزي في المتن وتأكيداً لهذا المعنى تسوق ما ذكره المقرئ
في نفع الطيب ، ٢٧٩/٢ ، في هذا الصدد حيث قال في شأن جوذر وفائق أنهما « أنكفاً
التي جعفر فإظهاراً له السلامة والأستبشاً بما أتاه الله ، والاعتذار عما رأياه ، وقال له :
إن الجزع أذهلنا عما أرشدك الله إليه فجزاك الله عن ابن مولانا خيراً ، وعن دولتنا
وعن المسلمين . » ، فإظهار لهما بعض القبول . - (المترجم)

(١٢) كل ما سبق وارد بالتفصيل في البيان المغرب ، ٢٧٦/٢-٢٧٩ ، وترجمته
ص ٤٢٠ - ٤٢٥ ، وراجع أيضا القرى : نفع الطيب ٥٩/٢-٦٠ .

(١٣) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٠/٢-٢٨٠ ، وترجمته ص : ٤١٩-٤٢٠ ،
وابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٤١ .

(١٤) القرى : نفع الطيب ، ٦٠/٢ .

(١٥) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٧٥/٢-٢٧٦ ، وترجمته ص ٤٢٩ .

(١٦) المقصود بذلك المصحف وابن أبي عامر - (المترجم) .

(١٧) المرجع الوحيد في كل ما يتعلق بهذه الحوادث هو ابن عذارى البيان المغرب ،
٢٨٠/٢-٢٨١ ، وترجمته ص : ٤٣٥-٤٣٨ .

(١٨) نزيد على ما قاله المؤلف في المتن أن الفرحة استولت على الأندلسيين واستبدت
بهم إذ أحسوا أنهم تخلصوا من الصقالبة وشروهم ، وأطمأنت نفوس القوم فقد زالت
دولتهم ، ولم يكتفوا ذلك في أحاديثهم وظهر على السنة شعرائهم حتى ليقول أحدهم :

أخرج من قصر أمير الهسبدي كل قتي متبسسط حـ
فمن رأينا منهمو قال : لا مساس قبل الناس بالشساكر
فخف ظهر المسلك المرتضى إذ خف من ثقلهم الظاهـ

والقول في ذلك كثير ، والشعر جم ، والفرحة عامة - (المترجم) .

(١٩) نزيد على ما قاله المؤلف ابن الأبار من أنه « لما انتفض العدو على أثر
ذلك وخيف الاضطراب ولم يكن عند المصحف غنى ولا دماغ ضمن محمد بن أبي عامر
لصبح أم هشام سكن الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها ، على أن يهد بالمال ويعمل
عليه قواده » ، انظر الحلة السيرة ، ص ١٤٨ - (المترجم) .

(٢٠) يسمى المؤرخون العرب هذه القلعة باسم حصن الحامة ، وهي من أرض
جليقية ، وهذه الكلمة ترجمة حرفية لكلمة Baleneos كما هو مذكور في : Sapiro
Chron. c. 23. أما اليوم فتعرف هذه القلعة باسم : Los Banos أما فيما يتعلق
بحملة ابن أبي عامر فراجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٨٢/٢ ، وترجمته ص : ٤٣٩ .

(٢١) ومن شعره الذي يفخر فيه بنفسه ومخاطراته قوله :

رميت بنفسي هول كل كريهسة وخاطرت ، والحر الكريم مخاطر
وما صاحبي الا جنسان مشيع وأسمر خطى وأبيض ياطر
وانى لزجساء الجيوش الى الوغى أسود تلاقها أسود خواد
ومن شيمي اثنى على كل طالسب . أجود يسا لا تتقيبه العسائر

راجع البيان المغرب ، ٢٩٢/٢ . وابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٥٢ . وقد
جاء في هذا المرجع الأخير قوله :

ولين الحشايا بالخيل الضواهر
صدا الدرع من مستحكات المسامر
اذا اشيتجر الاقران بين العساكر
بسيقي اقد الهسام تحت المعافر
وناصحه المشهود يوم الفاخر
ولكن عهدت الله في قتل كافر

الم ترني بعثت الاقامة بالسوى
تبدلت بعد الزعفران وطيبه
اروني فتى يحمى حمى وموقفي
انا الحاجب المنصور من آل عامر
تلاد امير المؤمنين وعبيده
فلا تحسبوا اني شفقت بغيركم

(٢٢) راجع ابن عذاري : البيان المغرب ، ٢٨١/٢-٢٨٢ ، وترجمته ص : ٤٢٧-٤٢٩ ،

والقرى : نفع الطيب ، ٦٠/٢-٦٩-٦٠

حواشى الفصل الثامن

(١) ذكر ابن الأبار : الحلة السبراء ، من ١٤٢-١٤٧ ، جملة من أشعاره فراجعها
منه .

(٢) ابن الأبار : نفس المرجع ، ١٤١-١٤٢ . وابن عذارى : البيان المحرّب ،
٢٧١ ، ٢٢١/٢ ، وترجمته ص : ٣٥٦ ، ٤٢٠ ، وهناك كثير من المراجع عن المصحف :
أما اسمه الكامل فأبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر القيسى ، ويمكن للمقارن الرجوع الى
ما ذكره الضبى عنه فى بغية المتتمس ، رقم ٦١٤ ، ص ٢٤٠ .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ، ٦٠/٢ .

(٤) ابن الأبار : الحلة السبراء : ص ١٤٢ .

(٥) المقرئ : نفع الطيب ، ٦٠/٢ .

(٦) المقرئ : نفس المرجع والجزء والصحة .

(٧) شرحه : ص ٦٦ .

(٨) راجع ابن خلكان ، ترجمة دى سلين ، ١٣٠/٢ .

(٩) لم يعد لهذه الناحية وجود اليوم ، راجع البيان المغرب ، ٤١٠/٢ ، حاشية
رقم ١ .

(١٠) لم يثر دوزى الى المصدر الذى رجح اليه ، ولكننا نقلناه من ابن عذارى :
البيان المغرب ٢٨٣/٢ ، ويلاحظ أن المقرئ : نفع الطيب ٦١/٢-٦٢ يوجز فى هذه الناحية
أيجازاً شديداً - (المترجم) .

(١١) راجع ابن الأبار : الحلة السبراء ، ص ١٤٢ ، وقارنها بما جاء فى ابن
عذارى : البيان المغرب ، ٢٨٤/٢ ، وترجمته ص : ٤٤٢ .

(١٢) انظر ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص : ٢٩٠ ، وترجمته ص : ٤٥١ .

(١٣) وذلك شريكا لأبى جعفر المصحف - (المترجم) .

(١٤) انظر ابن الأبار : الحلة السبراء ، ص : ١٤٢ .

(١٥) لم ينفرد ابن عذارى وحده بذكر هذا التاريخ بل ذكره أيضا النويزى (طبعة
واميرو جاسبرو) ، ص ٢١٨ .

(١٦) راجع فى كل ما سلف ابن عذارى : المرجع السابق ٢٨٢/٢-٢٨٥ ، وترجمته
ص ٤٢٩-٤٤٤ ، والمقرئ : نفع الطيب ، ٦١/٢ ، ٦٢ .

(١٧) ابن عذارى : شرحه ٢/٢٨٨ ، وترجمته من ٤٤٨-٤٤٩ ، والمقرئ : نفع الطيب ، ٣٩٥/١ .

(١٨) ابن عذارى : المرجع السابق ، ٢/٢٨٥ ، وترجمته من ٤٤٤ ، والمقرئ : نفع الطيب ٢٠/٦٢ ، أما فيما يتعلق بهشام فراجع : Dozy : Recherches, t. II p. 237.

(١٩) فيما يتعلق بوصف هذا القصر وأحداث هذه الفترة راجع ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ١/٢٠٠-٢٠١ (تحقيق د/شوقي ضيف) دار المعارف القاهرة ١٩٦٤ - (المترجم) .

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢٨٥ ، وترجمته من : ٤٤٤ ، ونفع الطيب ٢/٦٢ .

(٢١) وردت هذه الأبيات في الفتح ، من ٧ ، والبيان المغرب ٢/٢٩١ وترجمته من ٤٥٢ ، والحلة السيرة من ١٤٧ ، ونفع الطيب ١/٢٧٥ .

(٢٢) وردت هذه الأبيات بصورة أطول من هذه في النخبة لابن بسام ، ق ٤ ، المجلد الأول ، القاهرة ، ص ٥١١ .

(٢٣) وذلك في قوله تعالى : « وإذا حийتم بتحية فحيوا بأحسن منها ، أو ردوها » سورة النساء ، آية ٨٦ - (المترجم) .

(٢٤) البيان المغرب ، ٢/٢٨٦ ، ٢٩١ ، وترجمته من : ٤٤٥-٤٤٧ ، ٤٥٢ ، والمقرئ : نفع الطيب ٢٧٥-٢٧٦ .

(٢٥) ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٨٩ ، وترجمته من ٤٥٠ .

(٢٦) مما كتبه الى المنصور بن ابي عامر قوله :

هبنى أسنات فائين العفو والكرم
يا خير من مدت الأيدي اليه أما
تري لشيخ تعاه عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر
ولو تشفع فيك العرب والعجم
على أن ذلك لم يرقق عليه قلب المنصور الذي رد عليه ردا غليظا بقصيدة على الروى
نفسه ختمها بقوله :

نفسى اذا سخطت ليست برأئيتية
ولو تشفع فيك العرب والعجم
وهذا البيت وغيره مما يوضح ما انطوت عليه نفسه من حقد كرهه كان أولى به أن
ينزه نفسه عنه لاسيما وقد بلغ من النفوذ والقوة والتمكن ما بلغ - (المترجم) .

(٢٧) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢٨٦ ، وترجمته من : ٤٤٥ ، والمقرئ : نفع الطيب ١/٢٩٦ .

(٢٨) البيان المغرب ، ٢/٢٨٨ ، وترجمته من ٤٤٩ ، وابن الأبار : الحلة السيرة من : ١٤٢ ، والنويرى : ص ٢١٨ .

(٢٩) المقصور بذلك كاتب المنصور بن ابي عامر - (المترجم) .

(٣٠) البيان المغرب ، ٢/٢٨٨ - ٢٨٩ ، وترجمته من : ٤٤٩-٤٥٠ .

حواشي الفصل التاسع

- (١) راجع النويرى ، ص ٢١٩ .
- (٢) يقصد بذلك غالبا والد أسماء زوجة المنصور بن أبى عامر - (المترجم)
- (٣) ابن حزم : طوق الحمامة ، طبعة بتروف ، ص ٢٥ .
- (٤) لقد اضربنا عن ذكر البيت الذى يلى هذا رغم أن المرقى : نفع الطيب ٣٩٦/١ أورده وذلك لا يخالفه فى الفجش مما ينبو عنه السمع ويكره اللسان النطق به - (المترجم)
- (٥) هو أبو عمر يوسف بن هارون الرمادى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ، راجع عنه ابن بشكوال : كتاب الصيلة : رقم ١٣٧٦ ، ص ٦١٢ ، ٦١٤ ، والضبى بغية المتمس رقم ١٤٥١ . ص ٤٧٨-٤٨١ ، والفتح : المطمح (طبعة القاهرة) ١٣٢٥ ، ص ٧٨-٨٣ ، وعبد الواحد المراكشى : كتاب المعجب (الترجمة) ص ١٨ ، حاشية رقم ١ ، والشعالى : بقيمة الدهم (طبعة دمشق ١٣٠٤ هـ) ٣٦٥/١ ، والمرقى : نفع الطيب ٤٤٠/٢ ، وكذلك فهرسته .
- (٦) قارن ما جاء فى عبد الواحد المراكشى : ص ١٧ ، وترجمته ص ٢٠ بشمسعر الرمادى الوارد فى الحاشية التالية .
- (٧) انظر الشعر الوارد فى المرقى نفع الطيب ٤٤٢/٢ - (المترجم)
- (٨) سورة المائدة ، آية رقم ٥ .
- (٩) راجع ابن الأبار : الحلة السبراء ، ص ١٥٤-١٥٥ ، وابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٤١-٤٢ ، وانظر كذلك المرقى : نفع الطيب ، ٢٨٦/١ .
- (١٠) راجع المراكشى : المعجب ، ص ١٧ ، وترجمته ص : ٢٠-٢١ ، الا انه ظهر أن الرمادى قد عفا عنه فيما بعد ، لأننا نجده مذكورا بين الشعراء الذين صحبوا ابن أبى عامر فى حملته التى شنّها على برشلونة سنة ٩٨٦م ، انظر ابن الخطيب : الاحاطة (طبعة القاهرة) ٧١/٢ .
- (١١) هو أبو محمد بن عبد الله بن إبراهيم الأموى الأصبلى (نسبة الى قبيلة أصبيلة Arcila بمراكش) وكان محدثا بارزا وفقهيا معروفا ، ومات سنة ٢٩٢ ، راجع الضبى : بغية المتمس ، رقم ٩٠٦ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ ، وابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٧٥٨ ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

(١٢) هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرطقة بن نكوان آخر قضاة الجماعة بقرطبة في عهد الدولة الأموية ، وقد ولد سنة ٣٤٢ هـ ، هذا وقد وردت الإشارة إليه في ابن بشكوال : كتاب الصلة (نقلا عن ابن حيان) رقم ٦٣ ، ص ٢٠٨-٢٠٩ - (المترجم) .

(١٣) هو أبو بكر بن الحسن الزيبيدئ النحوي الأندلسي الشهير ، مات في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ، راجع الضبي : بغية الملتصم ، رقم ٨٠ ، ص ٥٦-٥٧ ، وابن الغرضي : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ١٣٥٥ ، ص ٢٨٣ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٨٢/٣ ، والفتح : المطمح ، ص ٦١-٦٢ ، راجع أيضا الترجمة الفرنسية للبيان المغرب ٤٨٨/٢ ، حاشية رقم ٢ - (المترجم) .

(١٤) راجع صاعد الطليطلي : كتاب طبقات الامم (طبعة شيخو) ص : ٦٧ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢١٥/٢ ، وترجمته ص : ٤٨٧-٤٨٨ ، والمقرئ : نفح الطيب ١٣٦/١ .

(١٥) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢١٥/٢ ، وترجمته ص ٤٨٧ ، وقارن ذلك بالأسطر الثلاثة الأخيرة الواردة في المكتبة العربية الصقلية (جمع أماري) .
Amari : Biblioteca Arabo-Sicula , p. 674.

(١٦) انظر على سبيل المثال ابن الأبار : الحلة السرياء ، ص ١٥١-١٥٢ .

(١٧) راجع المقرئ : نفح الطيب ٢٦٦/١ .

(١٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢١٥-٢٠٩/٢ ، وترجمته ص ٤٨٠ ، والمقرئ : شرحه ، نفس الجزء والصفحة .

(١٩) المقرئ : نفس المرجع ٥١/٢ .

(٢٠) ابن عذارى : البيان المغرب ٢٧٠/٢ ، وترجمته ص ٤١٩ .

(٢١) وكان ذلك في سنة ٣٦٨ كما ذكر الحميري : صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨١ .

(٢٢) فيما يتعلق بالزاهرة راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢٩٤-٢٩٥/٢ ، وترجمته ص ٤٥٧-٤٥٨ ، والمقرئ : نفح الطيب ، ٢٨٠/١ ، ومقال ليفي بروفتسال في دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « مدينة الزاهرة » .

(٢٣) راجع البيان المغرب ، ٢٩٦-٢٩٨/٢ ، وترجمته ص : ٤٥٩-٤٦٠ .

(٢٤) البيان المغرب ، ٢٩٦-٢٨٩/٢ ، وترجمته ، ص ٤٥٩-٤٦٠ .

(٢٥) Dozy : Recherches, t. I, p. 81-83.

(٢٦) انظر ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٧٨ .

(٢٧) راجع ابن خلدون : العبر ٥٥٦/٢ ، ٢٣٧/٣ .

(٢٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٤٠/١ ، ٢٣٧/٣ .

(٢٩) فيما يتعلق ببليجين وأسرته راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٥٨/٢ ، وما بعدها .

وترجمته ص ٣٩٩ ، وما يليها ، وابن خلدون : العبر (الترجمة) ٥٥٢/٢ ، وما بعدها .

(٣٠) راجع ابن عذارى : نفس المرجع والجزء ص ٢٩٢ ، ٢٩٩ ، ٣١٦ ، وترجمته

ص ٤٤٥ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٩٠ .

- (٣١) راجع المقرئ : نفس المرجع ص ٢٧٢ ، السطر الاول .
- (٣٢) المقرئ : نفس المرجع /١ ٢٧٢ .
- (٣٣) المقرئ : نفس المرجع والجزء والصفحة ، وانظر ايضاً :
Dozy : Recherche , t. I, append, p. xxx.
- (٣٤) المقرئ : شرحه ، ١٨٦/١ .
- (٣٥) ابن الأبار : الحلة السبراء ، ص ١٠٣ .
- (٣٦) راجع المقرئ : نفع الطيب ٦٤/٢ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٩٩/٢ ، وترجمته ص : ٤٦٤ ، وابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٦١ ، وراجع ايضاً ابن الأبار في :
Dozy : Recherches, t. I, append, p. xxx.
- أما فيما يتعلق بالتاريخ فراجع نفس المرجع ، ١٧٦/١ ، وكذلك :
Codera : Boletin de la Roy. Acad. de Historia, t. XXXII, p. 101.
- (٣٧) الثابت انه مات يوم ٤ من المحرم سنة ٢٧٨ هـ .
- (٣٨) هذه الكلمة تعريب لكلمتي Pierre Sécha وأما اسمه الكامل فهو أبو بكر عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضي ، أما نعته بالبطرشك فالأرجح أن ذلك نسبة الى بخله ، وأن قال ابن الأبار « البطرشك : ومعناه الحجر اليابس » ، انظر ايضاً :
Dozy : Recherche , t. I, p. 173-181.
- (٣٩) ويعرف باسم « شانجة بن غرسية » أو « شانجة أباركة » Sancho Abarka - (المترجم) .
- (٤٠) وتقع « رولة » هذه Rueda أو « روضة » في مقاطعة بلد الوليد .
- (٤١) Cf. Chronic. du Moine de Silos, c. 71 ; Dozy : op. cit., I, p. 180-181.
- (٤٢) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٩٩/٢-٣٠٠ ، وترجمته ص : ٤٦٥ .
- (٤٣) راجع المقرئ : نفع الطيب ٢٥٨/١ .
- (٤٤) العبر لابن خلدون ١٥٢/٢ ، ٥٥٤ ، ٢١٦/٣ .
- (٤٥) انظر ابن عذارى : البيان المغرب : ٢٠١-٢٠٠/٢ ، وترجمته ص : ٤٦٧-٤٦٦ ، راجع ايضاً المقرئ : نفع الطيب ، ٢٦٠/١ -

حواشي الفصل العاشر

- (١) راجع ابن خلدون في الطبعة الثالثة من :
Dozy : Recherches, t. II, pp. 99 et 174.
- (٢) Sampiro : Chroni. c. 29; Chronicon Iriense, c. 12.
- (٣) Dozy : op. cit., I, 179-180.
- (٤) ابن خلدون في Dozy : op. cit., I, p. 99.
- (٥) Dozy : op. cit., I, p. 180.
- (٦) Dozy : op. cit., t. I, p. 99.
- (٧) Chronicon Iriense, c. 12. وابن خلدون في دوزي ، المرجع السابق (١/١٠٠٠).
- (٨) ابن خلدون في دوزي ، المرجع السابق ، ١١٤/١-١١٥ .
- (٩) يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة خلت لذي الحجة سنة ٢٧٤ وهو الخامس من حاية ، راجع ابن أبي الفياض في ابن الأبار : الحلة السرياء ، ص ٢٥٢ ، وكان يوم ٥ مايو من سنة ٩٨٥ م يطابق يوم الثلاثاء .
- (١٠) يذكر ابن الخطيب في مقاله عن المنصور في الاحاطة (طبعة القاهرة ، ٧١/٢ ، ٧٢) قائمة بأسماء هؤلاء الشعراء الذين اصطحبهم المنصور معه - (المترجم) .
- (١١) أخذ بنو الخطاب منذ زمن ابن الأبار - اعنى في القرن الثالث عشر الميلادي - يزعمون أنهم عرب ، غير أن أسلافهم من أهل القرن العاشر لم يفكروا أبداً في الانتساب إلى هذا الأصل .
- (١٢) يقول ابن أبي الفياض « ان ذلك كان لمدة - ثلاثة وعشرين يوماً ، غير أننا اتبعنا ما نكره ابن حيان . »
- (١٣) راجع ابن الأبار : الحلة السرياء ، ص ٢٥١-٢٥٢ .
- (١٤) ابن الخطيب : الاحاطة ٧١/٢ .
- (١٥) سقطت برشلونة - كما جاء في ابن الخطيب : الاحاطة ، ٧١/٢ - يوم الاثنين منتصف صفر سنة ٢٧٥ ، وهو يوافق يوم ٦ يوليو ٩٨٥ م ، ولا تدع الوثائق العربية مجالاً للشك في تحديد سنة سقوط برشلونة ، وهي تتفق تماماً مع الوثائق اللاتينية التي أوردها العالم « بوفارول » الذي يذهب إلى أن سقوطها جاء بعد سنة من ذلك التاريخ ، ولم يلاحظ بوفارول أن رأيه يناقض الوثيقة التي اعتمد عليها ، كما أن عبارة Kalendarum Julii feria quarta الواردة في وثيقتين تشير إلى أن بدء الحصار مطابق تمام المطابقة لسنة ٩٨٥ ، وليس للسنة التالية له .

Bufarull : Les Condes de Barcelona, t. I, pp. 163-164. (١٦)

(١٧) راجع ابن الأبار : الحلة الميراء ، ص ٢٥١ ، كما أن المنصور قام بعدة حملات ضد كونت قشتالة وملك نقارة ، وهي حملات لا توجد لدينا التفاصيل الكافية عنها .

(١٨) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٤٨/٢ ، وترجمته ص ٣٥٠ ، كما نرى عدم اتفاق كل من ابن الأثير : الكامل ج ٩ - ص ٢٤ ، 394. Annales, p. ٢٤ وابن خلدون : العبر ١٢/٢ ، ٢٥٩/٣ .

(١٩) راجع ما جاء عنه في مُدَا الجزء من الترجمة العربية . - (المترجم) .

(٢٠) يقصد المؤلف بذلك العزيز بالله نزار بن العز لدين الله - (المترجم) .

(٢١) يلاحظ أن المؤرخين الذين يقولون بأن المنصور أرسل أيضا الى افريقية جيشا بقيادة ابنه عبد الملك المظفر انما يخلطون بين هذه الحملة وبين حملة أخرى بقيادة زيري سوف نتكلم عنها فيما بعد ، ذلك أنه في الوقت الذي نحن بصدده لم يكن عبد الملك يتجاوز الثانية عشرة من عمره ، راجع النويري . Histoire d'Espagne, p. 221. اما اسم عسقلجة الحقيقي فهو غنيد الله بن عمرو .

(٢٢) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن أبي زرع : زَوْضُ القُرطائِ ، ص ٥٩-٦٠ ، وَأَيْنُ خَلْدُونِ : الخَيْرُ ١٥٢/٢ ، ٢١٩/٣ ، ٢٧٣ ، وابن عذارى : البيان المغرب : ٣٠٢/٢ ، وترجمته ، ص ٤٦٧-٤٦٨ ، وابن الأبار : الحلة السنيراء ، ص ١٥٤ .

المنصور كان رجلا شديد الاستقامة .

(٢٤) وردت هذه الابيات بأكملها في ابن عذارى : البيان المغرب ٣٠١/٢-٣٠٢ ، وترجمته ص ٤٦٨ ، وابن الأبار : الحلة السنيراء ، ص ١١٩ ، والمقري : نفع الطيب ، ٢٨٩/١ .

(٢٥) راجع المقري ، شرحه ٣٥٩/١-٣٦٠ ، وابن عذارى : البيان المغرب ٣٠٧/٢ ، وترجمته ، ص ٤٧٧ وما بعدها .

(٢٦) راجع ابن خلدون ، في Dozy : Recherches, I, p. 100.

(٢٧) Chronicon Conimbricense (Esp. Sagrada, t. XXIII) pts. I et IV.

(٢٨) انظر وثيقة الألب فلورا في : Espagna Sagrada, t. XXXVI, no. 14.

وكذلك ما أورده ريسكو في Histoire de Leon, t. I, p. 228.

(٢٩) Dozy : Recherches, t. I, p. 100.

(٣٠) هذه التفصيلات واردة في Lucas de Tuy : اما فيما يتعلق بتاريخ هذا القائد واسمه فراجع : Dozy : Recherches, t. I, pp. 181-184.

= وانظر كذلك القصة التي أودرها ابن الأثير في الكامل ٢٤/٩ ، وترجمته في :
Annales, p. 303.

(٣١) انظر الوثائق اللاتينية الأربعة في :

Risco : Historia de Leon, p. 228 ; Espagna Sagrada, t. XXXIV p. 308.

(٣٢) راجع ابن خلدون في : Dozy : Op. Cit., p. 100.

Dozy : op. cit., t. I, p. 224 et suiv. (٣٣)

(٣٤) يقصد المؤلف بالوسط هنا ما يعرف بالحضرة ، وبالشمال الثغر - (المترجم)

(٣٥) Annales Complutenses (Esp. Sagr.), XXXIII, p. 311. أما التاريخ

الوارد في : Annales Foldanes, 383. فهو تاريخ منلوط .

(٣٦) في كل ما يتعلق بهذه الأحداث وما يليها راجع على الأخص ابن عذاري :

البيان المغرب ٣٠٢/٢-٣٠٦ ، وترجمته من : ٤٧٢-٤٧٥ ، وكذلك ابن الأبار في الحلة
السيراء .

Dozy : op. cit., (1 ere. ed.,) t. I, p. 24-27. (٣٧)

(٣٨) راجع عبد الواحد المراكشي : العجب : ص ٢٤-٢٥ ، وترجمته من ص ٢٠ ،

وأما الغداه : ٥٢٤/٢ ، والمقرئ نفع الطيب ٥٧/٢ ، والضبي : بغية الشمس . ص ٣١٠ ،

وابن الأثير : الكامل : ٧٩/٩ ، وترجمته : Annales, pp. 400-401. أما فيما
يتعلق بعوت غرسية فراجع ابن خلدون في : Dozy, Recherches t. I, p. 106.

وانظر أيضا في كل ذلك ما أورده المصادر التالية :

Chronicon Burgense (Espagna Sargada, t. XXIII, p. 309); Annales Com-
pul., p. 313; Annales Compost., p. 320, Ann., Toledo, p. 384.

أما الحوليات المسماة Kal. Ianuarii فيجب أن تقرأ كلمة Iunii بدلا من "Ianuarii"

(٣٩) المتأمر الآخر الذي يقصده المؤلف هو عبد الله البطرشك - (المترجم)

(٤٠) راجع الوثيقة رقم ٩٩٠ الواردة في مجموعة :

Esp. Sagrada, t. XIX, p. 382.

(٤١) راجع ابن خلدون في الطبعة الثالثة من

Dozy, Recherches, t. I, p. 100, note 3.

Ibid., p. 101. (٤٢)

Ibid., p. 102, note, 1. (٤٣)

(٤٤) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١١٣ .

(٤٥) راجع ابن الأبار فيما نقله دوزي عنه في الطبعة الأولى من كتابه :

Recherches, t. I, p. 280.

Ibid., t. I, p. 280.

(٤٦)

(٤٧) ونضيف الى ما ذكره المؤلف في المتن أعلاه ما وجهه البطرشك هذا وهو في

حبسه الى المنصور من شعر نقتبس منه القصيدة التالية التي تصور شدة تعلقه
بالحياة :

مع الله لا يعجزه في الأرض هارب
سوى حذر الموت الذي أنا راهب
ولكن أمر الله لا يد غيب
وريت ظن ربه فيه كغيب
وترك منه واجبا لك واجب
ويجزيك منه فوق ما أنت طالب
على قدرها قدر الذي أنت راهب
ولا رد دون الميتفي عنك راغب
وعمت عموم الغيب منك المواهب
انتفها من حاجب الملك حاجب
يسير بها في الأرض ماش وراكب
ليصرف عن الخطب والدمر غائب
(المترجم)

لمررت فلم يفتن القرار ومن يكن
ووالله ما كان القرار لصالا
ولو أنني وفقت للرشد لم أكن
وأجمع كل الناس أنك قاتلي
وما هو إلا الانتقام فنشيتلي
والا فعفو يرتضى الله فعله
ولا نفس الا دون نفسك فليكن
لما خاب من جدواك منذ كنت سائلا
وقد منحت كلناك ما يعجز الوري
وان هم تأخير لنفسي فليكن

Dozy : op. cit. t. I, p. 279. • ١١٤

حواشى الفصل الحادى عشر

- (١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٣١٥ ، وترجمته ص : ٤٨٩ .
- (٢) راجع ابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص ٧٢ .
- (٣) راجع ابن عذارى ، نفس المرجع والجزء ، ص ٣١٦ ، وترجمته ص ٤٩١ .
- (٤) المقرئ : نفع الطيب ، ١/٢٨٩ .
- (٥) المقرئ : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٩٣ .
- (٦) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٣/٤١ (طبعة ليفى بروكسسال ، باريس ١٩٣٠) ، والنويرى ، ص ٢١٩ .
- (٧) ابن خلدون : العبر ، ٢/٤١ ، وابن أبى زرع : روض القرطاس ، ص : ٦٥ .
- (٨) راجع المقرئ : نفع الطيب ٢/٦٤ ، وابن عذارى : البيان المغرب ١/٢٦٢ . وترجمته ص : ٣٧٨-٣٧٢ ، وابن خلدون : العبر ، تاريخ البربر ، ٣/٢٤٣ ، وترجمته ص ٢٤٣ ، وابن أبى زرع : روض القرطاس : ص ٦٥-٦٦ وابن الأبار فى الطبعة الأولى من : Dozy : Recherches, t. I, p. 285.
- (٩) انظر الابيات الأخيرة من مرثية ابن دراج البسطلى لصبح فى الثعالبى :
يقيمة الدهر ١/٤٢٨ .
- (١٠) راجع ابن أبى زرع وابن خلدون فيما سبق .
- (١١) ورد فى تعليق بالترجمة الانجليزية بناء على ما جاء فى :
F. Myrich : The Church in Spain, (1892), p. 237.
- انه جاء فى رواية اخرى أن البابا ليو الاول هو اول من اداع هذا التبا - (المترجم) .
- (١٢) فى الترجمة الانجليزية « الفونسو الثانى » والمصحح هو الوارد
بالتن - (المترجم) .
- (١٣) انظر ما جاء فى Florey : Esp. Sagr., t. iii and xix. وقارنه بما
ذكره ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٣١٦-٣١٧ ، وترجمته ، ص ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ .
- (١٤) فيما يتعلق بشنت ياقب راجع المؤلفين العرب الذين نكرم ليفى بروكسسال فى
دائرة المعارف الاسلامية تحت مادة « شانت ياقب » .
- (١٥) جاء فى المرجع الذى اعتمدنا عليه وهو ابن عذارى « مدينة غاليسية أى
عاصمتها » ، وكلمة « غاليسية » هنا قاصرة جدا فهى تعنى الولاية البرتغالية التى تسمى
اليوم « بيرة » وكثيرا ما كانت هذه الولاية مملكة عاصمتها « بازو » انظر فى ذلك :
Dozy : Recherches, t. I, p. 150.

(١٦) يشير ابن عذارى فى البيان المغرب ٢/٢١٧ ، وترجمته ص ٤٩٢ الى اقليم فى هذه الولاية يسمى « فلطارش » Valadares وقد ورد اسم هذا الاقليم أيضا فى الوثيقة رقم ١١٥٦ ، المطبوعة فى : Esp. Sagrada, t. XXII, p. 275.

(١٧) فيما يتعلق بالأخبار السابقة راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢١٦-٢١٧ ، وترجمته ص ٤٩١-٤٩٢ .

(١٨) يستفاد من وثيقة « برميديو » الثانى المطبوعة فى : Espagna Sagrada, t. XIX, p. 381. أن هذا الفج واقع على شاطئ نهر منهو .

(١٩) راجع ابن حيان فى ابن عذارى : شرحه ٢/٢١٢ ، وترجمته ص ٤٨٢-٤٨٤ . والمقرئ : نفع الطيب ، ١/٢٦٨ ، ويظهر أن ابن عذارى أضاف من عنده عبارة « الى باب الزهراء » .

(٢٠) وهى « مليقة » عند ابن عذارى .

(٢١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢١٨-٢١٩ ، وترجمته ص : ٤٩٢-٤٩٥ ، وكل ما يطالعه إليه عن هذه الجملة مما هو وارد فى :
Historia Compest., (Esp. Sagr.) t. XX, L.I., c. 2881.

انما هو صحيح ، أما ما يزعمه هذا المؤرخ من أن Rodrigo Valesquez قد أصبح من حلفاء المنصور فهو خطأ لأنه مات قبل ذلك الوقت بتسعة عشر عاما ، إنظر فى

ذلك Espagna Sagrada, t. XIX, p. 166-169.

أما فيما يتعلق بالعلاقات الواردة فى الحوليات اللاتينية عامة فيمكن مراجعة :
Dozy : Recherches, t. I, p. 199.

(٢٢) راجع ابن خلدون فى : Dozy : op. cit., I, p. 101.

(٢٣) راجع المقرئ : نفع للطيب ٢/١٤٦ ، وكذلك :

Rodrigo de Toledo : De Rebus Hispaniis L. V. c. 16 ; Lucas du Tuy : Chronicon mundi.

(٢٤) راجع ابن ابي زرع : روض القوطاس ، ص ٦٦-٦٧ ، وابن خلدون : العبر ، تاريخ البربر ٣/٢٤٤-٢٤٨ .

حواشي الفصل الثاني عشر

- (١) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/٢١٠ ، وترجمته ص : ٤٨٠-٤٨١
 وابن الخطيب : الاحاطة ، ص ٧٢ ، والمراكشي : المعجب ص ٢٧ ، وترجمته ص ٢٢ .
- (٢) وتقع في إقليم رية على بعد تسعة فراسخ من ناجرة .
- (٣) راجع المقرئ : نفح الطيب ، ٢/٦٥ ، وابن الأبار : الحلة السراء ، ص ١٥١ ،
 وابن الخطيب ، الاحاطة ٢/٧٢ ، وابن بسام : في الذخيرة ، وعبد الواحد المراكشي :
 المعجب ص ٢٦ ، وترجمته ص ٢٢ ، ويلاحظ أن المرجع الأخير يجعل وفاة المنصور بن
 أبي عامر في سنة ٣٩٢ هـ .
- (٤) ابن الخطيب : الاحاطة ، ص ٧٢ ، والمقرئ : نفح الطيب ، ١/٢٥٩ .
- (٥) Chron. Borgense (Esp. Sagr., t. XXII), p. 309.
- (٦) Charte de 1027 ; Llorente : Noticias de los tres Provincias
 Vascongadas, Madrid, 1806). t. III, p. 355.
- (٧) Chron. du Moine de Silos (Esp. Sagr., t. XVII), c. 72.
- (٨) انظر المقرئ : نفح الطيب ، ١/٣٩٢ ، وقارنه بما جاء في
 Rodrigue de Tolède ; Histor. Arabum, c. 31.
- (٩) المقرئ : نفس المرجع والجزء ، ص ٢٩٢ .
- (١٠) شرحه ١/٢٧٤ .
- (١١) المقرئ : نفس المرجع والجزء والصفحة .
- (١٢) هذه هي القراءة الصحيحة لاسمه ، إذ قرأه Dozy : Recherches, t. II, p. 237, note 3.
 « سننسى » بضم السين وسكون النون وضم الباء الموحدة ، وقد
 ذكره الضبى في كتابه بغية المتمس ، ص ٤٢٢-٤٢٣ ، باسم قاسم بن محمد الغرى
 الشبانسى - (المترجم) .
- (١٣) هو أبو عمرو أحمد بن عبد الملك بن هشام الاشبيلي المعروف بابن المكوى ،
 راجع عنه ابن بشكوال : كتاب الصلة رقم ٣٢ ، ص ٢٢-٢٤ ، والجميدى (مخطوط
 أكسفورد) ورقة رقم ٥٦ ب ، ١٥٧ ، والمقرئ - نفح الطيب : ٢/١١٧ ، ونضيف الى
 ما ذكره دوزى ما ترجمه به ابن بشكوال في كتابه الصلة حيث قال « انه كان حافظا للفقهِ
 بعدما فيها على جميع أهل عصره ، عارفا بالفتوى على مذهب مالك ، ولا يداين
 السلطان ولا يميل معه بهواه ، وكان القريب والبعيد عنده في الحق سواء ، ودعى الى
 القضاء بقرطبة . . . توفي ليلة السبت لصلاة العصر لسابع خلون من جمادى الأولى سنة
 ٤٠١ هـ ، وكانت جنازته عظيمة شهدها واضح حاجب هشام بن الحكم ، وكان مولد ابن =

المكوى سنة ٢٢٤ ، وسمع أبو محمد بن الشقاق الفقيه يقول على قبره يوم دفنه : رحمتك الله يا أبا عمرو فضحت الفقهاء بقوة حفظك في حياتك وتفضحتهم بعد مماتك ، أشهد أني ما رأيت أحدا حفظ السنة كحفظك ولا علم من وجوها كعلمك » - (المترجم) .

(١٤) كان هذا القاضى يعرف بابن السريع الذى سيشير اليه المؤلف دوزى بعد قليل في المتن - (المترجم) .

(١٥) Dozy : op. cit., t. II, p. 237-240. وهذه العبارة التى قالها المنصور واردة في سراج الملوك لابن أبى رندكة الطرطوشى .

(١٦) هو صاعد بن الحسن الربيع البغدادى ، وفد من المشرق الى الأندلس زمن هشام ، ثم غادرها ومات بصقلية سنة ٤١٧ هـ (= ١٠٢٦ م) ، راجع عنه ابن بشكوال : الصلة ، رقم ٢٦ ، ص ٢٣٥-٢٣٦ ، والضبى : بغية المتمس ، رقم ٨٥٢ ، ص ٢٠٦-٢١١ ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، ٦٣٢/١ ، وعبد الواحد المراكشى : المعجب ، ص : ٥١٩ ، وترجمته ص : ٢٢ ، وما بعدها ، والمقرئ : نفع الطيب : ٥٢/٢ ، وما يليها . وكذلك المهرست .

(١٧) هناك قصة أخرى غير التى أوردها دوزى في المتن أعلاه لا نرى بأسا من إيراده هنا أيضا كما وتأكيدا لما ذكره المؤلف ، وهى التى ذكرها عبد الواحد المراكشى في كتابه المعجب ، ص : ٢٠-٢١ ، إذ روى أن أبا العلاء دفع هذا الكتاب - حين كمل - الى غلام يحمل بين يديه وعبر النهر : نهر قرطبة ، فخانت الغلام قدمه فزل فسقط في النهر هو والكتاب فقال ابن العريف :

قد غاص البصر كتاب الفصوص وهكذا كل ثقيل يفوص
فضحك المنصور والحاضرون فلم يرج ذلك صاعدا وقال من فوره مرتجلا :
عاد الى معسده ، انمسا . توجد في قعر البصار « الفصوص »

وقد وردت الإشارة الى كتاب الفصوص أيضا في كشف الظنون ، ولقد ثبت أن هذا الكتاب الذى أجمع الأدباء والمؤرخون على فقده لا يزال موجودا ، فقد ذكر السيد هاشم الندوى في كتابه « تذكرة النوادر من المحفوظات العربية » ص ١٢٩-١٣٠ ، المطبوع في حيدر آباد للندن بالهند سنة ١٣٧٠ هـ ، وجود نسخة نادرة من هذا الكتاب في مكتبة جامع القرويين بفاس ، وذلك نقلا عما جاء في مجلة « معارف » التى تنشرها دار المصنفين ببلدة أعظم كده ، ومع ذلك فإن الأستاذ ليفى بروفنسال لم يشر في طبعته الفرنسية للكتاب الذى نترجمه الى هذه المسألة الهامة . (المترجم) .

(١٨) توجد في هذا الموضوع قصة تضالفت ما أورده المؤلف دوزى في المتن ، وقد ذكرها المراكشى في المعجب ، ص ٢٠ ، إذ قال إن أبا العلاء هذا دخل يوما على المنصور بن أبى عامر في مجلس أنسه ، وقد تقدم أنه اتخذ قميصا له من رقاع الخرائط التى كانت تصل اليه فيها الأموال منه ، فلبسه تحت ثيابه ، فلما خلى المجلس ووجد فرصة له أراد التجرى ، وبقي في القميص المتخذ من الخرائط ، فقال له المنصور « ما هذا يا أبا العلاء ، فقال « هذه الخرائط التى وصلت الى فيها صلوات مولانا اتخذها شعارا » . فاعجب المنصور ذلك ، وقال : « لك عندي مزيد » - (المترجم) .

(١٩) أين عذارى : البيان المغرب ، ٢٠٩/٢ ، وترجمته ص ٤٧٩ .

- (٢٠) المقرئ : نفع الطيب ، ٢٧٤/١
- (٢١) المقرئ : نفس المرجع والجزء والصفحة
- (٢٢) ابن الخطيب ، الاحاطة (مخطوط جاينجوس) ، ورقة ١١٨ ب
- (٢٣) المقرئ : شرحه ، ص ٢٧٣
- (٢٤) راجع ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٣١٠ ، وترجمته ص ٤٨١
- (٢٥) المقرئ : نفع الطيب ، ٤٠٦/١ - ٤٠٧
- (٢٦) اورد هاتين القصتين ابن عذارى : البيان المغرب ٢/٣١١-٣١٠ ، وترجمته ص ٤٨١-٤٨٢

حواشي الفصل الثالث عشر

- (١) راجع النويرى ، ص ٢٢١ .
- (٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٥٩ ، وابن حيان : الفخيرة ، ورقة ١٣٠ ب ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢٧/٣ ، وما بعدها ، وقد أورد كل واحد من هؤلاء المؤرخين قصة هذه المؤامرة بالتفصيل .
- (٣) ابن الأبار . الحلة السيرة ، ص ١٤٩ ، ولنفحص الوثائق يلاحظ القارئ أن المؤلف انتقل سريعا إلى عهد المظفر ، على أن المعجب ، ص ٢٧ ، يقول أن أيامه كانت أعيادا في الخصب والنماء والأمن ودامت سبع سنين إلى أن مات - (المترجم) .
- (٤) كانت هذه الأسرات الأربع هي التي لها الصدارة بين أشرف البلاط ، راجع ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢٩٠/٢ ، وترجمته ص ٢٥١ .
- (٥) يندرج تحت لفظ « الصقالية » نصارى شمال اسبانيا الذين كانوا يعملون في الجيش الاسلامى ، انظر ابن الخطيب ، مادة « حباسة » (مخطوط جيانجوس) ورقة ١٢٤ ب .
- (٦) الخضنى : قضاة قرطبة ، ص ١٧٦-١٧٥ .
- (٧) راجع ابن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، ٢ ، ورقة ٨٠ ب ، ١٤٦ أ ب ، من مخطوط ليدن ، وراجع بشأن هذه الطائفة كتاب أزين بلاثيوس :
Aben Mesarra y su escuela.
- (٨) فيما يتعلق بهذه الأفكار راجع :
Gobineau : Trois ans en Asie, p. 347.
- حيث يصفها بأنها أفكار هندية خالصة ، وانظر أيضا ترجمة دى سلين لمقدمة ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢-٣ ، وحاشية رقم ٢ .
- (٩) ابن حزم : الملك والنحل ، ورقة ٢٢٨ ١ - ٢٣٠ ب .
- (١٠) راجع المقرئ نفع الطيب ، ٢٨٧/١ ، والحميرى : الروض المعطار (مادة : الزهراء) ، وراجع على الخصوص ابن عذارى : البيان المغرب ، ٦٥-٦٤/٣ .
- (١١) Dozy : Recherches, 3eme ed., t. I, p. 184-192.
- (١٢) أما اليوم فيسمى « شانجيلو » إلا أنه في العصر الذي نحن بصدده كانوا يقولون « شانجول » ، انظر : Dozy : op. cit., t. I, p. 188. راجع أيضا ابن عذارى البيان المغرب ، ٢٨/٣ ، ويذكر ذلك المؤلف أن أم عبد الرحمن كانت تسمى « عبدة بنت شانجة » النصرانى ، ويمكن التأكيد من عدم ثقة المؤلف بصحة نسبه حيث يشير في صفحة ٤٢ من النص إلى أنها كانت نفارية « بشكنسية » .
- (١٣) راجع النويرى ، ص ٢٢٩ لاسيما البيان ٦٨/٣ نقلا عن ابن عون الله والرقيق .

(١٤) راجع ابن الأثير : الكامل (طبعة نورميرج) ٤٩٩/٨ ، Annales, 384-5
وأنظر أيضا ما ورد لدى : Annales Toledono , II, 403. ولم يكن هذا
الأسلوب من التسميم بالنادر ، ويذكر البكري (Description de l'Afrique, p. 121)
(طبعة دي سلين) مثلا آخر على ذلك ، ويشير ابن عذاري إلى أن المظفر مات مسموما
بتدبير أخيه على يد إحدى نساء الجريم .

(١٥) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٥٠ .

(١٦) أورد ابن بسام في النخيرة ، ج ١ ورقة ٢٤ ب ، نص هذا العهد (طبعة
كلية الآداب ، جامعة القاهرة) وج ١ ، ق ١ ، ص ٨٤-٨٦ ، راجع ابن عذاري :
البيان المغرب ، ص ٤٤-٤٦ ، والنويري : ص ٢٢١-٢٢٤ ، وابن خلدون : العبر (طبعة
جولاق) ١٤٨/٤-١٤٩ ، والمقرئ نفع الطيب (١) ٢٧٧-٢٧٨ .

ونسوق في هذه الترجمة العربية نص ذلك العهد ليتعرف القارئ على ما جاء به
دوذي ، وهذا النص نقلناه عن النخيرة ، قالت : « هذا ما عهد به أمير المؤمنين مشام
المؤيد بالله - أطال الله بقاءه - إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة وأعطى
به صفقة يمينه : بيعة تامة بعد أن أجمع النظر وأطال الاستخارة ، وأهدم ما جعل الله
لنا من إمامة المسلمين ، وعضب من أمره وأتقى حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف
نزول القضاء بما لا يصرف ، وخشى - أن هجم محتوم ذلك عليه ونزل به مقبوره ، ولم
يرفع لهذه الأمة علما تآوى إليه ، ولم يوجرها ملجأ تنعطف عليه أن يكون بقاء الله
تعالى مفرطا فيها ، ساهيا عن أداء الحق إليها ، ونظر عند ذلك طبقات الرجال من أحياء
قريش وغيرها ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول في القيام به عليه ، ممن
يستوجبه بدينه وأمانته وهدية ورعيه ، بعد أطراح الهوادة والتبرؤ من الهوى ، والتحرى
للحق والتزلف إلى الله بما يرضيه ، وأن قطع الأوامر وأسخط الأتارب ، عالما أن
لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، موثقا ألا وسيلة إليه أتكى من الدين الخالص ،
فلم يجد أحد أجدر أن يقبله عهده ، ويفوض إليه أمر الخلافة من بعده ، في فضل نفسه ،
وكرم خيمه وشرف مركبه ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ، ومعرفته وأشرفه ،
وحزمه وثقافته ، من المأمون الغيب ، الناصح الحبيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة
أبى المظفر عبد الرحمن بن المتصور بن أبي عامر وفقه الله وأمير المؤمنين
- أيده الله - بما يطالع من مكنون العلم ما وعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولي عهده
القحطاني الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص بتحقيق ما أسنده أبو هريرة إلى
النبي صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق
الناس بعصاه ، « فلما استوت له به الأخبار ، وتقابلت عنه فيه الآثار ، ولم يجد
عنه مذهباً ، ولا إلى غيره معدلا ، خرج إليه عن تبشير الأمور في حياته ، وفوض إليه
النظر في أمر الخلافة بعد وفاته » - (المترجم) .

(١٧) راجع ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ١٥٠ ، وأنظر Dozy : Recherches
t. I, p. 189.

(١٨) ابن عذاري : البيان المغرب ، ٦٥/٣ ، والمقرئ : نفع الطيب ، ٢٨٨/١ .

(١٩) ابن عذاري : نفس المرجع والجزء ، ص ٤٨ .

(٢٠) فيما يتعلق بهؤلاء القوامس ، راجع :

Sandoval : Cinco Reyes, fol. 62 et suiv.

(٢١) اى على المهدي باه - (المترجم)

(٢٢) هذا هو لقب شانجول التشريفي الذي اتخذته لنفسه أيام حكمه ، أما ابن عذارى : البيان المغرب ، ٧٢/٣ قيسميه « بالمأثور »

(٢٣) فى كل ما يتعلق بهذه الحوادث راجع ما أورده النويرى عن هذا فى : Histoire d'Espagne, pp. 227-230. وانظر أيضا ما ورد بالتفصيل فى كل من القرى : نفع الطيب ، ٢٧٨/١ ، ٢٧٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ٧٤-٤٩/٣ ، حيث يسهب هذا المرجع الأخير فى سرد خبر الحوادث التى صحبت مقدم ابن عبد الجبار وخاتمة شانجول

حواشى الفصل الرابع عشر

- (١) سماه دوزى فى الاصل الفرنسى باسم *Le Bulveur* أما المراجع العربية فالتفتته بهذا اللقب الذى اثبتناه فى المتن - (المترجم) .
- (٢) كان اسم الوزير الذى يشير اليه دوزى هو : الحسن بن حى - (المترجم) .
- (٣) تكلم ابن حزم عرضا فى كتابه طوق الحمامة ، ص ١٢٦ ، عن ثورة هشام الذى تسمى بالرشيد .
- (٤) أى مبايعة سليمان بن ابي هشام - (المترجم) .
- (٥) ابن الخطيب : الاحاطة ، ص ٣٢٤-٣٢٥ .
- (٦) ورد اسمه « وادى اره » فى الاحاطة لابن الخطيب ، ص ٢٩/٢ .
- (٧) اوردهته الذخيرة ٢٠/١ ، سطر ١٥ ، و ص ٢١ ، ص ١٢ باسم « قنتيش » - (المترجم) .
- (٨) يوجد هذا العدد فى اقدم واصدق مؤرخ وهو ابن حبان (راجع الذخيرة لابن بسام ١ ، ورقة ٨ ب) ، ويذكر آخرون انهم كانوا عشرين الفا ، ويقول غيرهم بل كانوا ستة وثلاثين الفا .
- (٩) أى انه ركض الى الثغر - (مترجم) .
- (١٠) كان ذلك يوم الاحد ١٤ ربيع الاول سنة ٤٠٠ هـ - (المترجم) .
- (١١) هذا هو اليوم الوارد فى المراجع العربية ، لكن يستدل من جدول التوفيقات الالهامية ، ص ٢٠٠ ، أن يوم ٢٢ ربيع الاول كان الاحد ١٢ نوفمبر - (المترجم) .
- (١٢) انظر الادريسي *Descript. de Afrique, p. 213.* أما هذه المحلة فتعرف اليوم باسم : *Castille de Bacher*
- (١٣) هذا ما جاء فى النص الفرنسى ، والأرجح أن يكون النصف الثانى من يونيو ١٠١٠ ، لأن اول ذى القعدة (وهو الجمعة) كان يعادله يوم ١٦ يونيو ، راجع جدول السنين فى التوفيقات الالهامية ، ص ٢٠٠ - (المترجم) .
- (١٤) أورد هذا التاريخ النوويرى فى تاريخه ، كما ذكر دوزى انه وارد أيضا فى وثيقة لاتينية مطبوعة فى مجموعة *Espagna Sagrada, t. XLIII, p. 156.*
- أما التاريخ الذى ذكرناه ووضعناه بين قوسين والذى لم يذكره المؤلف فى الاصل الفرنسى فقد اثبتناه بعد مراجعة جدول السنين فى التوفيقات الالهامية .
- ص ٢٠٠ - (المترجم) .

(١٥) في «أمواج البحر» كما يقول النويري ، ونعرف أن الماء يأخذ في المد حتى يصل إلى الموضع الذي جرت فيه المعركة .

(١٦) كل الحوادث الواردة في هذا الفصل مذكورة في تفصيل كبير في ابن عذاري : البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٧٤-١٠٠ ، والنويري ، ص ٢٢٩-٢٣١ ، وابن خلدون : العبر ، ٤/١٥٠-١٥١ ، وابن حيان في السخيرة ، لابن بسام ، جزء ١ ، ورقة ٧ ب ، ١٨ - ب ، ويبدو أن ابن بسام اختصر الموضوع اختصارا شديدا ، وانظر أيضا: عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ٢٨-٣٠ ، وترجمته ص ٢٢-٣٦ ، وابن الأبار : الحلة السبراء ، ص ١٥٩-١٦٠ ، وابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ٨/٥٠٠-٥٠٢ ، ومقتبسات منه مترجمة بعنوان : *Annales*, pp. 386-389 والمقرئ : فتح الطيب : ١/٣٧٨ ، وانظر أيضا : *Rodrigue de Toledé : Hist. Arab., c. 35-38.*

أما فيما يتعلق بالتواريخ فيمكن للقارئ مراجعة المقال الوارد في النسخة الأولى من كتاب : *Dozy : Recherches, t. I, p. 238 et suiv.* وأما فيما يتعلق بقبرية « أتوا » أسقف « جيرونا » فلانظر : *Espagna Sagrada, t. XLIII, p. 157 et suiv.*

خواتم القتل العاشر عشر

- (١) فيما يتعلق بهذه الاخبار والواردة هنا فيما بعد انظر ابن حيان في الذخيرة ١ - ورقة ٨ ب ، وابن عذارى : البيان المغرب ١٠٠/٢ وما بعدها ، والتوزيئ : ٢٣٢-٢٣٣ ، وابن الاثير : الكامل ١٥٢/١-١٥٤ ، Annales, p. 408-411. وانظر أيضا : Rodrigue de Tolède, c. 38, 39.
- (٢) Annales Compestellani (Esp. Sagr., t. XXIII) ; Chron de Cerdania (Ibid.).
- (٣) المقرئ : نفع الطيب ٢٥٠/١ .
- (٤) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٠٦ ، Rodrigue to Toledo, c. 38.
- (٥) Rodrigue de Toledo, c. 38.
- (٦) ابن عذارى : البيان المغرب ١١٢/٢ ، وابن الخطيب : الاحاطة (مخطوط جيانجوس) ورقة ١٢٤ .
- (٧) راجع ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٤١ ، وابن بشكوال : كتاب الصلة ، ص ٢١١ ، رقم ٤٧٠ ، ويذكر الاخير اسم امه هو ابو عثمان سعيد ، وكان ابو المظفر ابن سعيد قاضي قرطبة السابق مات يوم الاثنين ٦ شوال ٤٠٢ هـ (٢٠ ابريل ١٠١٣ م) .
- (٨) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٩٧-٩٨ .
- (٩) ابن بسام : الذخيرة ١/ورقة ١٦١ ب (= المجلد الثاني من القسم الاول ، من طبعة كلية الاداب جامعة القاهرة ، ص ١٢٠) ، والمقرئ : نفع الطيب ٥٤٦/١ ، أما فيما يتعلق بابي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الفرضي فقد تناوله بالبحث وذكر تراجمه محمد بن شنب في دائرة المعارف الاسلامية ، كما طبع محموداً بمدريد سنة ١٨٩١ كتابه المسمى تاريخ علماء الأندلس في المجلد الثاني من المكتبة العربية الاسبانية .
- (١٠) وذلك انه كان زائر لكة المكرمة فدخل الكعبة وتعلق بأستارها وسأل الله الشهادة فاستجاب له ، رحمه الله - (المترجم) .
- (١١) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٠٤ .
- (١٢) راجع ابن الأبار : الحلة الشيراء ، ص ١٦٤ .
- (١٣) راجع ابن بسام : الذخيرة ، ورقة ١ ب وما بعدها ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ١١٢/٢-١١٤ ، والمراكشي : العجب ، ص ٢٨ وترجمته ص ٢٣-٢٤ ، وابن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٠٤ .

حواشي الفصل السادس عشر

- (١) ابن بسام : الذخيرة ، ١/ورقة ١٦ - ب •
 (٢) المقرئ : نفع الطيب ١/٢٨٠ •
 (٣) ابن بسام : الذخيرة ، ج ٢ ، ورقة ١٥ •
 (٤) نفس المرجع والجزء والورقة •
 Dozy : *Abbad., t. I, p. 222.* (٥)
 (٦) المقرئ : نفع الطيب ١/١٠٢ •
 (٧) ابن عذارى : البيان المغرب ، ٢/١٢٠ •
 (٨) المقصود بذلك فائق مولى الحكم المستنصر - (المترجم) •
 Dozy : *Abbad., t. I, p. 214.* (٩)
 (١٠) قارن ابن خلدون العبر ٢/٨ ، ٦١ بما جاء في ابن حيان : الذخيرة ، ورقة ١٢٢ ، وابن عذارى : البيان المغرب ٢/٢٦٨ •
 (١١) هذه التفاصيل الهامة واردة في ابن حيان وابن عذارى وابن الاثير ، اما ابن اللدا ٢/٢٨٨ فقد نقل عن هذا المؤرخ الأخير •
 Dozy : *Abbad., t. I, p. 222.* (١٢)
 (١٣) راجع ابن حزم في :
 Dozy : *Catalogue des Manuscrits Arabes de Lyde, t. I, 225.*
 (١٤) راجع المقرئ ١/٣١٥ ، كما توجد نفس الالفاظ في ابن حيان •
 (١٥) فيما يتعلق بالتاريخ العربي الذي لم يذكره المؤلف في النص الفرنسي فقد رجعنا في تحقيقه الى التوقيقات الالهامية ، ص ٢٠٤ ، حيث جاء فيها ان اول شوال كان الأحد ٢ مارس ١٠١٧ • - (المترجم) •
 Dazy : *op. cit., loc. cit.* (١٦)
 (١٧) أورد دوزي في الأصل الفرنسي هذا الخبر بصيغة القائية لكننا لم نعتز على هذه الصورة فوضعنا ما بين القوسين من المراجع العربية وهو اقرب ما يكون الى ما يريده المؤلف - (المترجم) •
 (١٨) يستفاد من جدول السنين في التوقيقات الالهامية ، ص ٢٠٤ ، ان اول ذى القعدة كان يوم الجمعة ٢١ مارس ١٠١٨ ، وأول ذى الحجة ٤٠٨ هو الأحد الخامس من أبريل ، وعلى هذا يكون هذا الاستعراض تم يوم الجمعة ٢٧ ذى القعدة •
 (١٩) يستدل مما ورد في الكتب العربية التي تشير اليه انهم كانوا ثلاثة اخوة =

= اثنتان هما المذكوران بالمتن أما الثالث فاسمه ادريس وكان حاكم مالقة ٠ - (المترجم) ٠

٠ (٢٠) سورة الكافرون ، ١٠٩/١-٦ ٠

٠ (٢١) قرآن كريم ، سورة التكاثر ، آية ٨١ ٠

(٢٢) راجع ابن حبان ، ورقة ١٢٨ ، والمراكشي : المعجب ، ص ٥٤-٥٠ ، ونفح

الطيب ١/٣١٦ ، ٢١٨ ٠

(٢٣) التاريخ الهجرى الوارد فى ذخيرة ابن بسام (طبعة كلية الاداب ، جامعة

القاهرة) ، ص ١٣ ، حاشية رقم ١١ من المجلد الثانى للقسم الاول ، هو ١٨ ربيع

الآخر سنة ٤١٢ ، أما ما وضعناه بين الحاصرتين فقد رجعنا فيه الى جدول سنة ٤١٢ فى

التوقيعات الالهامية ٠ - (المترجم) ٠

(٢٤) رجعنا فى التاريخ العربى الى التوقيعات الالهامية ، جدول سنة

٤١٤ هـ - (المترجم) ٠

(٢٥) يعتقد المؤلف ان خير ما يمكن الرجوع اليه هو رواية أحد شهود العيان التى

نقلها القرى فى نفح الطيب والتى ترجح ما ورد فى المعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٢٧

وترجمته ص ٤٤-٤٥ ٠

حواشي الفصل السابع عشر

- (١) راجع ابن الأبار : الحلة السرياء ، ص ١٦٥-١٦٦ ، وقد استعمل مخطوط
أبنت يسام : الذخيرة ج ٧ ، ورقة ١١-١ - ب كى تصحيح بعض أخطاء النص (وهذا
يعادل ص ٤٠-٤١ من الذخيرة ، طبعة كلية الآداب جامعة القاهرة) .
- (٢) راجع المقرئ : نفح الطيب ، ٢٨٥/١ ، ويلاحظ أن هذه الأبيات تختلف عن
الأبيات الواردة في ابن يسام : الذخيرة ، ورقة ١١ ب ، ١١٢ .
- أما فيما يتعلق بابن حزم فراجع ما كتبه عنه فان أردونك في الدائرة ، وكذلك الجزء
الأول من سلسلة الدراسات التي كان يصدرها الأستاذ ميخائيل أزين بلاتيس عن :
Abenhazem de Cordoba y su historia critica de los ideas religiosos.
- (٣) Dozy : Catalogue des Manuscrits arabes de la bibliotheque de .
Leyde, t. I, p. 227.
- (٤) ابن حزم : الفصل ، ٢٢٧/٢ .
- (٥) ابن حزم ، نفس المرجع والجزء والصفحة .
- (٦) Dozy : Catalogue ..., t. I, p. 225, 230.
- (٧) طوق الحمامة لابن حزم (طبعة بيروت) ص ١٠٢ - ١٠٥ .
- (٨) يوافق ذلك يوم ٢١ يونيو سنة ١٠١٢ - (المترجم) .
- (٩) يوافق ذلك يوم ١٣ يوليو سنة ١٠١٣ م ، راجع التوفيقات الالهامية ،
ص ٢٠٢ - (المترجم) .
- (١٠) يعادل ذلك شهر فبراير ١٠١٩ م - (المترجم) .
- (١١) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ١٠٢-١٠٥ .

حواشي الفصل الثامن عشر

- (١) « الدائرة » لفظ استعمله ابن بسام في الذخيرة نقلاً عن ابن حبان ويقصد به الحراس .
- (٢) متقلد المديونة الذي يشير إليه المؤلف هو أحمد بن بسيل - (المترجم) .
- (٣) يستفاد من جدول السنين في التوقيعات الالهامية سنة ٤١٤ هـ ، ان يوم ١٨ يناير ١٠٢٤م هذا كان يعادل يوم السبت ٤ ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ - (المترجم) .
- (٤) كان هذا المخلوق هو الذي عرفناه من قبل باسم محمد العراقي - (المترجم) .
- (٥) ابن بسام . الذخيرة ، ج ١ ، ورقة ٨٢ ب .
- (٦) ويعادله شهر ربيع الاول من سنة ٤١٦ هـ ، راجع التوقيعات الالهامية ، جدول السنين ص ٢٠٨ - (المترجم) .
- (٧) يقصد بذلك يحيى بن حمود - (المترجم) .
- (٨) وتعرف هذه القرية بقرية « اقلح » بفتح الهمزة وسكون القاف وكسر اللام بعدها ياء مثناة تحتانية ، وآخرها حاء مهملة - (المترجم) .
- (٩) فيما يتعلق بهذه الحوادث راجع ابن حبان في الذخيرة لابن بسام جزء ١ ، ورقة ٩ ب ١١١ ، ١١٤ - ١١٥ - لا سيما ابن عذارى : البيان المغرب ١٣٥-١٤٣ ، والكامل لابن الاثير ١٩٢/٩-١٩٤ . 420-430. *Annales du Maghreb et d'Espagne* ، وعبد الواحد المراكشي : المعجب ص ٢٨-٤٠ ، وترجمته ص ٤٦-٤٩ ، والمقرئ : نفع الطيب Rodrigue de Toledo, c. 44. ، ٣٢٠-٣١٩/١
- (١٠) صاحب هذا الرأي هو الحميدى الذي نقل عنه بقية المؤرخين المسلمين .
- (١١) اسم هذا القائد المرزبي الذي لم يذكره دوزى هو أبو جعفر أحمد بن موسى - (المترجم) .
- (١٢) تشير التوقيعات الالهامية ، ص ٢٠٨ الى ان رمضان سنة ٤١٦ يطابق الفترة الممتدة من يوم ٢٦ اكتوبر ١٠٣٥ حتى ٢٣ نوفمبر ، ومن ثم يمكن أن تكون هذه الأحداث جرت في رمضان أو شوال سنة ٤١٦ هـ - (المترجم) .
- (١٣) يعادل ربيع الاول سنة ٤١٧ هـ - (المترجم) .
- (١٤) يعادله يوم الاثنين ٢٢ جمادى الاولى سنة ٤١٧ هـ ، راجع في تحقيق ذلك التاريخ التوقيعات الالهامية ص ٢٠٩ - (المترجم) .

- (١٥) يعادله شهر ربيع الأول سنة ٤١٨ هـ - (المترجم)
- (١٦) وفى قول آخر « المعتمد »
- (١٧) عبد الواحد المراكشى . المعجب ، ص ٤٠-٤١ ، وترجمته ص ٤٩
- (١٨) يعادله بالتاريخ العربى يوم الخميس ٨ ذى الحجة سنة ٤٢٠ ، انظر التوفيقات
الالهامية ، ص ٢١٠ - المترجم
- (١٩) يعادل جمادى الثانية سنة ٤٢٦ هـ - (المترجم)
- (٢٠) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ١٩٩/٩ ، وانظر ترجمته لدوزى بعنوان :
Annales du Maghreb et d'Espagne, p. 435-436.
- (٢١) انظر ابن بسام : الذخيرة ج ١/١٥٧
- (٢٢) ابن الأثير : الكامل ١٩٩/٩ . Annales du Maghreb, p. 436.

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدمة الجزء الثانى
٥	الفصل الأول
٢١	الفصل الثانى
٢٢	المواجهة بين الناصر ومراكز القوى المسيحية
٣٥	الفصل الثالث
٣٧	ظهور فرناند كوثالث
٤٩	الفصل الرابع
٥١	شانجة وموت الناصر
٥٩	الفصل الخامس
٦١	خلافة الحكم من عبد الرحمن
٦٩	الفصل السادس
٧١	المنصور بن أبى عامر
٨٣	الفصل السابع
٨٥	أحداث استخلاف هشام بن الحكم
٩٣	الفصل الثامن
٩٥	تضارب نفوذ المصحفى وابن أبى عامر
١٠٥	الفصل التاسع
١٠٧	ابن أبى عامر صاحب الأمر فى الحكومة

١١٩	• • • • •	الفصل العاشر
١٢١	• • • • •	الأمر تتأزم في وجه المنصور
١٣١	• • • • •	الفصل الحادي عشر
١٣٣	• • • • •	المنصور في ذروة قوته
١٤٣	• • • • •	الفصل الثاني عشر
١٤٥	• • • • •	خاتمة المنصور
١٥٥	• • • • •	الفصل الثالث عشر
١٥٧	• • • • •	اضطراب الأوضاع
١٦٧	• • • • •	الفصل الرابع عشر
١٦٩	• • • • •	المهدي والبربر وهشام بن الحكم
١٧٩	• • • • •	الفصل الخامس عشر
١٨١	• • • • •	الأندلس بين الصقلالية والبربر
١٨٧	• • • • •	الفصل السادس عشر
١٨٩	• • • • •	المنازعات والخصومات الدموية حول الحكم
٢٠١	• • • • •	الفصل السابع عشر
٢٠٣	• • • • •	واحة المؤرخ
٢١١	• • • • •	الفصل الثامن عشر
٢١٣	• • • • •	اضطراب الأمور الداخلية
٢٢٥	• • • • •	حواشي الكتاب
٢٢٧	• • • • •	حواشي الفصل الأول
٢٣١	• • • • •	حواشي الفصل الثاني
٢٣٦	• • • • •	حواشي الفصل الثالث

٢٤٠	• • • • • • • •	حواشى الفصل الرابع
٢٤٣	• • • • • • • •	حواشى الفصل الخامس
٢٤٦	• • • • • • • •	حواشى الفصل السادس
٢٤٩	• • • • • • • •	حواشى الفصل السابع
٢٥٢	• • • • • • • •	حواشى الفصل الثامن
٢٥٤	• • • • • • • •	حواشى الفصل التاسع
٢٥٧	• • • • • • • •	حواشى الفصل العاشر
٢٦١	• • • • • • • •	حواشى الفصل الحادى عشر
٢٦٣	• • • • • • • •	حواشى الفصل الثانى عشر
٢٦٦	• • • • • • • •	حواشى الفصل الثالث عشر
٢٦٩	• • • • • • • •	حواشى الفصل الرابع عشر
٢٧١	• • • • • • • •	حواشى الفصل الخامس عشر
٢٧٢	• • • • • • • •	حواشى الفصل السادس عشر
٢٧٤	• • • • • • • •	حواشى الفصل السابع عشر
٢٧٥	• • • • • • • •	حواشى الفصل الثامن عشر

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٤٧٠٦

ISBN — 977 — 01 — 3796 — 0

هذا هو الجزء الثاني من الترجمة العربية من تاريخ الإسلام والمسلمين في الأندلس للمستشرق الهولندي «رينهت دوزي»، يتضمن أحداث فترة انتقال هامة في مسيرة الحضارة والإسلام هناك ، وقد ترجم هذا الكتاب إلى عديد من اللغات الأوربية ، وكانت أمنية القارئ العربي أن يطلع عليه في لغة الضاد حتى نهض بذلك أستاذ جليل ومؤرخ حجة في تاريخ الإسلام والعصور الوسطى هو الدكتور حسن حبشي فترجمه كله ترجمة اتسمت بالدقة وإشراق الأسلوب وصحة التعليقات.

ويسر هيئة الكتاب أن تقدم هذه الترجمة العربية لطلاب التاريخ بعامة ، والأندلسي بخاصة كإضافة جديدة في مجال الدراسات التاريخية الصحيحة ، ومساهمة منها في حركة التنوير.

تصميم الغلاف:

علياء أبوشادي